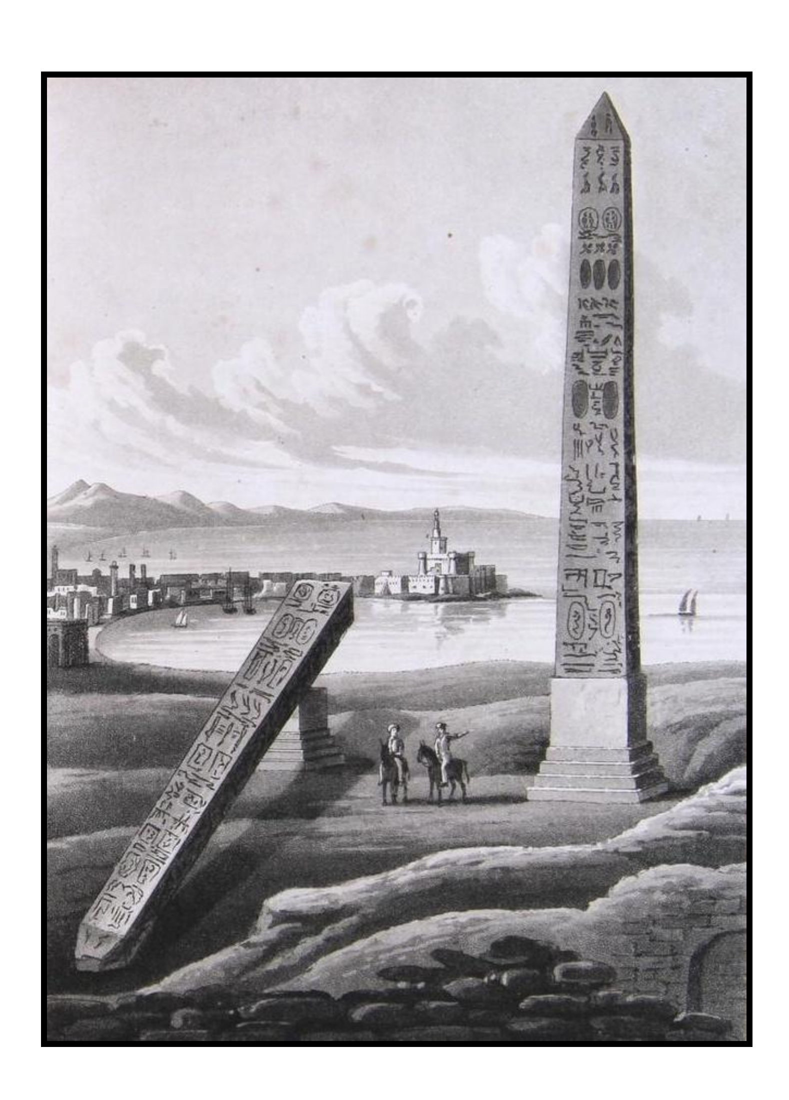
إلى القاهرة عبر ميناء الإسكندرية

مشاهدات طائفة من الرحالة الأنجلو- أمريكيين



جمعها وترجمها وعلق عليها:

د/ محمد عزب	د/ مي موافي
الأستاذ المساعد	المدرس
بجامعة شقراء	بجامعة الأزهر

حقوق الترجمة

جميع الكتب الأجنبية المذكورة لاحقًا سواء طُبعت في إنجلترا أو الولايات المتحدة أو الهند أو في أي جهة أخرى سقطت عنها حقوق المِلكية بالتقادم ودخلت "النطاق العام"Public Domain ، وتوجد نسخ رقمية متاحة لها على موقع "أرشيف الإنترنت" www.internetarchives.com وموقع "كتب جوجل" https://books.google.com

صورة الغلاف

وردت في كتاب "وليم راي ويلسون" William Rae Wilson "سفرات إلى مصر والأرض المقدسة" الذي نشرته "لونجمان" في "الندن" عام 1822. رسم الصورة "أ. ب. هريسون" A. P. Harrison بناءً على مسودة خطها المؤلف نفسه. في كتابها "المرأة الإنجليزية في مصر" The Englishwoman in Egypt كتبت "صوفيا لين بول" Sophia Lane Poole (1891 – 1804) واصفة مسلتي كليوباترا [1] موضوع صورة الغلاف قائلة: "لم نر ما يستحق الذكر حتى وصلنا إلى المسلتين الواقعتين في زاوية الباحة على مقربة من ساحل الميناء الجديد، أعني مسلتي كليوباترا. وكل واحدة منهما مكونة من قطعة واحدة صلدة من الجرانيت الأحمر، ارتفاعها سبعون قدمًا تقريبًا، وطول ضلعها عند القاعدة سبعة أقدام ونصف قدم. وهنا أتعجب، كما فعل الكثيرون من قبلي، كيف تمكن قدماء المصريين من رفع مثل هذه الكتل الصلدة؟ لا شك في أنّ معرفتهم بآلات الرفع كانت قطعًا هائلة، والدليل على ذلك ما خلفوه من عجائب."[2]

---

[1] تم نقلهما إلى لندن ونيويورك.

[2] ترجمة د. عزة كرارة، دار سطور، القاهرة،1999، ص 44.

قائمة المحتويات وبيان الرحلات

م	صفحة	سنة الوصول للإسكندرية	اسم الرحالة		النوع	الجنسية	تاريخ الميلاد	تاريخ الوفاة	اسم العمل بالعربية	اسم العمل بالإنجليزية	الجزء المترجم	معلومات إضافية
1		1779	إليزا فاي	Eliza Fay	امرأة	إنجليزية	1755	1816	الخطابات الأولى من الهند	Original Letters from India	الخطاب السادس	
2		1814	جون برامسين	John Bramsen	رجل	إنجليزي			رحلات إلى مصر وسوريا وقبرص والمورة واليونان وإيطاليا وبلاد أخرى	Travels in Egypt, Syria, Cyprus, the Morea, Greece, Italy, etc. etc	الخطاب الخامس عشر	أستاذ جامعي
3		1814	هنري لايت	Henry Light		إنجليزي			رحلات في مصر والنوبة والأرض المقدسة وجبل لبنان وقبرص	Travels in Egypt, Nubia, Holy land, Mount Libanon and Cypress	من "الفصل الأول"	ضابط جيش
4		1822	بارت فريديرك هينيكر	Bart Frederick Henniker	رجل	إنجليزي	1793	1828	ملاحظات خلال زيارة إلى مصر والنوبة والواحة وجبل سيناء والقدس	Notes during a Visit to Egypt, Nubia, Oasis, Mount Sinai and Jerusalem	الفصل الأول	
5		1825	جون كرين	John Crane	رجل	إنجليزي			خطابات من الشرق	Letters from the East	من "الفصل الرابع"	رجل دين
6		1826	زوجة العقيد إيلود (آن كاثرين كيرتس)	Mrs. Col. Elwood (Anne Katharine Curteis)	امرأة	إنجليزية			سرد للرحلة البرية من إنجلترا عبر قارة أوروبا ثم مصر والبحر الأحمر وصولًا إلى الهند	Narrative of a Journey Overland from England by the Continent of Europe, Egypt, and the Red Sea to India	الخطاب الخامس عشر	
7		1832	جيمس أوجستس سانت جون	James Augustus St. John	رجل	بريطاني	1795	1895	مصر ومحمد علي	Egypt and Mohammed Aly	من "الفصل الأول"	من ويلز
8		1835				أمريكي			أحداث السفر إلى مصر	Incidents of	من "الفصل	آثر المؤلف عدم

									والبتراء والأرض المقدسة	Travel to Egypt, Arabia Petraea and the Holy	الأول"	ذكر اسمه
9		1836	وليم فوليرتن كمنج	William Fullerton Cumming	رجل	بريطاني			ملاحظات رحالة ينشد الاستشفاء عبر إيطاليا ومصر واليونان وتركيا، صعودًا مع الدانوب وهبوطًا مع الراين	Notes of a Wanderer in Search of Health through Italy, Egypt, Greece, Turkey, up the Danube and down the Rhine	من "الجزء الأول"	طبيب
10		1839	إيما روبرتس	Emma Roberts	امرأة	إنجليزية	1794	1840	ملاحظات على الرحلة البرية عبر فرنسا ومصر وصولًا لبومباي	Notes of an Overland Journey through France, Egypt to Bombay	من "الفصل الرابع"	
11		1846	هاريت مارتينيو	Harriet Martineau	امرأة	إنجليزية	1802	1876	الحياة الشرقية أمس واليوم	Easter Life, Present and Past	الفصل الأول	عالمة اجتماع إنجليزية
12		1848	جيسي أميس سبينسر	Jesse Ames Spencer	امرأة	أمريكية			الشرق: اسكيتشات السفر إلى مصر والأرض المقدسة	The East: Sketches of Travel in Egypt and the Holy land	من "الخطاب الأول"	
13		1849	جيمس لاريد باترسون	James Larid Patterson	رجل	إنجليزي	1822	1902	يوميات جولة في مصر وفلسطين وسوريا واليونان	Journal of a Tour in Egypt, Palestine, Syria and Greece	من "الفصل الثاني"	
14		1854	بنت يافث	A Daughter of Japhet	امرأة	إنجليزية			أرض حام	The Land of Ham	من "الفصل الثاني"	آثرت المؤلفة عدم ذكر اسمها
15		1860	م. ل. م. كاري	M. L. M. Carey	امرأة	إنجليزية			أربعة شهور في دهبية	Four Months in a Dahabeeh	من "الفصل الثاني"	

إلى القاهرة عبر ميناء الإسكندرية

16		1860	ماري لويزا ويتلي	Mary Louisa Whately	امرأة	إنجليزية	1824	1889	الحياة الخشنة في مصر	Ragged Life in Egypt	الفصل الثالث	مبشرة إنجليزية
17		1864	أمالين لوت	Emmeline Lott	امرأة	إنجليزية			حياة الحرملك في مصر والقسطنطينية	Harem life in Egypt and Constantinople	من "الفصل الأول"	
18		1869	هنري هارمن	Henry M. Harman	رجل	أمريكي			رحلة إلى مصر والأراضي المقدسة	A Journey to Egypt and the Holy Land	من "الفصل الثالث"	أستاذ جامعي
19		1874	بايارد تيلور	Bayard Taylor	رجل	أمريكي	1825	1878	مصر وأيسلندة	Egypt and Iceland	الفصل الأول والثاني	كاتب
20		1874	شارلز دادلي وارنر	Charles Dudley Warner	رجل	إنجليزي	1829	1900	شتويتي على النيل	Winter on the Nile	الفصل الثاني	
21		1876	ل. س. لين	L. C. Lane	امرأة	أمريكية			مراسلات السفر	Letters of Travel	الفصل الثامن والثلاثين	
22		1880	ألفريد جاشوا بتلر	Alfred J. Butler	رجل	إنجليزي	1850	1936	الحياة في البلاط الملكي المصري	Court Life in Egypt	من "الفصل الأول"	أستاذ جامعي
23		1891	شارلز ماكورميك ريف	Charles McCormick Reeve	رجل	أمريكي	1847	1949	كيف ذهبنا وماذا شاهدنا	How We Went and What We Saw	الفصل الثالث	قائد عسكري
24		1894	آرثر بنتلي / س. ج. كريفينهوف	Arthur J. M. Bentley and C. G. Criffinhoofe	رجلان	إنجليزيان			قضاء الشتوية في مصر	Wintering in Egypt	الفصل الثاني	طبيب وقس فندق مينا هاوس
25		1908	آرثر ويفيل	Alfred John Byng Wavell	رجل	إنجليزي	1882	1916	حاج معاصر إلى مكة	A Modern Pilgrim in Mecca	من الفصل الأول	ضابط إنجليزي

إلى القاهرة عبر ميناء الإسكندرية

مقدمة للمترجمين

منذ "هيروديت" وربما قبله والرحالة ما فتئوا يتوافدون على مصر لأغراض عديدة من السياحة إلى التطبب إلى التبشير والتنصير والاستشراق إلى التشمس وقضاء الشتوية إلى التجارة والتنقيب عن الآثار والعمل في المشروعات الكبيرة أو الالتحاق بالخدمة الخديوية والحج بما أنّ مصر كانت وجهة للعائلة المقدسة إلى آخره من المقاصد.

في عصر ما بعد المطبعة يعتبر الإيطالي "بيترو ديلا فاليه" Pietro della valle (1586 – 1652) من أوائل مَن قدِم مصر من الأوربيين بين عامي 1615 و 1616. وصحيح أنّ القرن السابع عشر لم يسجّل قدوم أعداد كبيرة لمصر من القارة العجوز، ربما بسبب الاضطرابات السياسية آنذاك، لكنّ التدفق الحقيقي جاء في القرن الثامن عشر وبلغ ذروته في القرن التاسع عشر.

مِن أشهر مَن وطِئت أقدامهم مصر في ذاك الوقت عاشقة الأقصر، صاحبة الرسائل الشهيرة، "لوسي دف جوردن" Lucie Duff Gordon (1821 – 1869) التي وافتها المنيّة في مصر والمستكشف "جيمس بروس" James Bruce (1730 – 1794) والأمريكي "جون ليديارد" John Ledyard (1751 – 1789) الذي قضى نحبه في القاهرة و"جوفاني باتيستا بلزوني" Giovanni Battista Belzoni (1778 – 1823) و"وليم إدوارد لين" Edward William lane (1801 – 1876) وحاملة المصابيح، رائدة التمريض، "فلورنس نايتنجيل" Florence Nightingale (1820 – 1910)، وأمير "ويلز"، ألبرت"، لاحقًا الملك "إدوارد السابع"، والجنرال "جرانت"، الرئيس الأمريكي، General Grant وآخرون لا يتسع المقام لذكر أسمائهم، اللامعين منهم والمغمورين، سواء مَن دوّن خواطره عن الرحلة أو مَن لم يفعل.

وتنحصر العناصر الأساسية لهذه الانطباعات الأولية، الإيجابية والسلبية على حد سواء، في الوصول إلى الميناء ودخول المِرفأ، ثم النزول من السفينة إلى القوارب الصغيرة وتزاحم أصحاب هذه الزوارق التي تعمل لحساب فنادق بعينها للظفر بالراكب وحقائبه ثم التوجّه إلى الجمارك التي يُجمِع كافة الرحالة أنها كانت تجربة متعسفة ويوجزها "ج. أ. هوسكينز" بقوله: "رِشوة صغيرة سوف تُعفي حقائبك من

التفتيش."[3] يلي ذلك التوجه للفندق بالحمير أو الجِمال ثم استئجار ترجمان والتجول في المدينة، وأخيرًا الاستعداد للانطلاق منها للوجهة التالية.
وقبل اختراع الطائرات واستحداث المطارات كان الولوج في مصر والخروج منها له عدة طرق برية وبحرية مِن أشهرها طريق الحج عبر سيناء ومينائي السويس وبورسعيد عقب افتتاح القناة وميناء الإسكندرية. ويُعد الأخير مِن أقدم الموانئ على المتوسط، وواحدًا من مفاتيح الشرق. كانت الإسكندرية دومًا نقطة الانطلاق نحو العمق المصري باتجاه القاهرة وصعودًا مع النيل أو الانحراف شرقًا وغربًا. وبسبب كونها نقطة التجمع للعديد من الأعراق والأجناس وُصفت الإسكندرية بأنها المدينة التي كسرت الأطروحة "الكيبلنجية" [4] حيث "التقى فيها الشرقي بالغربي" [5] أو على حد قول "هنري بوتر": "أقل المدن الشرقية شرقية".[6] أما "السيدة من نيويورك" فقد تمادت في هذا الطرح قائلة: "لا أشعر أني وطِئت بر مصر؛ ولا يمكن أنْ تكون هذه مدينة مصرية."[7]
تم تمهيد الخط البري بين الإسكندرية والسويس عام 1842. كان المسافرون يستقلون العربات التي تجرها الخيول بينما تحمل الجِمال البريد والمتاع والبضائع المتجهة إلى الهند. وكان لشركة شبه الجزيرة والشرق P & O حوالي ثلاثة آلاف بعير تقطع المسافة بين الإسكندرية والسويس عبر صحراء مجدبة. وأما المسافرون بين الثغر والعاصمة فكان يتعين عليهم قطع المسافة برًّا باستخدام الدواب حتى "شبراخيت" ثم الإبحار في النيل، أو الاستمرار برًّا عبر مسار الطريق الزراعي الحالي.
في ملحمة سابقة لقناة السويس أعاد محمد علي عام 1820 حفر الترعة القديمة التي سُميت بالمحمودية على اسم السلطان العثماني "محمود الثاني" تيمنًا به[8]. بلغت تكلفة

---

[3] G. A. Hoskins, A Winter in Upper and Lower Egypt, Hurst and Blackett Publishers, London, 1863, P. 9.
[4] الشاعر الإنجليزي Kipling هو صاحب مقولة "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقي التوأمان مطلقًا".
[5] Sullivan Holman M'Collester, After-Thoughts: Foreign Travel in Historic Lands and Capital Cities, New England Publishers, Boston, 1882, P. 301.
[6] Henry Potter, The Gates of the East: A Winter in Egypt and Syria, E. P. Dutton and Company, New York, 1877, P. 19.
[7] A Lady of New York, Letters from the Old World, Harper and Sons, New York, 1840, P. 90.
[8] في نوفمبر عام 2017 أعلنت مصر عن نيتها ردم، أو بالأحرى تغطية، الجزء الممتد من ترعة المحمودية في الإسكندرية.

شقّ الترعة مليونًا ونصف مليون دولار. [9] شارك 250 ألف مصري في حفر هذه الترعة نفق منهم 25 ألف.[10] طول الترعة حوالي 46 ميلًا وتتصل بالنيل عند قرية العطف. كان الغرض الرئيسي لحفر الترعة هو جلب المياه الحلوة إلى الإسكندرية، لكن أعمال الملاحة البسيطة بدأت تنتشر على صفحتها متمثلة في القوارب الصغيرة لأنّ عمقها لم يكن كبيرًا. كانت هذه القوارب تحمل المسافرين إلى قرية العطف في حوالي تسع ساعات، وهناك يستقلون السفن الكبيرة التي تأخذهم جنوبًا أو "قبلي" كما يُقال. في الستينيات من القرن التاسع عشر قام والي مصر، محمد سعيد باشا، بتوسيع ترعة المحمودية. جعل سعيد باشا على إدارتها خمسة أجانب الأمر الذي ساهم في نقل البضائع والركاب عبر النيل. لاحقًا عمّق الوالي "عباس الأول" الترعة ومدّ عام 1851 خدمة النقل النهري بين القاهرة وأسوان، وهي الخدمة التي زادت عليها شركة "توماس كوك" Thomas Cook عام 1870 الدهبيات البخارية الجديدة. يصف "بارتليت" السفر من الإسكندرية للقاهرة قبل توسيع وتعميق الترعة قائلًا: "في زيارة سابقة وقبل دخول البواخر الخدمة بين الإسكندرية والقاهرة كنتُ مضطرًا أنْ أخوض المتاعب التي تبدأ في المدينة الأولى، وأعني استعمال خادمٍ واستئجار قاربٍ ثم تدبير سجادة وحَشْية فراش والعديد من المؤن وأوعية الطهي وأصناف أخرى صغيرة أحتاج لصفحة أو اثنتين لحصرها." [11] أما "س. سميث" فقد حدد ثلاثة طرق للوصول إلى العاصمة في منتصف القرن التاسع عشر وهي: "الولوج من البحر في فرع دمياط أو فرع رشيد ثم الصعود أو عن طريق البر على ظهر الخيل وهي رحلة منهكة ولا خير يأتي من ورائها أو عن طريق الترعة التي يصل طولها إلى أربعين ميلًا وتفتح على النيل عند القرية القذرة البائسة المعروفة بالعطف."[12]

عام 1854 تم مدّ خط السكك الحديدية بين الإسكندرية وكفر الزيات. والجدير بالذكر أنّ هذا الخط الذي أشرف عليه "ستيفنسون" نفسه، مُطوّر القاطرة البخارية، هو أقدم ما عرفت القارة الأفريقية. يقول "وليم برايم" في كتابه "حياة القوارب في مصر

---

[9] Hugh Johnston, Toward the Sunrise: Sketches of travels in Europe and the East, Standard Books, Toronto, 1883, P. 165.

[10] Thomas Stinson Jarvis, Egypt, the Holy land, Greece, and Cities of the Levant, James Campbell and Son, London, P. 18.

[11] W. H. Bartlett, Nile Boat, Harper and Brothers, New York, 1851, P. 30.

[12] J. V. C. Smith, Pilgrimage to Egypt, Gould and Lincoln, Boston, 1852, P. 29.

والنوبة": "لقد مُد خط السكك الحديدية فقط حتى كفر عيسى على النيل، ومن هناك توجهنا إلى القاهرة بالباخرة. أنشأ المهندسون الإنجليز هذا الخط الحديدي تحت إشراف رجل اسكتلندي. أقولها بكل اطمئنان إنه لا يوجد في أمريكا خط سكك حديدية يضارع هذا الخط في مصر من حيث الأمان والإنجاز ومتانة الإنشاء. يُعتبر هذا الخط ملكية خاصة للوالي. هذا وحقيقة أنّ خط السويس كاد يكتمل يجعل صاحبي رؤوس المال يحكمون على مدى جدية سعيد باشا في طرح مشروع القناة، وهو الأمر الذي من شأنه إيقاف الشحن إلى القاهرة والإسكندرية."[13]

على أي حال بعد وصول خط السكك الحديدية إلى القاهرة عام 1856 تحوّل القادمون من أوروبا إلى مصر عبر ميناء الإسكندرية إلى ركوب القطار عِوضًا عن الملاحة في النيل فهو أكثر راحة، كما ساهم في تقليل زمن الرحلة. يصف "صمويل مانتج" انطلاق هذه الرحلة بقوله: "في أغلب الأوقات يتم قطع المسافة بين الإسكندرية والقاهرة حاليًا، وقدرها مائة وواحد وثلاثين ميلًا عن طريق السكك الحديدية. يبدأ الخط محاذيًا لبحيرة مريوط التي تزخر بحشود لا تُحصى من طيور البجع والبط البري وطيور بحرية أخرى تسبح أو تخوض في مياهها المالحة قليلًا، وأخرى تُحلّق في الأعلى قريبًا من السحب. يقطع القطار سريعًا الشريط الصحراوي الضيّق الذي يمثل خط الساحل الشمالي لمصر ومعه نلج إلى الدلتا."[14]

سجّل العديد من الرحالة تفاصيل هذه الرحلة التي تبدأ بالنزول في الإسكندرية مرورًا بالحجر الصحي والجمارك ثم قضاء بعض الوقت بالمدينة قبل مواصلة التقدم نحو القاهرة سواء بواسطة القارب أو القطار، كل حسب توقيت زيارته لمصر كما أسلفنا. ولأهمية هذه الرحلة المحددة زمانًا ومكانًا رأينا أنْ نقدم للقارئ والباحث طائفة من الفصول المترجمة التي تناولتها بأقلام أنجلو – أمريكية، آملين أنْ يمثل هذا الكتاب إضافة إلى المكتبة العربية. تمتد الأعمال المنتقاة للترجمة هنا إلى نيف وقرن مع الأخذ في الاعتبار تمثيل كل عشرية كلما أمكن بكتاب على الأقل حتى نتمكن من متابعة التغيرات الطارئة عليها من كثب.

---

[13] William C. Prime, Boat Life in Egypt and Nubia, Harper and Brothers, New York, 1960, PP. 56-57.
[14] Samuel Manning, The Land of the Pharaohs, The Religious Tract Society, Brighton, No date, P. 19.

يُجمل أحد الرحالة الإنجليز، "ريتشارد بيرتون" (1821 – 1890)، مراحل تطور هذه الرحلة بقوله في كتابه "الحج إلى مكة والمدينة – سرد ذاتي": "اعتاد الرحالة أثناء سفرهم النهري من الإسكندرية إلى القاهرة على تسجيل انطباعاتهم عن سكان البلاد على الضفتين. بعدها بقليل تمادى المسافرون من الرجال والنساء في إسباغ النعوت الشعرية على الدهبيات التي تقلهم بامتداد قنال المحمودية. ثم حلّ عصر الباخرة وتلتها السكك الحديدية التي خيبت آمال هذا النوع من الجوّالة، لكنها نزلت بردًا وسلامًا على طائفة أخرى تحرّقت شوقًا لقطع المسافة البرية بأقل قدر من العنت والنصب لأنفسهم وللآخرين. وهكذا سينحصر دور المحمودية، أقبح الترع وأشقها على النفس، في نقل الأقطان والحبوب، وسوف تُغفلها المذكرات تمامًا وتُسقطها فصول الكتب من عناوينها."[15]

[15] Richard Francis Burton, Personal Narrative of Pilgrimage to Mecca and Medina, Leipzig Bernhard Tauchnitz, 1874, P. 29.

(1779)

"الخطابات الأولى من الهند" – إليزا فاي

THE

ORIGINAL LETTERS

FROM INDIA

OF

MRS. ELIZA FAY.

A NEW EDITION

WITH

INTRODUCTION AND NOTES

BY THE

REV. WALTER KELLY FIRMINGER, B.D., F.R.G.S.

Junior Chaplain on H. M. Bengal Establishment,
Editor of Bengal: Past & Present.

Published under the Auspices of the Calcutta Historical Society.

Calcutta:

MESSRS. THACKER, SPINK & Co.

1908.

الخطاب السادس

20 يوليو 1779 في عرض البحر على متن السفينة "يوليوس".

أصدقائي الأعزاء: آمل أنْ يصلكم خطابي هذا وأنتم بخير. هذه المرة الثانية لي في "ليفورنو".[16] نوّهت آنفًا إلى كرم القبطان (ل) ووضعنا في السفينة. بقينا معه حتى مساء الأحد ثم صعدنا إلى متن "يوليوس" وأبحرنا في صباح اليوم التالي. هبّت قبالتنا ريحٌ لطيفة، بيد أنها عصفت بشدة في أقل من ست ساعات لدرجة أننا اضطررنا للعودة أدراجنا وإلقاء المراسي. استمرت العاصفة حتى مساء الأربعاء داومنا خلالها وتناوبنا على إرخاء حبال القلوع كما يُقال حتى نجتاز هذه المحنة، وتوقعنا أنْ تقذف بنا إلى الشاطئ في أي لحظة.

[16] Leghorn، ميناء في إيطاليا.

حين تحسّنت الأجواء أرسل السيد "فرانكو" خطابًا إلى السيد "فاي" ذكر فيه أنّ السيد إبراهيم من القاهرة الكبرى قد تواصل معه مؤخرًا وأنّ الأخير على وشك الانطلاق مع أسرته إلى أوروبا على متن أول سفينة مبحرة. لذا قام هذا السيد الكريم بإرفاق خطاب عام موجه إلى التجار اليهود حتى يدرأ عنا أي مواقف قادمة من خيبة الأمل. كان اسم السيد "فرانكو" معروفًا بشكل كبير في الشرق، كما كان بحوزتنا عدة خطابات تعريف موجّهة لأشخاص في القاهرة الكبرى، لذا تخيلتُ أننا لن نحتاج لهذا الخطاب في أي من المناسبات.

في يوم الخميس الموافق الثامن من الشهر حاولنا الإبحار مرة أخرى وانطلقنا بسلاسة كافية حتى تاريخه.

اليوم هو الثلاثاء 20 يوليو. شعرت منذ التاريخ السابق بكدر شديد بسبب وقوع حادث ربما يبدو تافهًا للبعض. أُهدى إليّ في "ليفورنو" زوجٌ من الحَمام الجميل أدخل على نفسي سلوى ومتعة كبيرة. كانت أجنحة هذين الطائرين الجميلين قد قُلمت، ومِن ثم فقد تُركا على راحتهما في السفينة. في نهاية المطاف طاحت إحداهما من على ظهر السفينة لتسقط في المياه. رأيتها لفترة طويلة تحاول التشبث بالحياة وهي تنظر إلى السفينة وكأنها تستجدي النجدة. كنت شغوفة بالطائر المسكين واجتاحتني رغبة في إنقاذه من هذا الموقف الخطير لو تمكنْت من ذلك. في النهاية تمنيت أنْ تلقي سفينة مبحرة بسرعة ثمانية عقد في الساعة بقارب لتحضره. عاشت الأرمل(ة) لثلاثة أيام بعد اختفاء شريكها دون أنْ تقرب الطعام. راحت تصدح على فترات بأصوات غاية في الأسى. لم أستطع تجنّب سماعها فقد كانت قُمرتي على سطح السفينة. يجدر بك العلم أنّ مِن قواعد الإبحار على متن السفن السويدية اجتماع كل مَن على متنها مرتين يوميًّا للصلاة التي مِن أجلها خصص القبطان "نوربيرج" هذه القمرة الكبيرة، ولولا ذلك لطاب لنا شغلها. يكفي الآن الحديث عن هذه الكائنات الصغيرة المحبّبة إليّ ولأنتقل إلى موضوع أكثر بهجة.

كانت رحلتي جد مسلية وتثقيفية بفضل وجود راهب "فرنسيسكاني" من روما متوجهًا إلى أورشليم بُغية التبشير. كان لا يفضُله أحد في نظري إذا أخذنا بعين الاعتبار هذه المهمة الخطيرة التي تَحَمّل تبعتها. تصوّر رجلًا في شرخ الشباب (تحت الأربعين)، موفور الصحة ومفتول البنية لديه نزعة للمغامرة والمخاطرة، ناهيك عن ميزات أخرى من عينين سوداوين تُشعان فطنة ولحية كستنائية وقورة

تصل حتى زنّاره. لا يجانبك الصواب إذا نعتّه بشخص لا يُقاوَم. حاز كما يبدو الحميّة والبلاغة اللازمين للذود عن قضية المسيحية الهامة، لكنّ المرء يحزن حين يجد هذا العقل النبيل به اعوجاجٌ إذ يؤمن بالخرافات السخيفة التي تلطّخ المذهب الروماني بالعار والشنار. أصبح متحمسًا جدًّا ليحولني إلى الكاثوليكية واستغل سعيي نحو تحسين لغتي الإيطالية فراح يجهّزني لاستيعاب هذا الأمر ويسوق الحجج للوصول إلى غرضه المروم. اعتدنا أحيانًا كشأن المتجادلين الدخول في نقاش حاد.

في يومٍ من الأيام أبديتُ استخفافًا بما راق له أنْ يدعوه بمعجزات الكنيسة الكاثوليكية. تمادى قائلًا إنّ فمي يُرغي بالهرطقات كما ينبجس الماء من النوافير.

أثناء تناولنا الفطور هذا الصباح توسل إليّ أنْ أدع قهوتي وأريقها حبًّا وكرامة لعيسى في مهده. حين أبيْتُ أنْ أفعل ذلك راح يحثّني بأبلغ وأبدع العبارات أنْ أستبقي رشفة واحدة وحسب يقوم هو بإراقتها إكرامًا للطفل المبارك. ومِن جديد اعتذرت عن الامتثال لطلبه تعبيرًا عن عدم إيماني بجدوى هذه التضحية، ومِن ثم أعلن أنه مصدوم بنفس القدر بسبب تشككي المتعمَّد والترهات المتعنتة، وانسحب إلى الجزء الآخر من السفينة، ولم أره منذ ذاك الوقت.

في فترة ما قبل ظهيرة يوم الثالث والعشرين صرنا مقابل الإسكندرية التي بدت حسنة المنظر كلما اقتربنا منها. ولأنها شُيّدت على أرض واطئة فإنّ دخولها يُعد "شديد الصعوبة" على حدّ قول البحّارة. [17] ظللنا بمحاذاتها ليومين تقريبًا. ينتصب "فاروس" أو فنار بديع في الميناء الجديد [18] الذي يفضّله الربابنة كثيرًا من جميع الوجوه، لكن لا يُسمح لسفن المسيحيين بالرسو فيه. لذا كنا مُضطرين لدخول الميناء القديم[19] ونجونا من المخاطر التي تكتنفه.

انتهت معرفتي بالأب المبجّل على نحو غير لطيف. تواجدنا على السطح منذ لحظات ونسينا نزاعنا حول سكب القهوة. أبديتُ ملاحظة حول الطقس شديد الحرارة فما كان منه إلا أنْ أجاب قائلًا: "أجل". ارتسم على طلعته تعبيرٌ خبيث لم أتخيل أنْ يحمله مثل هذه الوجه الطيب. تابع: "والحرارة أشد آلاف المرات في مأوى

---

[17] عام 1872 أقام الإنجليز حاجز الأمواج بتكلفة مليونين ونصف إسترليني والذي حسّن من دخول الميناء. راجع ص 238 من كتاب T. G. Bonney and etal, The Mediterranean: Its Storied Cities and Venerable Ruins, James Pott and Company, New York, 1907.

[18] يُعرف بالميناء الغربي. ميناء الإسكندرية الحالي.

[19] يُعرف بالميناء الشرقي، السلسلة حاليًا.

الشياطين."[20] شعرت بالشفقة حيال تزمّته ورجعيته وصليْت من أجل أنْ يتحول إلى المبادئ الصحيحة للدين التي يزعم أنه يقوم على تدريسها.
صعد إلى متن السفينة السيد "براندي" لزيارتنا. كان السيد "فاي" قد أرسل له خطابَ شكر. أدخل خبر وجود سفينتين في السويس على قلبي السرور والحبور. يجب ألا نُضيع وقتًا حتى لا يَضيع الموسم. يقيم السيد "براندي" هنا في الإسكندرية كقنصل لإحدى الممالك الألمانية، وربما يكون ذا نفع كبير لنا. تلقينا دعوة لتناول العشاء معه في اليوم التالي. أمّن الرجل إقامة لنا واستأجر يهوديًا وزوجته لملازمتنا إلى القاهرة الكبرى والعمل كمترجم ومرافقة، وسيقوم السيد "براندي" بتدبير قارب مناسب لنا لو قررنا الانطلاق عن طريق النهر الأمر الذي لم نستقر عليه بعد. تناولنا عشاءً مبكرًا لننطلق بعده مباشرة نحو الساحل بصحبة المترجم لعلّ الوقت يسعفنا لزيارة أي شيء يستحق المشاهدة.
24 يوليو: ركبنا الحمير لأنّ الخيول محرمة على غير المسلمين وانطلقنا يتقدمنا حارس[21] يشهر سيفه لثلاثة أميال عبر صحراء ورمال لرؤية عمود "بومباي" الذي يُصنّف كأروع عمود في العالم. قامة العمود عالية على نحو يفوق الحدّ، وليس لديّ وسيلة لأحدد ارتفاعه بالضبط. يتكون من ثلاثة أجزاء من الجرانيت (القاعدة والجسم والتاج). حين تأخذ بعين الاعتبار الوزن الضخم للجرانيت ورفع هذه الكتل تدرك أنه عمل خارج حدود قوى البشر. لا يضم العمود أي نقوش، لكنّ النسب والتناسب فيه جد جميلة فهو يبهر أي ناظر ويُولّد رهبة، على أنّ هذا الإحساس تخف حدته ويتبدل إلى كآبة حين يتدبر المرء أنّ البطل المشهور الذي يحمل العمود اسمه قد اُغتِيل غيلة في الساحل نفسه على يد البحّارة الذين أوصلوه إلى الإسكندرية. وقفت زوجته المسكينة في السفينة التي غادرها لتوّه تتبع رحيله وقد اعتراها قلقٌ لا يُوصف بطبيعة الحال كما نحسب. كيف كانت فاجعتها وهي تتابع هذا المشهد المروّع! بالرغم من أنّ هذا العمود التذكاري المهيب يحمل اسم "بومباي"، يعتقد آخرون كثر أنه أُقيم تخليدًا لنصر تحقق ضده في موقعة "فارسيليا". سأدع حسم هذه النقطة الجدلية لعقول أكثر تثقيفًا من عقلي، ولنواصل في الإسكندرية القديمة التي تبعد قرابة فرسخ من المدينة الحديثة وتمثل عبرة وعظة للناظرين بأنّ أمور الدنيا لا تستقر على حال فهذه المدينة الزاهرة التي شيّدها أشهر الغزاة وتجمّلت بأبدع ما

---

[20] المقصود "جحيم جهنم".
[21] إنكشاري.

أنتجه الفن لا تعدو أنْ تكون الآن كومة من الخرائب أو يزيد قليلًا. مازال من الممكن بالرغم من ذلك تمييز شوارع متناسقة وممهدة ومنازل عديدة ذات أربعة أفنية جعلتني (أستحضر ما قرأته عن أثينا). تحوط هذه الأفنية أسوارٌ منخفضة. أذهلني بشدة أنها تُشبه بشكل كبير مبنى "لينكون".[22]

شاهدْنا أيضًا كنيسة القديس "أثناسيوس" من الخارج، وكان أسقف هذه الأبرشية. لم يُسمح لنا بالدخول لأنّ الكنيسة أصبحت مسجدًا [23] إلا إذا تحولنا إلى الملة المحمدية أو ضحينا بحياتنا، وكلا البديلين لا يوافق أفكاري تمامًا، لذا اعتبرت الانسياق وراء الفضول أمرًا أرعن، بيد أني لم أتمكن من مقاومة الرغبة في زيارة قصر كيلوباترا الذي تبقّى منه بعض الآثار، فمازالت الحوائط الرخامية بقاعة الطعام قائمة، لكنّ السقف قد تضعضع منذ أمد طويل. لا أتذكر مطلقًا أني شعرت بالتأثر بنفس القدر من قبل. وقفت وسط الركام والدِمَن أتأمل هذا المشهد الرهيب، ورحت أتخيل سيدة القصر ترفل في النعيم مع عاشقها المُتيّم "مارك أنتوني" الذي ضيّع كل شيء من أجلها.

يعلو المنازل في الإسكندرية الجديدة التي عُدنا من خلالها سقوفٌ مستوية عليها حدائق. وفي دولة حارة مثل هذه يُسمى ذلك بالكماليات. أما فيما يتعلق بالبازارات والأسواق فإنها أماكن بائسة والطرقات ضيقة على نحو يتجاوز الحد. يعيش هنا المسيحيون بكافة طوائفهم مقابل الجزية، لكنْ تنالهم من حين لآخر معاملة سيئة إذا ارتكب أحدهم مخالفة غير مقصودة في حق مسلم فيُلاحَق برغبة مسعورة في الانتقام، ويعاني جميع أفراد الأسرة من هذا الأمر. يرتجف المرء حين يتصور هذه الفكرة المجرّدة بوقوع شخص في أيدي هؤلاء البائسين المتعصبين. نسيت أنْ أذكر أنّ السيد "براندي" التقى معنا من جديد بالقرب من إبرتي كليوباترا، وهما مسلتان هائلتان من الجرانيت سوّى الزمن إحداهما بالأرض بينما مازالت الأخرى قائمة. كلتا المسلتين عليها نقوش هيروغليفية على الجوانب التي لا تتعرض للرياح أو رمال الصحراء، ومِن ثم بقيت سليمة وصحيحة، لكنّ مفتاحهما قد طُمس، لذا لم يتمكن أي شخص من فك شفرتهما. ظننت أنّ السيد "براندي" قد يعلم شيئًا عن هذا الأمر، لكن اتضح أنه لا يعرف أكثر مما نعرف. في طريق الإياب حدث أمر غريب. السيد "براندي" رجل قوي ذو بنية رياضية ويناهز طوله الستة أقدام. لذا

[22] نقابة المحامين الإنجليز بلندن.
[23] كان هذا المبنى معبدًا ثم صار كنيسة ثم هو الآن جامع العطارين.

يمكنك أنْ تتخيل الهيئة الغريبة التي بدا عليها وهو يستقل حمارًا ويرفع رجليه الطويلتين بمشقة حتى يتناسب مع حجم الحيوان الذي تحيّن الفرصة وانفلت من بينهما تاركًا القنصل المسكين منتصبًا كتمثال عملاق. في الحقيقة لقد كان واحدًا من أكثر المشاهد هزلية التي يمكن أنْ تراها في حياتك.
25 يوليو: القيظ على أشُده فبقينا في المسكن حتى المساء حين مرّ بنا السيد "براندي" ليصطحبنا إلى منزله. استقبلتْنا زوجته بألطف مظاهر الكرم. تنتمي السيدة "براندي" لمواطني هذا البلد، لكنها تتحدث بقدر قليل من الفرنسية الأمر الذي مكننا من التواصل معها فيما يُشبه المحادثة. تزينتْ من أجل هذه المناسبة على نحو يثير الفضول. لأنها قصيرة وبشرتها داكنة وبدينة في استدارة فقد بدت على بعضها أغرب كتلة متبرجة شاهدتها في حياتي. لفّت "تربيعة" حول رأسها ترصعها صفوفٌ من الترتر الكبير الذي يتداخل مع اللآليء والزمرد وانسحبت هذه الزينة إلى رقبتها وصدرها، ناهيك عن حزام مزيّن بمشبكين من الذهب تصل مساحتهما إلى أربع بوصات مربعة تقريبًا على ما أظنّ. تدلى من أذنيها قرطان هائلان في الحجم. وضعتْ عسلوجًا[24] كبيرًا على جبهتها، ولبست خاتمًا ضخمًا وكلاهما من الماس. لك أنْ تتخيل أنها كانت أكثر الحاضرين توهجًا ولمعانًا. لديها بنتٌ صغيرة لذيذة، تقريبًا في السابعة من عمرها خرجت في نفس البهرجة تقريبًا، لكنها كانت جميلة حقًا بالرغم من زينتها المتنافرة. سُررت بشكل عام بالأم والطفلة. كانت نظراتهما وسلوكهما طيبًا وعطوفًا. إنّ أي اهتمام يناله الغريبُ في أرض غريبة (كما هو حالنا بالضبط) يُدخل على النفس الطمأنينةَ وتجد فيه السلوى والعزاء، خاصةً إذا كان المرء محاطًا بعدائيات كشأن الأوربيين هنا. ومقارنة بجلافة أهل البلد أقول إننا شعرنا على راحتنا أكثر وكأننا في بلادنا بين سكان فرنسا وحتى في إيطاليا.
حين هممنا بالمغادرة قام مضيفُنا بعرض سجل زيارات يحوي شهاداتٍ على أدبه الجمّ والرعاية التي شمل بها المسافرين وقّعها العديد من الأشخاص المعتبرين. طلب الرجل من السيد "فاي" ومني أنْ نضيف أسماءنا إلى القائمة. استجبنا لطلبه، لكننا دهشنا من أنْ يقوم سيدٌ في مكانته باللجوء إلى هذه الوسيلة التي تقلل من شأنه في عيون ضيوفه.

[24] غصين.

بعد أنْ قررنا أنْ نواصل رحلتنا عن طريق النهر لأسباب أجد ذكر تفاصيلها أمرًا مملًّا في الوقت الراهن يجدر بي أنْ أستعد للإبحار. سوف أحاول جاهدة أنْ أحافظ على معنوياتي مرتفعة. تأكدوا من أني لن أدع فرصة تفوتني لأكتب لكم، واطمئنوا قبل أنْ يصلكم خطابي هذا أنني سأتخطى جميع العقبات. أعتبر نفسي محظوظة بكل تأكيد لمغادرة هذا المكان سريعًا. الوداع وأتمنى لكم الخير والعافية. أنتم في صلواتي دومًا وللأبد يا أصدقائي الأعزاء. المخلصة "إي. ف".

(1814)
"رحلات إلى مصر وسوريا وقبرص والمورة واليونان وإيطاليا وبلاد أخرى" – جون برامسين

TRAVELS
IN
EGYPT, SYRIA, CYPRUS,
THE MOREA, GREECE, ITALY,
&c. &c.
IN A SERIES OF LETTERS,
INTERSPERSED WITH
Anecdotes of distinguished Persons,
AND
ILLUSTRATIONS OF POLITICAL OCCURRENCES.
BY
JOHN BRAMSEN.

——— Ordine gentis
Mores, et studia, et populos, et prælia dicam.—Virgil.

SECOND EDITION.
IN TWO VOLUMES.
VOL. I.

LONDON:
PRINTED FOR HENRY COLBURN AND CO.,
PUBLIC LIBRARY, CONDUIT STREET, HANOVER SQUARE.
1820.

الخطاب الخامس عشر

وصف الإسكندرية – الضواحي – عمود بومباي – إبرة كليوباترا – السيدات التركيات والمسيحيات – الطقس – السيد دروتي – تمثال ونقوش وُجدت هنا – العرب – حالة الحجر الصحي

الإسكندرية في يوليو 1814

لا ترى الآن في أشْطُرٍ كثيرة من هذه المدينة التي كانت فخيمة ومهيبة في الغابر سوى أطلال. ترتفع كافة المنازل تقريبًا لطابقين ولونها أبيض طباشيري ولا يوجد بها مداخن. سقوف هذه البيوت مسطّحة ويصعد إليها السكان بشكل عام في المساء لينعموا بالهواء المُنعش. لدى السكان الأكثر ثراءً خيمة منصوبة على هذه الأسطح تحوطها أصائصُ الزهور. هذه الخيام تحميهم من الشمس وتقيهم هواء الليل. ليس للمنازل نوافذ زجاجية، بل شيش حصير أو مشربيات تُمكّن النساء من النظر إلى

الشارع دون أنْ يراهم العابرون. تحتفظ بعض المنازل بشرفات خارجية تغطيها الشبائك يحصلون من خلالها على المؤن المختلفة خلال الجوائح والأوبئة. ففي هذه الأوقات الحزينة يُفرض حجر صحي فظيع، فيلزم السكان الدور ولا يُسمح لأي منهم بالدخول أو الخروج.

ثمة مَن أخبرني أنه ذات مرة لزم السكان منازلهم لتسعة أشهر، دون السماح لأي فرد في الأسرة بالخروج، بسبب الطاعون الشديد. أُضطر هؤلاء السكان لأخذ احتياطيات كثيرة في استلام مؤنهم من خلال المشربيات. تَنقل أصنافٌ مختلفة من الأطعمة العدوى تحت ظروف متباينة تقلّ وتكثر، فالخبز الساخن مثلًا ناقل شديد لها، لكن حين يبرد تزول عنه هذه الخاصيّة. يتم إنزال أسبتة ضخمة إلى الشارع ويُعاد رفعُها بعد وضع المؤن بها. تُغطّس هذه السلال بمحتوياتها في الماء البارد لبعض الوقت قبل أنْ يُسمح للخدم بلمسها.

الشوارع ضيّقة وغير ممهدة، لكنّ الكورنيش واسع. قام الفرنسيون بتحسينه وفرشه بالحصباء. يقصده الأوربيون كممشى بعد غروب الشمس. يأتون في المساء ليستمتعوا بنسائم البحر العليلة. البازارات أو الأسواق ممتدة جدًّا، لكنها ضيقة وحوانيتها بائسة. تنقسم المدينة إلى شطرين: الحي الأوروبي حيث يعيش المسيحيون والحي التركي الذي يسكنه الأتراك برمته تقريبًا. الأول جيد التهوية والمنازل فيه حسنة البناء بشكل مقبول، أما الثاني فقذر. قام الفرنسيون بإقامة سور حول هذا الجزء الذي يواجه البحر ووضع الأتراك في التوّ الكثير من مدافعهم.

تم غلقُ باب رشيد بسبب الحجر الصحي. لا يمكن لأحد الدخول أو الخروج دون أمر من قائد المدينة. حصلنا بالرغم من ذلك على تصريح بفضل تواجد القنصل الإنجليزي، السيد "لي"، الذي أسدى لنا معروفًا بمصاحبتنا. انطلقنا لمشاهدة عمود "بومباي"، ومررنا بالضواحي التي تُعد أفضل قليلًا من أطلال المنازل التي خربها الفرنسيون خلال الحرب الأخيرة بغرض الحصول على الخشب الذي كان نادرًا وعزيزًا بشكل كبير. بلغنا بوابات المدينة. بدت عتيقة بشكل كبير، لكنّ عمارتها بسيطة وسيّئة. شاهدْنا هناك حشودًا كبيرة من العرب والأتراك من القاهرة ورشيد في الحجر الصحي. انتابنا شعورٌ قوي بعدم الارتياح ونحن نتجاوزهم دون لمس أي منهم، خاصة العرب الذين كانوا كعادتهم يُحدثون الكثيرَ من الجلبة والإشارات الجسدية. أرادوا بجعجعتهم السماح لهم بدخول المدينة. مِن حسن الحظ أنه تم إمدادنا

بخزيران، وبذلنا ما في وسعنا لنبقيهم بعيدًا عنّا، لكنّ هذا الأمر لم يكن هينًا، بالرغم من جلب القنصل لحارسين مدججين بالسلاح.
تبدو هذه الدولة مجدِبة بشكل كبير، وتحرق الحرارة الشديدة الكلأ. وصلنا بعد ركوبنا لمدة ساعة عبر أرض رملية تفتقد إلى التنوع إلا من الآكام الصغيرة إلى هذا الأثر الشهير العتيق. يتكون العمود من قطعة واحدة من الجرانيت يصل طولها إلى حوالي سبعين قدمًا وتنتصب في بقعة قاحلة تغطيها بقايا فخار، ويبدو من هذه القرائن أنّ ورشة لتصنيع الأدوات الفخارية كانت موجودة هنا. باشر الأتراك مؤخرًا العديد من أعمال الحفر تحت العمود انطلاقًا من فكرة وجود كنز مخفي هنا. ويُخشى نتيجة هذا التطفل المدمر أن لا يطول أمدُ وقوف العمود لأي فترة من الوقت إلا إذا اضطلع عشّاق الآثار القديمة بعمل يدعم العمود. يشعر الأتراك دومًا بالريبة الشديدة تجاه الأوروبيين الزائرين للمكان خشية أنْ يقوموا باكتشاف شيء ونقله.
لطالما أُغرم الإنسان بأي شيء يحمل فكرة الديمومة ويخلّد العظمة. يزخر هذا العمود بأسماء المسافرين الذين جاءوا هنا لزيارته. توجد بعض هذه الأسماء على قمته تمامًا، فبعض البحارة الإنجليز تسلقوا العمود حتى قمته وشربوا في هذا الموقع المنيف في صحة عاهل اسمه عزيز على الإنجليز وفضائله لا يمكن للمسافات أنْ تمحوها من عقولهم.
استمتعنا فوق ربوة صغيرة على بعد مسافة قصيرة من العمود بمشهد رائع للبحر. امتدت خطوط طويلة ومستوية من الضوء وشكلت إطارًا براقًا لهذه اللوحة الفريدة.
ركبنا من هذا المكان نحو إبرة كليوباترا، وهي مسلة جميلة تغطيها كتابة هيروغليفية. يقوم الأتراك أيضًا بالحفر هنا، واستخرجوا حجارة عديدة نُحتت لغرض البناء. بالإضافة إلى تلك المسلة توجد مسلة أخرى تقريبًا في نفس الحجم. فهمنا أنّ رجلًا إنجليزيًّا بيّت النية لإرسالها إلى انجلترا، لكن من سوء حظ الفنون أنها ثقيلة لدرجة يتعذر معها تحريكها من موقعها.
لا يوجد عمران هنا، أو قل يوجد القليل، فالأتراك يعيشون في عزلة تامة ولا يخالطون المسيحيين البتة. بالرغم من ذلك تراهم مهذبين بشكل مقبول ويعيرون المسافرين الاهتمام خاصة الإنجليز منهم الذين يتحدثون معهم باحترام كبير.
لاحظت أيضًا أنّ أغلب السفن في الميناء تحمل أعلامًا إنجليزية. وبالرغم من أنّ فرنسا تعيش الآن في سلام مع الكيانات الأوروبية العظمى، إلا أنني استطعت

إحصاء سفينتين فرنسيتين فقط في الميناء. لا تُري السيدات التركيات إلا نادرًا. لا يسرْنَ في الخارج إلا وهنّ مرتديات النُّقُبَ المصنوعة من الحرير الأسود. لا يظهر منهن سوى جزءٌ للأنف والعينين. قابلت العديد منهنّ في الطرقات يلبسن ملاءات لف بيضاء ذات أكمام واسعة وطويلة لدرجة أنها تغطي أطراف أصابعهن. يضعن أحجبة طويلة بيضاء على رؤوسهن حتى لا يظهر شعرهن. كل جزء متوارٍ. يتبعهن دومًا خادم تركي مسلح. نادرًا ما يسير الأتراك مع قريناتهم في الشوارع. في بيوتهن تضع النساء التركيات على رؤوسهنّ "بيريتا" بيضاء، وهي عبارة عن قلنسوة مرصعة بالذهب ومُثبتة من جانب واحد. يتركن لشعرهن الأسود بصفة عامة العنان حتى تصل ضفائره إلى كواحلهن. يثبت في نهاية كل ضفيرة ثلاثة "سيكوينات".[25] يبدو أنّ هذه زينة محببة إلى قلوبهن حيث تُثبت فئات متفاوتة من نفس العملة في قلنسوات الرأس على نحو غريب. حين تسير النسوة فإنّ هذه العملات المعلقة في جدائلهن الطويلة المرسلة تُحدث جلجلة أشبه بصوت قرع أجراس عديدة. يبدو أنّ هذه العادة قديمة جدًّا كما يظهر في الوصف الذي أعطاه "إشعيا" النبي للترف الذي شهده زمنه. ترتدي النساء التركيات أيضًا كردانات تأتلف من "السيكوينات" واللآلئ، ويلبسن أثوابًا بيضاء طويلة فضفاضة جدًّا ومصنوعة من "الموسلين"[26] الهندي المشغول بأزهى وأبهى الألوان، وتشبه أكمامها نظائرها في أثواب اليونانيات. يضعن في أقدامهن أحذية صفراء بنصف رقبة. هذه النعال واسعة جدًّا، وبالتالي ليست مؤهلة لتُظهر جَمال الكاحل الأنيق. عند التوجه للخارج يلبسن فوقها نوعًا من الخِفاف الصفراء الواسعة. يبقى أندر جزء في ذوقهن هو صبغ أظفارهن بطلاء أزرق أو أصفر، كما يوجد شيء من حسن الذوق يتمثل في الشال المصنوع من القماش الأبيض الرقيق والمرصّع بالذهب والفضة الذي يطرحنه على أثوابهن بتهاون لطيف. إنّ القليلات اللاتي قابلتهن في الشوارع لديهن أقدام كبيرة ويمِلن إلى البدانة نظرًا لعدم التمرن، ومِن ثم يفتقدن للكثير من الرشاقة في مِشيتهنّ أو حركاتهن. لديهنّ عيون براقة ومعبرة، لكنْ بها مسحة من الحزن بسبب حبس حريتهن. أما النسوة الفرنجيات أو المسيحيات فبعضهن يسرنَ على النمط الأوروبي في ثيابهن وأخريات يتبعن موضة التركيات عدا أنهنّ سافرات الوجوه ولا يضعن الشيلان. يمسك الأتراك والمسيحيون بمسابح في أيديهم يعدُّون عليها باستمرار كما

[25] "السكوين" هي عملة تركية قديمة.

[26] قماش يُشبه الشاش.

لو كانت نوعًا من اللهو والتسلية. توجد كنيسة على مسافة قريبة من المدينة يقصدها غالبية السكان المسيحيين في أيام الآحاد.
لدى السيد "بولاني" وهو تاجر موسر هنا مندوبون في كافة أنحاء الشام وأنصح بجلب خطاب ائتمان عليه. الرجل متحضّر، لكنّ السكان يتهمونه بالشطط في تطبيق مبادئ الاقتصاد. القنصل الإنجليزي، السيد "لي"، رجل دمث جدًّا ويجيد الإصغاء للمسافرين. لم نشاهد هنا مزرعة واحدة بأي حجم بالقرب من المدينة. زرنا واحدة على مسافة نصف ميل يستأجرها السيد "لي". تربتُها جافة لدرجة أنهم لا يجدون بُدًّا من ريّها كل مساء. التمور موجودة هنا بوفرة، فضلًا عن أشجار البرتقال والليمون والقرع وأنواع أخرى من الخضراوات.
الطقس لطيف جدًّا والسماء صافية كما هو الحال في إيطاليا. وبالرغم من شدة الحرارة صباح مساء والشمس التي تنفث اللهب، إلا أنه بحلول الساعة الثانية تهبّ نسائم غربية قوية ومنعشة. إنّ أكثر ما سبب لنا إزعاجًا هو الذباب والحشرات التي لا تُعذب الشخص وحسب، بل يستحيل أنْ تدرأها عن أي شيء سائل. أعتقد حقًّا أنّ معدتنا سوف تتكيف عاجلًا معها حيث إنه من الصعوبة بمكان أنْ تتجنب بلع قدر معين منها خلال النهار، وأما خلال الليل فإنّ البعوض يشكل نفس القدر من الإزعاج، ويصبح ضروريًّا جدًّا أنْ تنصب ناموسية إذا أردت أنْ تهجع للحظات.
زرنا المجموعة الأنيقة من الآثار التي تخصّ القنصل الفرنسي، السيد "دروتي" وهو شخص مثقف ومهذب ومُبالٍ بالمسافرين مِن كافة الأمم. أخبرنا أنه منذ وقت مضى كان يصطاد الحمام الذي يكثر هنا. أصاب واحدة سقطت في حوش لرجل عربي. بينما كان يبحث عن الطائر اكتشف قطعة من الحجارة السوداء تبين أنّ بقيتها مدفونة في باطن الأرض. عرض القنصل على العربي قرشًا إسبانيّا مقابل أنْ يسمح له بالحفر فوافق الأخير مغتبِطًا. شرع السيد "دروتي" في الحفر فوجد تمثالًا من الجرانيت أجمل ما يكون عليه نقوش يونانية هذه ترجمتها والعهدة عليه: "من أهل ليقيا [27] إلى بطليموس -عنهم كبير الحراس والصيادين، وأحد المقربين من بطليموس وابن الصياد العظيم المعروف بفضائله وإخلاصه-، ينشد رضا سادته: الملك بطليموس وأخته الملكة كليوباترا وأطفالهم وشعب ليقيا."

---

[27] منطقة في الأناضول.

شاهدْنا التمثال الذي يتراوح طوله من أربعة إلى خمسة أقدام وتم الحفاظ عليه في حالة كاملة. أظهر السيد "دروتي" اهتمامًا بالغًا ببعض الضباط الإنجليز الذين وقعوا في الأسر خلال الحرب هنا. وتأكيدًا لهذه الكلام أرانا خطابًا تلقّاه من الجنرال "فريزر" يعبر فيه عن إقراره وامتنانه لهذه الرعاية. ولأنه على علاقة طيبة مع الباشا فقد حصل على الحرية لهم، بل وأعطى العديد منهم خطاب تقدير من القسطنطينية لأي مكان ترسلهم السلطة الحاكمة. أكّد لنا القنصل أيضًا أنه نظرًا للعلاقة الحميمة التي تربطه بالعديد من البكوات في الداخل فقد كان السبب وراء قطْع الميرة عن الجيش الإنجليزي، وادّعى أنه لو استولى هذا الجيش على رشيد أولًا قبل التقدم صعودًا عكس جريان النيل لتمكن من الحصول على المؤن بالرغم من أنف البكوات.

الزيّ العام للعرب عبارة عن مِعطف أزرق مشقوق الذيل [28] وعمامة بيضاء. يسيرون جميعًا حفاة. بشرتهم داكنة وأجسادهم حسنة البنية وعيونهم صغيرة. للنساء أيدٍ وأقدام صغيرة. شعرهن قصير ولديهنّ عيون زرقاء وأسنان جيدة. يرتدين بشكل عام ثوبًا لونه نيلي له أكمام قصيرة، لكنْ بدون أي تغطية لرؤوسهن. بالرغم من أنّ الأقمشة التي يستعملنها غير فعالة في ستر أجسامهن فمن حين لآخر تتعرى صدورهنّ تمامًا، إلا أنهنّ يمتلكن بالسليقة عفّة وحياءً يجعلهن ينزوين بعيدًا عن العيون المحملِقة للأوروبيين. الرجال في غاية الأدب، ولديهم ولع بمصافحة الأيدي مع الرحالة على الطريق، الأمر الذي سبّب لنا إزعاجًا خوفًا من اكتساب عدوى الوباء. لديهم أيضًا مراسم لتسلسل الأسئلة التي يتوجهون بها لمن يلتقون معهم. أولًا يسألون عن صحة الشخص نفسه ثم صحة زوجاته وأسرته، وأخيرًا يستفسرون عن سلامة وعافية ماشيته وخدمه. ما إنْ يرون رحالة على بعد ربع ميل تقريبًا حتى يأتون إليه واضعين كفوف يمناهم على صدورهم قبل أنْ يصافحوا بها، ثم يشرعون في سرد الأسئلة المذكورة آنفًا. بمجرد أنْ يتلقوا إجابات مناسبة تُرضي فضولهم يهمّون بالانصراف.

شاهدتُ هذا الصباح قافلة من الجِمال متوجهة إلى جيش الباشا الذي يخوض حربًا طاحنة ضد العرب الوهابيين. على النقيض من ماء النيل المستخدم غالبًا تجد المياه هنا سيّئة على وجه الخصوص حين ينخفض النهر. يأتي العرب بجِمالهم من مسافة

---

[28] شملة.

نائية ليأخذوا القِرب الجلدية. تجثو هذه الحيوانات الوديعة على ركبتيها بأمر من سائسيها العرب حتى يتم الشحن أو التفريغ بيُسر أكثر. إذا قسا العربي عليها فزاد من حمولتها تقوم هذه الحيوانات بإطلاق صيحات وتأوهات. ومن مشاهداتي ينزل السائس على رغبة البعير فيخفف جزءًا من الحمولة ابتغاءً لراحته. السنام ليس قويًّا مثل الجَمل نفسه ولا كل سلالات الإبل العديدة بنفس البأس. ثمة مَن أخبرنا أنه حين كان الفرنسيون في مصر جعلوا على ظهر كل بعير رجلين مشكلين بذلك فوجًا عسكريًّا. هذه الحيوانات لا تسير بسرعة فحركتها ثقيلة وصعبة.
نما إلى علمنا منذ يومين ورود أمر مفاجئ من الباشا عبر الفرقاطة "السيد الكبير" برفع الحجْر الصحي في التوّ لأنه يتنافى مع القرآن. نتيجة لذلك تمّ في التوّ والحال فك الحجْر الصحي الذي فُرض هنا بناء على نصيحة "دروتي" المقرّب من الباشا. دقّ هذا الإجراء ناقوس الخطر بين السكان المسيحيين، وشُوهد البحارة الأتراك بالفعل في الشوارع ومظاهر الوباء بادية عليهم، بل وعُثر على مصابين في الأسواق. أغلقت العديد من العائلات الأوروبية أبواب منازلهم عليهم مشكلين بذلك حجرًا صحيًّا داخليًّا، واتبعوا الأسلوب الذي وصفناه آنفًا. أبلغنا القنصل الإنجليزي أنه ينتوي فعل الشيء نفسه في ذات يوم رحيلنا. وهذا يُفسر علة استقبالكم خطابي القادم من القاهرة حيث ارتأينا من الخطورة أنْ نبقى هنا لأي فترة أخرى. قررنا الرحيل غدًا إلى دمنهور في طريقنا إلى شبراخيت حيث نبحر منها إلى القاهرة.
بفضل تعطف السيد "لي" حصلنا على خطابات تزكية من حاكم الإسكندرية إلى علي بيه، حاكم دمنهور. قررنا الانطلاق ليلًا لتحاشي مخاطر الاتصال بالناس في الشوارع وكذا تجنب الحرارة. اكترينا جمليْن وعدة حمير تشكل موكبنا. غادرنا هذا المكان يعتصرنا الحزنُ لأنّ الظروف لم تسمح لنا بتفقده بدقة كما أردنا. أُجبرنا على اتخاذ هذا القرار ليس فقط بسبب الوباء، بل أيضًا تحسُبًا للعنتِ الذي كان ينتظرنا بعد أنْ أغلق أصدقاؤنا على أنفسهم أبواب منازلهم.

(1814)

"رحلات في مصر والنوبة والأرض المقدسة وجبل لبنان وقبرص" – هنري لايت

TRAVELS

IN

EGYPT, NUBIA, HOLY LAND,

MOUNT LIBANON,

AND

CYPRUS,

IN THE YEAR 1814.

BY HENRY LIGHT

CAPTAIN OF THE ROYAL ARTILLERY.

LONDON:

PRINTED FOR RODWELL AND MARTIN,

NEW BOND-STREET.

1818.

من "الفصل الأول"

انتابتني رغبة جارفة لزيارة مصر والأرض المقدسة، وهي البلاد التي أخذتْ عنها أوروبا الدين والفنون، ومِن ثم طلبتُ الإذن بالتغيب عن مالطا بغرض إشباع فضولي فأبحرت مصطحبًا جنديًّا إنجليزيًّا في 17 فبراير 1814 على متن باخرة تاجر يوناني من "إيليريا"، التي ينتمي إليها بحارته أيضًا. أبحرنا من مالطا في مساء السابع عشر وفي 26 من الشهر نَعِمتُ برؤية ساحل الإسكندرية الشهير يمتد كشريط خفيض في خط الأفق ظهر فيه من موقعنا في المياه عمود "بومباي" منتصبًا كما لو كان شراع سفينة ولاحت القلعة المُقامة على جزيرة "فاروس" كما لو كانت صخرة.

حاول الباشا إدخال نظام الحجر الصحي لأول مرة. بالرغم من جلب سفينتنا معها شهادة صحية تفيد بخلوها من الأمراض، لكنها أُرغمت على رفع العلم الأصفر بما أنها قادمة من مالطا التي اجتاحها الوباء مؤخرًا. عن طريق نفوذ القنصل

البريطاني، السيد "لي"، حصلنا على شهادة براءة صحية في الأول من مارس.
شملني الرجل بعطفه وعلمني كيف أتدبر أفضل السبل لقضاء فترة مكوثي في الإسكندرية التي تصل إلى أسبوعين. أقمت في مسكن يُشبه الحانة يُديره إيطالي، لكنّ منزل السيد "لي" ومائدته ظلتا منهلي الأساسي.
لا طائل من الاستفاضة في وصف الآثار العتيقة في هذا المكان فلطالما قام الرحالة بذلك، واستغرق في نعتها كل من "بوكوك" [29] و"دينون". [30] قمت بزيارة كافة هذه المواقع وشكلت فكرة عن المدينة المزدهرة في الأيام الخوالي، وضاهيته - بشعور من الكآبة - مع وضع البلدة ومجاوراتها في الوقت الحالي بعد أنْ هجرها سكانها تقريبًا. تمتد هذه الآثار القليلة الباقية عبر رقعة واسعة، لكنها تحظى بالاهتمام، ومنها ما بات يُعرف ببرج العرب [31] الذي يقع على مسافة خمسة عشر ميلًا غرب المدينة الحالية. فيما يخص عمود "بومباي" أدهشني أنّ العرب والشوام يطلقون عليه "عمود السواري"، [32] ولا يبدو أنّ أيًّا من الرحالة الغابرين قد ذكر هذا الأمر من قبل.
كانت المدينة تحت حكم محمد علي الملقب بباشا مصر الذي استحوذ عليها عقب حملتنا عام 1807، [33] وقبل ذلك التاريخ كانت تُعتبر دائمًا مستقلة عن الباشوية ويتولى حكمها شخص يعيّنه الصدرُ الأعظم.
الحاكم الحالي للإسكندرية هو ابن شقيقة الباشا؛ اسمه "خليل" ولقبه "بيك". ليس للرجل شخصية مميزة أو لنقل على الأقل حين زرته بصحبة القنصل أثناء احتفال رسمي لم يقل شيئًا لنستشفّ شيئًا عنها. كان يوجهه في الشئون المدنية واحد من حاشية الباشا اسمه "الحاج عثمان" مسئول الجمارك (ارتبط معه خليل بيك بالمصاهرة بالزواج من ابنته). وحيث لا تتعارض مصالحهما الشخصية تجد كلاهما يسوس السكان بشكل موازٍ، هؤلاء الذين قُدّر عددهم باثني عشر ألفًا قبل اجتياح الوباء المدينة العام الفائت ليودي بحياة سبعة آلاف منهم.

---

[29] إدوارد بوكوك، Edward Pococke (1604 – 1691)، مستشرق إنجليزي.
[30] Denon.
[31] برج يُشبه الفنار القديم، يقع على الساحل بالقرب من مدينة برج العرب، أشيع أنه يحوي رفات كليوباترا وأنطونيو.
[32] يبدو أن "فولني" يتفق مع "سافري" في تسمية العمود بـ "سيفيروس" (الترجمة الإنجليزية، الطبعة الثالثة، الجزء الثامن). راجع أيضًا مذكرات "ولبول" عن تركيا، ص375 وورد فيه تسميته بـ "عمود الأعمدة". إنّ منطوق "عمود السواري" لا يرد على ألسنة العامة في الشرق حسب ما وصلني. جعلتُ شخصاً يكتب بالعربية ما يطلق على العمود فخط "عمود السوير". وفي معجم "ريتشاردسون" العربي لا يتم ترجمة colonnade بسواري. (المؤلف)
[33] حملة فريزر.

يسكن الوكالات الأوروبية حوالي عشرون تاجرًا. اشتقت كلمة "وكالة" [34] من لفظة "القلعة"،[35] وهي مقاربة سليمة فمباني الوكالة ضخمة بشكل عام ومُقامة على مربع مسوّر من جهاته الأربع، بينما تحتفظ إحداها بالمدخل الوحيد للوكالة، ومن ثم يمكن قطع الاتصال مع المدينة في التوّ والحال إذا اجتاحها الوباء، كما يمكن التحصن والتمترس فيها بسهولة إذا قام السكان من أتباع ملة محمد بهوجة. في أوقات سابقة ضمّت الوكالات قنصليات الدول الأجنبية التي تحتفظ بتجارة مع الإسكندرية. لقد كان لهذه الأماكن حرمة عند الأتراك، كما كانت توفر ملجأ للمجرمين وغيرهم ممن فروا إليها طلبًا للحماية. توجد وكالتان إنجليزيتان فقط للتجارة في الإسكندرية وعُدّت السنة التي وصلت فيها أفضل المواسم التجارية للأوروبيين. تتميز الأراضي الواقعة خارج بوابات الأسوار الخارجية التي تقودك إلى رشيد حتى بحيرة مريوط بالاخضرار كما أنّ جزءًا من مُجاورة أبي قير مزروعة. تنمو الزهور البرية بين الأعشاب مُطلقة روائح مُبهجة تمتد عبر الأثير.

انتابني إحساسٌ بالفخر وأنا أعبر أطلال الحصون الصغيرة التي أقامها الفرنسيون وأشاهد ميدان المعركة الخالدة التي وقعت في 21 مارس. مازال هناك حجرٌ يشير إلى الموضع الذي سقط فيه "السير: رالف أبركرومبي".

بالرغم من أنّ الإسكندرية تضمّ العديد من الأوروبيين إلا أنّ كل شيء فيها ينطق بالشرقية فالجاموس يجرّ العربات تحت نيْره والجموع الهائلة من الجِمال تحلّ محل الخيول والسادة الأتراك يكلفون العمالة بما لا تطيق ويسوقونهم إلى السخرة كالعبيد والحُصر تغطي البازارات طلبًا للظلّ والبائعون يجلسون لحالهم على بسطة الحوانيت والمقاهي التي لا يُعدّ ولا يُحصى عددُها تتيح للخاملين هدْر أوقاتهم في الألعاب الشرقية التي نادرًا ما وُجد بينها الشطرنج.

اكتشفت بمجرد أنْ وطئت أرض مصر أنّ العناية شملت سفري فالسفينة الإنجليزية التي كان من المخطط أنْ أستقلها من مالطا وحالت ظروف خاصة دون ذلك قد تحطمت في بحيرة البرلس، وغرق مِن طاقمها وركابها اثنان أو ثلاثة، بينما وصل الباقون إلى الشاطئ بشقّ الأنفس بعد أنْ فقدوا كل متعلقاتهم عدا الملابس التي كانت عليهم.

---

[34] Okellah.

[35] قياس بعيد جدًّا. أجرينا بحثًا مطولًا في هذا الأمر ولم نهتد إلى شيء.

كان قدّر أحدهم وهو الضابط مهندس، "برينجتون"، استثنائيًا، ولازمه حتى هلاكه المحتوم. لقد أعدّ نفسه للقيام بأبحاث مطوّلة في مصر وأحضر معه أدواتٍ وكُتبًا من كل نوع وحصل على خطابات تزكية لدى الباشا حتى يتمكن من عرض آرائه. اغتنم الرجل فرصة مبكرة فغادر مالطا على متن سفينة إنجليزية من أفضل وأكثر السفن أمانًا. كانت آراؤنا عن السفر متفاوتة فقررنا السفر بواسطة سفن مختلفة. لحسن الحظ نجوتُ من مواجهة نفس مصيره ونجا الرجل بمشقة بالغة بعد أنْ بقي مع القبطان على ظهر السفينة حتى اللحظة الأخيرة قبل أنْ يتركا نفسيهما للأمواج. بفضل لوح من عوارض الشراع نجحا في الوصول إلى الشاطئ بعد أن استنفدا طاقتهما تقريبًا خلال هذا النضال الطويل. "شعرت أنّ تشبثي بالحياة يتلاشى تدريجيًّا"، هكذا عقّب الضابط المنحوس مُضيفًا : "حين لامستْ أقدامُنا الأرض تجددتْ طاقتنا." إنّ تتمة مغامراته جاءت بالقدْر ذاته من الكارثية فبعد أنْ وصل إلى الإسكندرية ببضعة أيام أقلع إلى القاهرة فمكث فيها حتى بعد مغادرتي صوب الصعيد ثم دخل الفلاة في قافلة متجهًا صوْب السويس. خلال هذه الرحلة نُهبت مؤنته وكاد يموت تضورًا وعطشًا. هجع في نفس الخيمة مع أشخاص مصابين بالوباء لقي منهم اثنان حتفهما تلك الليلة. بلغ السويس ليجابه مصاعبَ وعقباتٍ أخرى حالتْ دون تقدمه أبعد من ذلك فآب من فوره ضمن قافلة أخرى متجهة إلى العاصمة. في الطريق هبّت ريحُ السّموم فتسبب عنفها وعنفوانها في مقتل العديد من أفرادها، لكنّ الحظ حالفه فنجا.

حين قفل إلى القاهرة اشتدّت وطأةُ البلاء، لكنْ بالرغم من تعرُّضه المستمر له غادر المدينة بصحة جيدة عائدًا إلى الإسكندرية التي غادرها على متن سفينة تركية إلى مالطا، وفي الطريق عانده القدَرُ من جديد فجنحت سفينته بسبب الريح المناوئة إلى ساحل "مورية" فنزلها ثم قطع المسافة على الشاطئ المقابل لجزيرة "زاكينثوس" في موسم الحر فأصابته حمّى ولفّه الردى هناك بعد مرض قصير.

يحتفظ المجتمع الأوروبي في الإسكندرية بمزيج من العادات الشرقية والأوروبية. تنتهي الزيارات دومًا بصبّ القهوة التي يَعتبر الزائرُ تقديمَها إشارةً بأنّ الوقت قد حان للانصراف. تُقام الاحتفالات والحفلات الراقصة وتنتشر الشللية والنميمة في الدوائر المغلقة. تُقدّم وجبة الغداء في منتصف اليوم كما في جنوب أوروبا، أما العَشاء ففي التاسعة. إمدادات الخمر متقطعة ولا تسير على وتيرة واحدة بالرغم من

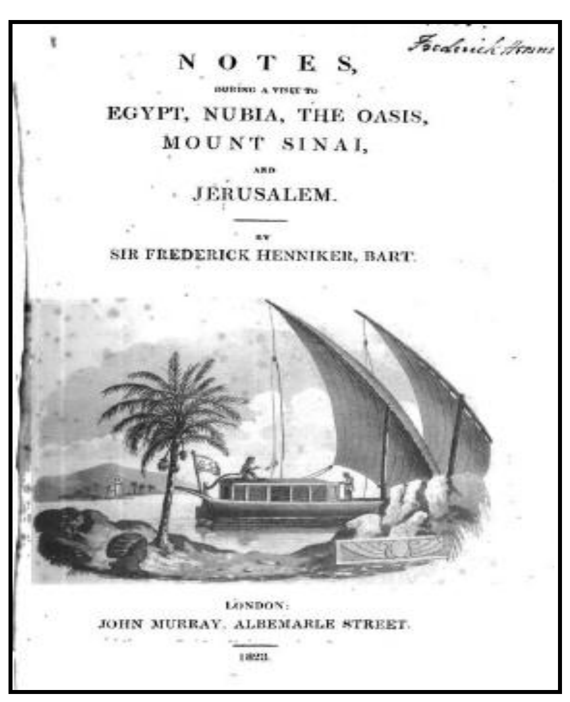
أنّ المسافة بين الجزر اليونانية والإسكندرية قصيرة للغاية. النوع الوحيد الذي تذوقتُه هناك هو الخمر القبرصي الأحمر المعروف بمذاقه اللاذع الكريه، وحتى هذا تقلص استيراده نتيجة للجمارك الفادحة التي فرضها الباشا عليه.
تحسّن الأمن العام والنظام في المدينة نتيجة لتغير حكامها. ويُعزى هذا الأمر إلى حزم الباشا وصرامته. تبدو الجرائم وما يستتبعها من عقوبات أمرًا نادرَ الحدوث. حالة الإعدام الوحيدة التي نُفّذت مؤخرًا كانت في عربي امتلك حديقة وسط خرائب البلدة العربية، واعتاد استدراج الناس – خاصة من النساء – إليها كمكان للخديعة، ثم يحتال بمساعدة امرأة أخرى لمباغتتهم وخنقهم. استمر هذا الأمر لعدة أشهر اختفى على أثرها العديد من السكان حتى تجمّعت حوله الشكوك. في نهاية المطاف زَيّن له الشيطانُ قتل شريكته خشية أنْ يُفتضح أمره مما أفضى إلى إدانته. شُنق الرجل كما هي العادة بحبل يتدلى من الحائط ويلتف حول عنقه ثم تلقف جثته السكان العرب ليسحلوها في المدينة.
أبلغني أحد الشبان الذين ينتمون لشرق أوروبا وعمل أمينًا على أسرار الألفي بيك قبل أنْ يُقبض عليه أوان مذبحة المماليك ويتم تهريبه على يد بعض المقربين من الباشا ممن بذلوا له الحماية، أبلغني أنّ حكومة الإسكندرية قبل أنْ يستحوذ عليها الباشا كانت تحت إمرة حاكم عسكر وقاض، والأول أعلى مقامًا لأنّ الثاني قد اشترى منصبه في القسطنطينية عبر بعض عبيد الحرملك حازوه بدورهم من تاجر. كان العبيد مسيحيين ومِن ثم لم يجدوا مناصًا من بيع المنصب لأحد أتباع ملة محمد. يتولى الجمارك في الإسكندرية شخص مسيحي ويُعتبر رئيس ضباط المكوس وآمر الميناء. يعمل القاضي في الوقت الراهن على تسوية النزاعات القضائية التي تقع بين أهل البلد والأوروبيين الشرقيين الذين لا يتمتعون بحماية القناصل، أما نزاعات الأوربيين فيما بينهم فيتم الفصل فيها بواسطة قناصلهم المعنيين، وأما القضايا التي يكون طرفاها الأوروبيين وأهل البلد فيتم تسويتها بعمل مشترك بين القاضي والقنصل.
يبتُّ الحاكم العسكري في حالات الإعدام. من الضروري وجود شهود أو اعتراف حتى تتم الإدانة. غالبًا ما يُنتزع الاعتراف بالفلقة والجَلد على القدمين العاريتين باستخدام سوط من الجِلد المبروم مع المعدن. تُسحب اليد للخلف فتنزل الضربة لتفسخ اللحم. أما فيما يتعلق بالجُنح فإنّ للقاضي إقرار الجَلد على الظهر بواسطة

جريدة من سعف النخيل. تجري كلا العقوبتين ليلًا بشكل عام. الإعدام لأهل البلد يكون شنقًا، أما العسكريون فتُقطع رؤوسهم أو يوضعون في أجولة ويُلقى بهم في البحر.
في الثالث من شهر مارس جرى الاحتفاء بالمولد النبوي، وهو احتفال عظيم القدر لدى أتباع ملة محمد. رافقتُ السيد "لي" والذكور من أفراد أسرته هذه الليلة في جولة حول البازارات التي أُضيئت بالمصابيح الشرقية المشهورة التي تحوي قدرًا كافيًا من الزيت تثبت في منتصفه فتيلة مشتعلة. تمّ إخلاء الحوانيت بالكامل من محتواها عدا تلك التي تبيع الشربات. فُرشت هذه الدكاكين بالسجّاد والوسائد والمجالس التي بلغت مستوى النوافذ، وامتلأت بمجموعات من العرب والأتراك في أبهى حُللهم. سادت السكينة كأعظم ما تكون. امتزج التنوّع في الأزياء مع الإجلال الذي اتسمت به المجموعة التي لم تنزعج البتة من وجودنا وسطهم مع الظهور المسرحي للمحلات التي بدت أشبه بالمقصورات التي تُقام في العروض العامة، امتزج كل هذا ليجعل المشهد شيقًا وممتعًا. قُدّم الشربات والقهوة والشيشة في جلسات التحدث. المحاولة الوحيدة التي جرت لإضفاء روح من الدعابة والفكاهة كانت ظهور عربي في زيّ مهرّج راح يجري هنا وهناك من خان لآخر يغطّي رأسه بقناع ضخم ينتأ منه ثلاثة قرون: اثنان على الجانبين وثالث في الجزء العلوي من الجمجمة. أخذ الرجل يجمع المال بهذه الطريقة وأرهق جيوبنا حتى بدون كلمة شكر مُكتفيًا فقط بالإعلان بصوت عال عن المبلغ الممنوح له ثم أخذ يتنطط بعيدًا.
يتميز السكان العرب عن الأتراك في الإسكندرية والمدن الأخرى التي زُرتها بالعمامة التي ترتفع مستقيمة على رؤوسهم، أما عمامة التركي فتنتأ على الجبهة. الفلاحون والشغيلة منقادون حتى إلى الأوروبيين إقرارًا منهم بتفوقهم على الأرجح. المتسولون قليلون وأوضاعهم جدّ بائسة كما عاينتُها. ما إنْ يتلقوا إحسانًا حتى يقبّلوا الهبة بشكل عام ثم يضعونها على قلوبهم تعبيرًا عن الشكر على نحو أبلغ من أي أسلوب أو ردٍّ آخر.
تلبس المرأة من أتباع دين محمد الملاءة البيضاء أو تلفّ نفسها بالقماش، كما تغطي وجهها عدا العينين. إذا لم تكن متزوجة تضع قلنسوة حمراء ضيقة، وأما نساء شرق أوروبا فيلبسن قلنسوة سوداء ويتبعن نفس إجراءات التستُّر والحجاب.

بعد أن مكثتُ فترة طويلة في الإسكندرية أكملتُ خلالها تفقُّد المنظر "البانورامي" الذي شاهدته من أعلى بيت القنصل دبّرت حميرًا لتقلني وخادمي ومتاعي إلى الأخدود الذي يفصل بحيرة مريوط وأبي قير، وغادرتها في باكورة 15 مارس.

(1822)

"ملاحظات خلال زيارة إلى مصر والنوبة والواحة وجبل سيناء والقدس" – بارت فريديرك هينيكر


NOTES,
DURING A VISIT TO
EGYPT, NUBIA, THE OASIS,
MOUNT SINAI,
AND
JERUSALEM.
BY
SIR FREDERICK HENNIKER, BART.
LONDON:
JOHN MURRAY, ALBEMARLE STREET.
1823.

الفصل الأول

الرحلة البحرية من مالطا – قارب الإرشاد – الإسكندرية

عزيزي (و):[36] لقد كان الحادث الذي وقع لك على جبل "فيزوف" من سوء طالعي لأنه حرمني من صحبتك إلى مصر. سأحاول على الأقل تغيير جزء من هذا الحظ عن طريق إرسال مستخلص من يومياتي بين الحين والآخر إليك.

6 أكتوبر، الساعة 3 بعد الظهر – تلقيت الأمنيات الطيبة من أصدقائي في مالطا وصعدت إلى متن سفينة شراعية ذات صاريين تحمل اسم "كوستانت" وكانت قد رفعت المراسي بالفعل. في الثالثة اجتاحتني رغبة ملحة في أنْ تنتهي هذه الرحلة البحرية. رياح رطبة لكنها لطيفة ولطيفة لكنها رطبة. بدت الشمس الآخذة في الغروب متوردة بشكل خاص. رمقتُها أنا والقبطان بأحاسيس متباينة. نال المشهد إعجابي، لكنّ القبطان استخدم كلمة "كابوت" [37] وأرسل في طلب معطفه الكبير. سرعان ما هبّت عاصفة عنيفة، وحين خمدتْ كان كل شيء على ما يرام. قطعنا مائتي ميل في أربع وعشرين ساعة.

---

[36] لا يوجد ما يشير إلى (و) بمعنى رجل أم امرأة؟

[37] Capote.

9 أكتوبر – الوقت يمرّ كعادته في عرض البحر. "كم قطعنا من مسافة، وكم تبقى أمامنا، وما هي السرعة التي نسير بها، ومتى نصل في اعتقادك؟ فقط عليك التخمين فلا قرائن ولا يابسة ولا سفن ولا حتى قشّة يتعلق بها الغريق. لا شيء سوى المياه والسماء كما تقول العبارة اللاتينية."[38]
يحقّ لفلاح ركب البحر لهذه المسافة الطويلة بين مالطا ومصر أنْ يتوقع من الطقس أهوالًا، لكن ليس عندما تبدو النجوم متلألئة وجميلة بشكل استثنائي. على أي حال ليس كلُّ ما يلمع ذهبًا، فالهواء الذي يحرّك السحاب يثير حفيظة سطح يقبع تحته ما هو أعمق. بحلول منتصف الليل أخذتْ رأسي تصطدم بجانبي المِهجع وكأنها ليست لي. استدعى ناقوس مزعج كل الأيادي إلى سطح المركب. "ألا تسمعه يا دنكان" [39].
خرجتْ المضخات و"البراندي" وأنفاسنا أيضًا. قلوبنا تنخلع؛ لا يوجد ثلاث طبقات من البرونز لتستبقيها في مكانها. [40] ظلت السفينة تطوحنا وتقذف بنا مخلفة تأثيرًا مزعجًا كما لو كنا ننزل أفعوانية [41] حديقة "بوجون" بباريس. [42] لن أدعو القديس بطرس جبانًا مطلقًا مرةً أخرى. ندمت كذلك على مشاركتك القدْح في الشاعر "فيرجيل"[43] ومبالغته في تصوير "سيلا وكاريبديس" حين كنا نعبر مضيق "ميسينا". أحسب أيضًا أنه لا يمكن الصفح عن "هومر" لأنه عبّر عن أهوال البحار بكلمة واحدة.
الرابع عشر – رياح خفيفة بل تكاد تكون منعدمة. دوارة الرياح بجوار الملاح لا تتحرك. استُبدلت أقراصها بألواح أخفّ لكنْ دون جدوى. نزل ضباب كثيف وقت الغروب ينبئنا باقترابنا من برّ مصر.
الخامس عشر – بدت المياه بُنيّة وآسنة نتيجة لتدفق النيل رغم كوننا على مسافة أربعين ميلًا تقريبًا من مصبّ النهر. الليل شديد الحلكة والساحل جدّ خطير الأمر الذي شغلنا عن منتهى أمانينا.

---

[38] Nil nisi pontus et aer.

[39] من مسرحية "ماكبث" لوليم شكسبير، الفصل الثاني، المشهد الأول.

[40] العبارةaes triplex من شعر "هوراس"Horace.

[41] قطار الموت أو "رولر كوستر"Roller Coaster .

[42] تم إنشاء هذه الأفعوانية عام1817.

[43] Virgil.

السادس عشر – مع بزوغ الفجر تهللت أعيننا برؤية مروج رشيد. استدرنا حول "الشمندورة"[44] ولزمنا المسار نحو الإسكندرية. نتأ بالكاد خط أبيض عن مستوى سطح البحر كان "دينون"[45] قد شبّهه بشريط خفيض يمتد بمحاذاة الأفق. لاح عمود "بومباي" كفنار موفيًا بغرض العلامة الإشارة.

للإسكندرية ميناءان: القديم والحديث، والأخير حاسر ولا يتم ارتياده، أما الأول فصعب الدخول. بوغاز كفم كلب مسعور يُرغي ويُزبد ويهدد ويتوعد وصخور كالأسنان الناتئة. جال خاطري في احتمالية أنْ تبدأ مغامرتي بحطام سفينة كما حدث للعديد من الرحالة في هذا الموضع. أضاف صياح المرشدين في قاربهم الرعب والإثارة على المشهد. على النقيض من التجانس الذي يميز طائفة البحارة عندنا تجد ملابس هؤلاء الناس فاقعة ومتباينة في أذواقها وألوانها إلى أقصى حد يمكنك تخيله في تطريزها، هذا فضلًا عن العمائم والخناجر والنّعال الحمراء التي تُلبس دون جوارب والشوارب الممتدة على كلا الجانبين من الوجه كلوامس القط. أخذ رجل طاعن في السن وذو لحية بيضاء يصلح أنْ يكون مرشدًا لفلك نوح، يرتدي قميص يوسف[46] ويجلس واضعًا رجلًا على الأخرى وذراعاه مربعان وغليون [47] في يده، أخذ يصيح دون توقف "أعنّا يا الله". والآن وبعد أن اجتزنا الصخور وزال الخطر صعد الرجل ذو اللحية البيضاء إلى متن السفينة لتحصيل الرسوم. طالب أيضًا ببقشيش وهدية فصعوده إلى ظهر السفينة يستحق شيئًا. أشّر صعوده أيضًا إلى زوال الوباء عن الإسكندرية. حلّ وقت الغروب تقريبًا وأُغلق المرفأ، وهكذا لم أستطع الهروب من هذا السجن المتحرك، وليس بمقدوري في الوقت الراهن رؤية أي شيء على الساحل يعزيني اللهم إلا بعض أشجار النخيل، هذا فضلًا عن مبنى أبيض ضخم، منزوٍ عن البشر في نهاية لسان من الأرض، أثار فضولي، وتبين أنه حريم "كليوباترات" الباشا.

قطعنا حوالي ألف ميل في عشرة أيام، وهو معدل يسعدني أنْ أضمه لنيبتون [48] وأتباعه الآثمين.

---

[44] علامة بحرية لتحديد المسارات.

[45] Vivant Denon، دبلوماسي فرنسي (1747 – 1825).

[46] ربما قصد الكاتب أنّ قميصه ممزق.

[47] الشيبوك.

[48] Neptune، إله البحر عند الرومان.

السابع عشر - الصخور التي وطئناها على حافة المياه هي مجموعة من الآثار على وشك مغادرة موطنها الأصلي مشفوعة بخطابات تزكية قوية من السيد ----- والسيد ----- إلى حكومتي إنجلترا وفرنسا المعنيتين. نقوش هيروغليفية مشوّهة وتماثيل بلا أنوف يتم إرسالها للخارج لسبب غير واضح إلا إذا كانت ستُستخدم كأثقال توازن في قاع السفينة. مَن يمكنه تخيّل مقايضة هذه الأشياء بالمال؟ إذا كانت هذه القطع المأخوذة من القصور البهيّة هي كل ما يستحق حمله بعيدًا فلن يبقى هنا سوى الخراب والحطام! مستقبلًا ربما تعيّن عليّ الذهاب إلى روما لأملي عيني من المسلات وإلى لندن وباريس لأشاهد التحف المصرية الأخرى.

الشوارع التي تُوصّل إلى منزل القنصل الإنجليزي ضيّقة وملتوية وقذرة. المساكن منخفضة وجرداء من التشطيبات والفرش. تجد في المواضع التي ينبغي وضع ألواح الزُّجاج بها مشربيات من الخشب تشبه سواتر دير الراهبات، وتخدم نفس الغرض. تُولد النساء هنا في سجن ويعشْن في سجن ويمتْن في سجن. إذا هربن يتم تقييدُهن ووضعهن في أجولة وإغراقهن. على النقيض من المظهر المزري للمدينة تجد الثياب المبهرجة للناس التي قد يستشف منها المرء الغنى، بيد أنّ هناك أيضًا العراة والمتضورين جوعًا مما يجعل الإسكندرية تبدو كبيت مدقِع يسكنه أهل البلد. تنتشر المقاهي التي تقدم الدخَان ويكثر ارتيادها تمامًا كمواخير الجعة وحوانيت الخمور في لندن، لكن عِوضًا عن صائغي الفضة وصانعي الحلوى تجد الحلاقين والقائمين على تقطيع التبغ وتقسيمه. دخلنا في نهاية المطاف الشارع الوحيد الذي يباهي باحتوائه على ألواح الزجاج. يسكن الشارع الخواجات، ويُطلق هذا اللفظ على كل من يرتدي قبعة فوق رأسه. هنا لا يعير الناس اهتمامًا بالتباينات القومية والدينية فينطلقون معًا في فوج واحد كما يفعل اليهود والأتراك في البندقية.

وصلتُ إلى القنصلية. لا يقرع أحدٌ أبواب السيد "لي" دون أنْ يخبر أحاسيس مزعجة لا تنتهي حتى يعبر البوابات إلى الداخل. لقد صُنعت بشكل واضح كي تدرأ الوباء أو الغوغاء فهي مزدوجة وبها شرّاعات الغرض منها أخذ الحيطة وتوخي الحذر.

يوجد في المدينة حانة تقدم وجبات ثابتة لروادها في توقيتات محددة. موائدها مغطاة بمشمع ضد الوباء، كما يوجد مهاجع للإيجار، لكني احتفظت بقمرتي في السفينة. ثمة فرقٌ شاسع بين وجودك على سفينة تمخر عَباب البحر ووجودك عليها وهي

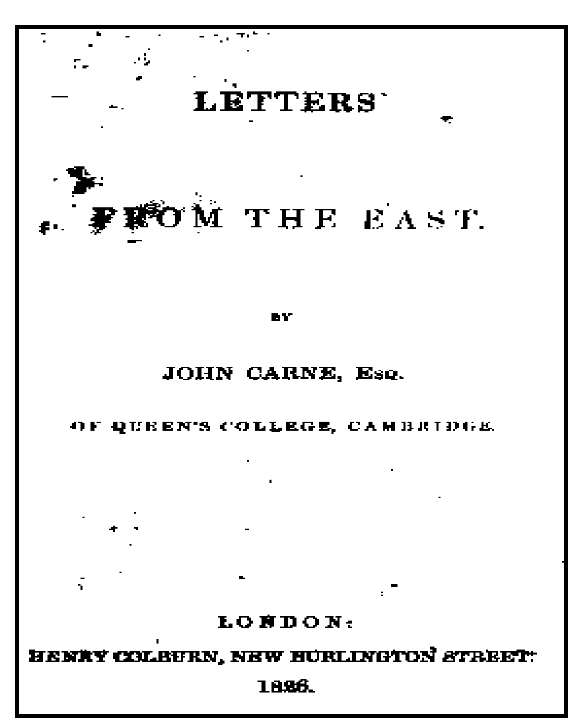
رابضة. عانينا من وباء صغير على متن السفينة، وأعني به البعوض والذباب. جابهنا تلك الهوام أمس وانشغلنا بها تمامًا كضباط الجمارك. لا يتوقف الذباب عن تتبع قلمي هذا والخوض في كلماتي كما تقتفي الغربان أثر المحاريث. [49] يا لهول المتاعب، لا أقول الرياضة البدنية، التي كان "دوميتيان" [50] سيواجهها هنا! ذكر السير "ر. ويلسون" أنّ كمية الحشرات التي اعتاد قتلها في المرة الواحدة "بدت كبرميل زبيب مكبوب." لا يوجد بالفعل غضاضة من قتل البعوض ولا أعلم أيهما عدونا الأكبر الناموس أم الذباب. اقتسم كلاهما النفوذ فنوع يلدغ ليلًا والآخر نهارًا. المخلص. ملحوظة: كلما عنّ لي استخدام لفظة عربية فسأوردها كما تُمليها أذني على قلمي.

---

[49] تفعل الغربان ذلك بغرض التقاط الديدان.

[50] امبراطور روماني (51 – 96) ميلادية.

(1825)
"خطابات من الشرق" – جون كرين


LETTERS

FROM THE EAST.

BY

JOHN CARNE, Esq.

OF QUEEN'S COLLEGE, CAMBRIDGE.

LONDON:

HENRY COLBURN, NEW BURLINGTON STREET.

1826.

من "الفصل الرابع"

مصر

رسوْنا في الإسكندرية بحلول منتصف النهار بعد تأخير دام لعدة ساعات. كانت الحرارة شديدة، ولا يوجد في الشوارع سوى بضعة نفر من المارة. سرعان ما قُدّر لنا أنْ نخبر البلاء المصري كما يستحق أنْ ننعته، أسراب من الذباب راحت تلتصق بوجوهنا وعيوننا دون هوادة حتى تعذّر علينا رؤية مسارنا. اضطررنا لذبّها بهفهفة مناديلنا دون توقف. في المقهى لاحظنا تشكيل كتلة سوداء من هذه الحشرات في الشربات أو الليمونادة إذا تُرك الغطاء مفتوحًا. تقدّم غفارات من القصدير دومًا مع أقداح المشروبات لتدرأ عنها هذا الغزو. قصدنا نُزلًا وطلبنا عشاءً. كان الخان يعجّ بألوان وصنوف من البشر بأزيائهم المتفاوتة. عنّ لأحد الأتراك إطرابُهم بأغنية. وضع الرجل سبابتيه خلف أذنيه وأخذ يميل للأمام أثناء جلوسه مربعًا ثم راح يُخرج أصواتًا أنفية مُريعة يُفترض بها أنْ تكون شجيّة ومُحرّكة للمشاعر، الأمر الذي دفعنا إلى الاحتماء بغرفة صغيرة بالطابق العلوي. سرعان ما جاءنا فيها صحن من لحم الجديان مُتبلٌ على نحو شهي وعقبةٌ عبارة عن فواكه مع بعض القهوة. كانت مأدبة

رائعة بعد المخمصة على ظهر السفينة. استأجرنا شققًا في منزل خاص وانتقلنا إليها في ذات المساء، لكنّ البعوض كان مزعجًا على نحو شنيع. لا جدوى من إغماض عينيك لأنك سوف تستيقظ على الفور بفعل نصف دستة من اللدغات اللاذعة في شتى أجزاء الجسم، لاسيما الوجه إذ إنه الموضع المفضل الذي يبدو في صباح اليوم التالي مغايرًا للهيئة المتواترة سواء شاحبًا أو بهيّ الطلعة.

في اليوم التالي وبعد اكتراء حمارين، وسيلة النقل العامة هنا في هذا البلد، واستئجار مرشد يتحدث الإنجليزية انطلقنا صوب عمود "بومباي". يرتفع هذا العمود "الكورنثي"[51] لطول تسعين قدمًا في الهواء، أما قاعدته فحوالي خمسة. يتكون العمود من ثلاثة أجزاء من الجرانيت الأحمر وينتصب على ربوة صغيرة. يُمكن رؤيته على البعد من مسافة كبيرة من كافة الأرجاء. أما إبرة كليوباترة التي لا تبعد عن هنا كثيرًا فيبلغ ارتفاعها سبعين قدمًا. تأتلف المسلة من قطعة واحدة من نفس الحجارة، وعليها نقوش هيروغليفية بعضها قد انطمس تقريبًا. كان المرشد الذي رافقني مصريًّا هرمًا ووسيمًا، فارع الطول وذا لحية بيضاء. يرتدي ثوبًا طويلًا أزرق اللون ينحسر عن صدره ويكشف عن ذراعيه العاريتين. ظل يمشي ويجري بجانب دوابنا النبيلة في قيظ النهار. أطلال هائلة وقبيحة هي كل ما تبقى من الإسكندرية القديمة. لا يمكن أنْ يتخيل المرء مكانًا أكثر كآبة وكمدًا للقلب من المدينة الجديدة. تنتشر أكوام من الرمال في شتى الأصقاع لا تكسر وتيرتها هنا أو هناك إلا بقعة خضراء أو ثلة من أشجار النخيل. لا يوجد في المنطقة المحيطة المنبسطة [52] الرتيبة شيء جدير بالاهتمام أو نزهة واحدة تجلب الإمتاع، والاستثناء الوحيد هو دير المحمودية وحديقة القنصل الإنجليزي. المنازل في المدينة، على أقل الجزء الأوروبي منها، مرتفعة بصفة عامة وطلاؤها أبيض. أما بيوت التّجار فمفروشة على نحو أنيق ومناسبة تمامًا للطقس الذي يُعدّ الأبرد في مصر حيث يهبّ يوميًا وبشكل منتظم هواءٌ بديع من ناحية البحر. لدى الأوروبيين بضعة مقاهٍ هنا، والمقهى البارز بينها هو مأوى مقبول يلتقي فيه التجار والمغامرون ومواطني الدول المختلفة. التحصينات التي أقامها محمد علي، باشا مصر، حول المدينة قوية وممتدة. هذا الأمير مؤهل على نحو يثير الإعجاب لأنْ يرتقي إلى العُلا في الامبراطورية

---

[51] الإغريقي.

[52] شبه "بولوك بلاك" الإسكندرية بطاولة البلياردو Pollok Black, A Hundred days in the East, John F. Shaw and Co., London, P. 29.

التركية. ترجع أصوله إلى اليونان، ويمتلك مواهب فذة فهو سياسي داهية وجسور، بل دموي في تنفيذ خططه. هذا ما أظهرته مذبحة ثلاثمائة بيك من المماليك كان قد دعاهم إلى وليمة. سيأتي يوم يتخلص فيه من التبعية للباب العالي، ويعلن مصر دولة ذات سيادة. هذا الباشا شغوف بالأوروبيين، وألحق عددًا كبيرًا منهم في خدمته. ولأنه متحرر تمامًا من العصبية، لم يطلب من أيهم تبديل دينه. لديه رغبة متقدة ليحسّن أحوال بلاده. لقد قام بإنشاء مصنع للسكر على النيل ومصانع أخرى للقطن. اشرأب إلى ترف الثلج الذي لا يوجد شيء منه في مصر. أرسل القنصل العام البريطاني، السيد "سولت"، إلى انجلترا طلبًا لماكينة تصنع الثلج. وصلت الآلة وتم حملها إلى قصر الباشا. استخدم ماء النيل لهذا الغرض. تابع محمد علي العملية برمتها بفضول شديد. بعد العديد من الإحباطات خرجت أول قطعة ثلج كبيرة. أخذها الباشا في يده وراح يرقص حول القاعة فرحًا كطفل صغير ثم انطلق مهرولًا إلى الحرملك ليُريها لزوجاته وجواريه. ومن حينها وهو ينعم بها. اضطلع بإنشاء أو بالأحرى إحياء القناة العظيمة التي حملت اسم كليوباترا؛ عمل استثنائي يمتد لأربعين ميلًا ويصل النيل مع بحر الإسكندرية. سخّر مائة وخمسين ألفًا من الرجال لفترة طويلة، كان أغلبهم من عرب الصعيد. لقي عشرون ألفَمصرعهم خلال إنجاز العمل. انطلقنا بالدوابّ في باكورة يوم من الأيام إلى مشارف المدينة. دخلنا منزلًا كان يشيّده محمد علي لابنه. فجأة سمعنا صوت موسيقى قادمًا من الخارج. لقد كان الباشا بنفسه يرافقه الحرس، وقد وصل لتوّه قادمًا من القاهرة. كان مترجلًا، ووقف على الضّفة المرتفعة للقناة الجديدة التي يحفرها يباشر باهتمام بالغ الأعداد الغفيرة من الرجال الذين يعملون في الأسفل. كان متوسط القامة، ولباسه عادي. بدا بين الخمسين والستين. ملامحه حسنة، ويتمتع بشخصية هادئة متأملة. تصل لحيته التي خطّها الشيب إلى صدره. كان مشهد القناة في الأسفل غريبًا ونادرًا؛ أعداد مهولة من العرب على اختلاف ألوانهم، يكدحون في قيظ النهار الشديد، بينما يتولى المشرفون متابعة تقدم العمل وقد أمسكوا كرابيج بأيديهم. مشهد أعاد للذاكرة الحيّة تمامًا أبناء إسرائيل والنصب الذي خبروه على يد أسيادهم الطغاة آنفًا. لا تتجاوز الأجرة التي أمر بها محمود [53] لهؤلاء البائسين الذين اضطروا لترك مساكنهم وعائلاتهم في صعيد مصر ليكدحوا في هذا العمل درهمًا يوميًّا، فضلًا عن مؤونة من الخبز. لم

[53] السلطان العثماني.

يفقد العرب روح الدعابة التي يتمتعون بها فتراهم يجابهون الكدّ والعنت بمرح وبشاشة. أخذت جولة على ضوء القمر في المنطقة التي يخيّمون فيها. كانوا يجلسون في خيامهم الخشنة يتناولون وجبتهم الجافة من الخبز، أو يرقدون في صفوف يلتحفون السماء وحسب. لا يُسمع أي شيء في الجوار إلا أغاني بلادهم التي تفتقر للنغمات بشكل كافٍ، عدا امتزاجها بتصفيق جماعي عالٍ يؤشّر دومًا إلى الفرحة.

(1826)
"سرد للرحلة البرية من انجلترا عبر قارة أوروبا ثم مصر والبحر الأحمر وصولًا إلى الهند" – زوجة العقيد إيلود (آن كاثرين كيرتس)

NARRATIVE

OF A

JOURNEY OVERLAND FROM ENGLAND,

BY THE

CONTINENT OF EUROPE,

EGYPT, AND THE RED SEA,

TO

INDIA;

INCLUDING

A RESIDENCE THERE, AND VOYAGE HOME,

IN THE YEARS 1825, 26, 27, AND 28.

BY MRS. COLONEL ELWOOD.

IN TWO VOLUMES.

VOL. I.

LONDON:
HENRY COLBURN AND RICHARD BENTLEY,
NEW BURLINGTON STREET.
1830.

الخطاب الخامس عشر

ركبنا حميرنا في ظهيرة التاسع عشر يحرسنا الانكشاري "سليم"، واتجهنا صوب ترعة المحمودية حيث كانت تنتظرنا السفينة الشراعية. خمدتْ رياحُ الخماسين، وأطلّ القمر بنوره البهي. كان المساء مبهجًا. تحدثنا عن كليوباترا، وأجمعنا على أنّ كل ما عاينّاه كان جديدًا ولطيفًا. مررنا بالعديد من الجاريات المُحمّلة بالقطن. يتطلب الأمر بعض المهارة لاجتياز السفن الأخرى دون الاصطدام بها. غالبًا ما تتشابك حبال الأشرعة والصواري في حالة التقاطع السريع مما يُلحق الأذى بكلا السفينتين. حين نشب نزاع طفيف أخرج سليم نبوته الفضي وشارة الاختصاص التي ما إنْ ظهرت للعَيان حتى عمّ الهدوء. بدأت شبورة كثيفة في النزول. نصحنا "س" بالرجوع إلى الكابينة التي بلغت مساحتها ستة أقدام مربعة وارتفاعها أربعة أقدام الأمر الذي جعلني أنظر لقامتي لأول مرة في حياتي بشكل إيجابي بأنها طويلة جدًّا! اكتشفنا على ضوء المصباح آلاف بل عشرات الآلاف من الصراصير تتحرك بحُريّة في كل اتجاه وبالتأكيد فوق الأرائك الأمر الذي سبّب لنا هلعًا شديدًا. مما زاد الطين بلة هو اكتشافنا أنّ السفينة موبوءة بالفئران التي زارتنا غير مرة خلال الليل.

أشرق الصبح جميلًا نضرًا. وصلنا بحلول الظهيرة تقريبًا إلى النقطة التي يتحتم علينا فيها مغادرة القارب والمواصلة برًّا لأنّ المياه ليست عميقة بشكل كافٍ لتقدم السفينة. حطّت قواربُ عدّة محمّلة بالأقطان بصفة رئيسية على الأجناب. نُصبت خيمة قذرة لجأ إليها الأتراك والعرب والفلاحون المصريون في أزيائهم المتنوعة. تؤشّر العمامة الخضراء إلى أنّ صاحبها من الأشراف. شاهدنا على الضّفتين النساء العربيات في ثيابهن الزرقاء والأطفال شبه العراة يحَبْو ن ويجرون هنا وهناك في كل اتجاه. في غضون نقل متاعنا تم وضع مقعدين لنا تحت شجرتي صفصاف صغيرتين وفرتا لنا ظلًّا كافيًا جعلنا نتوق للمزيد لأنّ الجوّ كان شديد الحرارة.
راحت السواقي التي لا تُعدّ ولا تُحصى تُصدِر نعيرها بينما حلقت فوق رؤوسنا مجموعة من الطائرات الورقية وهي تخفق أجنحتها بقوة. تجمهر الأطفال حولنا وجلسوا يحدّقون فينا بنظرات يكتنفها الفضول، ويمدّون أيديهم طلبًا للبقشيش. اقترب منا بعض الرجال الوقورين يرغبون في تبادل أطراف الحديث معنا لولا أننا لا نفهم لغتهم.
استأجر الانكشاري أو ربما استولى على عشرة جِمال باسم الحكومة من أجلنا. فرّ جميع السائسين في الحال لتوقعهم أنهم لن يحصلوا على الأجرة نظرًا لما حدث.
تسبب هذا الأمر في تأخير كبير. انصرمت ساعة ويزيد قبل تجهيز قافلتنا الصغيرة.
وجدت الآن سرجي الجانبي عظيم النفع. ركبت أنا و"س" في المقدمة. كان سليم يحرس حماري بينما قاد الشيخ "شوند" الجِمال العشرة بعد ربطها معًا، وتلاها متاعنا بينما شكل بقية مرافقينا المؤخرة. جاءت المجازفة الأولى في محاولة حماري العدْو تحت الجِمال. أنقذني سليم بصعوبة بالغة من هذا الخطر الوشيك.، ثم انهارت حمولة أحد الجِمال على الأرض. تبيّن أنها تخصّ البستاني الذي يعمل لدى السيد "سولت" الذي طلب الإذن بمرافقتنا إلى القاهرة. بالرغم من كونه مسلمًا ورعًا فقد كشف سقوط الشحنة النقاب عن محتواها، وتبين أنها خمور! ولجنا بعد ذلك في أرض صحراوية لا أثر فيها لشجيرة أو شيء من الكلأ. بدت التربة شبيهة بالقاع المشقوق لبرك الخيول حين تجفّ بفعل الحرارة الشديدة. ظهر السراب حولنا من جميع الاتجاهات. يُعدُّ هذا الإيهام الأجمل حيث رأينا بجلاء على مسافة أمامنا بحيراتٍ ونهرًا لطيفًا عكست صفحته الهادئة الأشجار والمباني بوضوح. كان

الخداع البصري كاملًا لدرجة أنّ الأمر استغرق منا بعض الوقت لنقتنع بأنّ ما شاهدنا ليس النيل.
بعد مرور ثلاث ساعات بلغنا "العطف". كنا قد سبقنا الجِمال، ولم يكن حولنا غير نخلة وحيدة نحتمي بها من أشعة شمس الظهيرة الحارقة، ومِن ثم فقد نشد "س" منزلًا. سأل سليم بسذاجة شديدة: "لماذا تريد منزلًا؟" ظنّ أنّ الغرض من المنزل هو النوم وحسب. حاولنا دخول واحد. كان مالكه يحلق، وتم إعداد الشربات. أودعوني كابينة إحدى السفن. لم تكن عالية بقدر كافٍ للوقوف، ولم يكن بها أي شيء يوصف بأنه مقعد يصلح للجلوس عليه. اضُطررت كرهًا أو طوعًا إلى افتراش معطفي والتمدد عليه، لكن في أثناء انتظار وصول متاعنا شعرت بالوهن الطاغي بسبب الحاجة إلى وجبات خفيفة. انقضت عدة ساعات منذ تناول وجبة الإفطار الأمر الذي حدا بـ "س" إلى الخروج بحثًا عن أي شيء قائلًا للريس "حَرام" لأنه تركني.
و"حرام" كما أبلغونا تُعامل دومًا بقدسية. بالرغم من أنه لم يتواجد على متن السفينة غير المراكبية الغلاظ لم يسْعَ أحدهم إلى الدخول عليّ عنوة أو انتهاك حُرمتي حين كنت بمفردي، كما قام الريس بتوبيخ أحدهم كان على وشك دخول الكابينة ولم يكن يعلم أنها مشغولة.
كانت السفينة النيلية الوحيدة ذات الحجم الكبير مما يُعطي إحساسًا بالأمان من فئة "الكانجيا"،[54] لكنها في حالة بائسة وتحتاج إصلاحًا. مما زاد الأمر سوءًا أنها كانت قد أفرغت مؤخرًا شحنة من السكر مما يعني أنّ سقفها عليه طبقة من الذباب وأنّ أرضيتها تعجّ بالبراغيث. داعبنا الأمل أنْ نصل القاهرة في اليوم التالي، ولم يكن أمامنا بديل غير الرجوع أدراجنا إلى الإسكندرية فقررنا ركوب السفينة. في السادسة مساءً فردنا القلوع بينما قفل حارسنا، سليم، إلى الإسكندرية بعد أنْ سلمنا إلى مرافقين هنديين بالإضافة إلى خدمنا المالطيين. ولأنّ "س" يتحدث الهندوستانية وأنا الإيطالية والشيخ "شوند" و"جيوفاني" العربية فقد قاما بالترجمة بيننا وبين الطاقم. اجتزنا فوة والسالمية عند غروب الشمس، وواصلنا الإبحار في صباح اليوم التالي أسفل حاجز من الرمال مقابل كفر الدوار. كانت الريح قوية جدًّا لدرجة تهدد السفن المبحرة بالغرق. جنحت سفينتنا ورست مع عدة سفن أخرى وسرعان ما غط الأطقم في النوم على الشاطئ. لم يكن أمامنا سوى التمسك بشعار الصبر. استمتعنا

[54] Cangia.

بالتنزه على ضفة النهر بالرغم من وجود صعوبة في تفادي وطء الرجال الراقدين في كل صوب وحدب متدثرين بجلاليبهم الفضفاضة. ما إنْ أدرك الريس نيتنا حتى أصر على مرافقتنا صانعًا إشارات مفادها أنه ليس آمنًا بالنسبة لنا المجازفة وحدنا. بعد محاولته التحدث معنا لبعض الوقت قبل يد "س" وجرى يجمع بعض الزهور ليهديها إليه. لو كان فرنسيًا لأهدى الورود لي، لكنْ لكل قطر عاداته، وأنا مقتنعة بأنّ نية الريس كانت تقديمها لي، وعلى أي حال سرعان ما انتهت حيازتها لي. خلال نزهتنا كانت القرويات على الضفتين ترمقننا بأشد علامات الفضول. ازدانت بعضهن بالذهب، وكانت أحجبتهن متصلة بين أعينهن بحبل من الأجراس الصغيرة المصنوعة من الفضة. بدا انشغالهن الرئيسي هو سحب الماء ونقله، بينما ظهر الأطفال عراة بشكل عام كما ولدتهم أمهاتهم. أخافهم كثيرًا ظهورنا من آنٍ لآخر. هرول أحدهم حين قابلنا فارًّا وهو يبكي "ماما، ماما" بنغمة طويلة كأي طفل اسكتلندي صغير. ضحك الرجال من مظهرنا الأجنبي بحسن نية، لا أقول بعدم احترام، وأشاحوا عيونهم عنا قائلين "حرام!" في دهشة. في صباح أحد الأيام شعرت بيد تمسك بي بغتة، فالتفت في شيء من الحذر لأجد امرأة في جلبابها الأزرق الذي يميز هذه الدولة. كانت محجبة تمامًا. مدّت يدها قائلة "سلامات!" بأعلى صوتها. صافحتها في المقابل فأشارت إليّ لأتبعها إلى بيتها في القرية على مسافة قريبة، لكني خشيت ذلك لأنّ الدعوة لم تشمل "س" الذي مدّت كفها له بشكل ودي وبدت سعيدة حين وضع فيها بعض القروش.

(1832)

"مصر ومحمد علي" – جيمس أوجستس سانت جون

EGYPT,

AND

MOHAMMED ALI;

OR,

TRAVELS IN THE VALLEY OF THE NILE.

BY

JAMES AUGUSTUS ST. JOHN.

IN TWO VOLUMES.—VOL. I.

LONDON:
LONGMAN, REES, ORME, BROWN, GREEN, & LONGMAN,
PATERNOSTER-ROW.
1834.

من "الفصل الأول"

الخميس 8 نوفمبر 1832

1- تضاعف الرضا والارتياح باقترابي من سواحل مصر التي وقف التاريخ القديم والحديث عندها بدرجة استثنائية من المجد شعورنا بالأمن وزوال الإحساس بالخطر. لقد اكتنفت الظنون رحلتنا من "ليفورنو" ووصولنا إلى مقصدنا من عدمه فالريح كانت عاصفة وغير مواتية والبحر هائجًا. في اليوم السابق استطعنا لفترة وجيزة رؤية الساحل الرملي لقارة أفريقيا غرب برج العرب، لكن اكتشفنا أننا ابتعدنا في اتجاه الغرب كثيرًا عن اليابسة، وكانت الرياح غير مواتية، لذا كان من الضروري التوغل في البحر من جديد، تقريبًا في عين العاصفة، ومحاولة الإبحار مباشرة نحو الإسكندرية. خلال الليل استطاع البحارة بمناظيرهم المعظمة رؤية لمحات من اليابسة غير مرة، لكنّ عينيّ غير المُدربتين لم تتمكنا من ذلك إلا بعد انبلاج الفجر وارتفاع الشمس خلف المدينة. وقتها فقط وبفضل ذلك تمكنتُ من تمييز الأشياء بسرعة أكبر. لاحت كل ربوة منفردة وبرزت أي عورة في خط الأفق في

مقابل السماء الزعفرانية الصافية. أول ما يُرى في الإسكندرية قصر الباشا في رأس التين ويليه عمود "بومباي" ثم طواحين الهواء [55] وعملية الشحن في الميناء. كانت اليابسة واطئة لدرجة أنّ الأمر بدا وكأننا ننزل نحوها من الماء. قبل ظهور الشاطئ بمدة تغير لون المياه من الأزرق إلى أخضر موحل بسبب التمازج بين المياه وطمي النيل، وهو أمر لاحظه رحالة سابقون الذين استنتجوا بناء على ذلك أنّ خط الساحل يتقدم باستمرار ويقترب من البحر رغم أنّ التكوين الطبيعي للساحل يظهر جليًا أنّ النهر لن يكون السبب المؤثر في أي توسعة أخرى لمصر.

2- بينما أخذنا نقترب من اليابسة لاحظنا وجود أعداد غفيرة من النوارس وطيور بحرية أخرى تمسح الشاطئ أو تستقر على الماء. خمدت الريح وتحولت إلى نسيم عليل. كانت السماء صافية والشمس دافئة تمامًا كأجواء الصيف لدينا في خطوط العرض الشمالية، مضفية لمسة من الجمال على كل من البحر واليابسة. تولدت لديّ مشاعر متداخلة من الحمد والفضول والبهجة دفعتني إلى خلع مسحة ذهبية على كل ما حولي. وبحيادية عن هذا كله، أقول كان المشهد شيقًا للغاية: أعمدة ومسلات وقلاع وقصور وصروح متنوعة للاستخدام أو الرفاهية تلمع في الشمس وتحدد خط الساحل. رأينا كل هذا بشكل جزئي من خلال غابة من الصواري التي تمثل سفن التجار والسفن الحربية بأشرعتها المفرودة بجميع ألوان الطيف وهي ترفرف أثناء ولوجها أو مغادرتها للمرفأ، هذا فضلًا عن أعداد لا تُعدّ ولا تُحصى من السفن المصرية والفلائك وقوارب الإرشاد تنطلق مسرعة بأشرعة كبيرة بيضاء على امتداد الساحل. ظهر جليًّا على يسارنا خليج أبي قير الذي يستحق الذكر لارتباطه بمعركة النيل، [56] أمّا على يميننا فقد امتدت الروابي الرملية الصغيرة من المدينة وحتى المقبرة العتيقة تعلوها مجموعةٌ من الطواحين الهوائية ذات بناء فريد لا يخلو من الجَمال. أرى الآن المرشدين العرب في أزيائهم المميّزة اللافتة للنظر يقتربون من السفينة. بعد أنْ وضع ثلة منهم أقدامهم على متن السفينة شرعوا في توجيه الحركة. استغرق الأمر ساعتين ونصفًا لنشقّ طريقنا داخل الميناء لأنّ مدخله صعب بشكل خاص ومحفوف بالمخاطر، في الحقيقة كادت سفينتنا أنْ تصطدم غير مرة بالسفن الأخرى، بل ولامستْ واحدة أو اثنتين أثناء المرور والاجتياز. بمجرد أنْ دخلنا الميناء تزاحمتْ حولنا من جميع الجوانب زوارقُ كثيرة تحمل عربًا وأتراكًا

---

[55] كانت تُعرف بطواحين المكس.

[56] تُعرف في التاريخ المصري بمعركة أبي قير البحرية والتي أغرق فيها "نيلسون" الأسطول الفرنسي.

وإيطاليين بذيئين. حين أُلقي المرسى تدفق على السطح كل هذا الخليط من الغوغائيين المتفاوتين في اللبس ولون البشرة والملابس وهم يزبدون ويرغون ويساومون ويفاصلون ويتشاحنون ويتشاكسون كما لو كانوا جماعة من اليهود في "زقاق الصّرافة".[57] تطلعت بشدة للنزول إلى البر شأني في ذلك شأن بقية الركاب حيث قُوبلت بحفاوة بالغة وأدب جمّ مِن قِبل القنصل الأمريكي، السيد "جون جليدون".[58] يوجد في الإسكندرية فندقان يديرهما الإيطاليون وينزل بهما كافة الأوروبيين الذين لا يريدون أنْ يشكلوا عبئًا على قناصلهم خلال إقامتهم بالمدينة. يتمتع كلا الفندقين بنفس القدر من حسن السمعة، لكنّ كِفة الأفضلية تميل بشكل عام إلى "أكيلا دأورو" [59] الذي أقمت فيه نظرًا لموقعه على رصيف الحجْر الصحيّ وإطلالته على البقعة الممتدة من الفنار الصغير إلى القلعة، تلك التي حوَت فاروس القديمة[60] طبقًا لأغلب الرحالة. علمت في المساء حين كنت على وشك العودة لفندقي بصدور تعليمات مفيدة، لكنها شاقة أحيانًا تجبر كل من يخرج بعد حلول الظلام على حمل مصباح، أما الأفراد الذين لن يحتاطوا لهذا الأمر فسيصبحون عرضة للقبض عليهم بواسطة حرس الدرك ثم احتجازهم في المخفر حتى صباح اليوم التالي. من أجل ذلك وجّه القنصل الأمريكي الذي تناولنا العشاء في منزله واحدًا من خدمه العرب لمرافقتي إلى الفندق وهو يحمل مصباحًا. كان الوقت متأخرًا ولا يوجد في الشوارع سوى ثلة من الأفراد. تقدمني العربي في صمت وهو لا يدري مكان إقامتي ومن ثم اصطحبني إلى الفندق الخطأ. كان الأمر مربكًا فالرجل لا يعرف أي لغة أوروبية وأنا لا أستطيع التحدث بالعربية. وقفنا بلا حراك في الشارع ينظر كلانا إلى الآخر. القلة القليلة من الأفراد الذين مروا علينا كانوا من أهل البلد وليس لديهم دراية بأي لغة عدا لغتهم الأم، ومن ثم عاجزين عن بذل العون لشخص غريب وجد نفسه في هذه الورطة. يبدو أنّ مرافقي - بعد أنْ قلب الأمر في رأسه لبعض الوقت

---

[57] Change Alley في لندن.

[58] Mr. John Gliddon (المؤلف).

[59] Aquila d' Oro، وتعني "النسر الذهبي" بالإيطالية.

[60] رأى قيصر الإسكندرية في أوج حالتها، ومن ثم وصف الفنار والجزيرة بقوله: "أخذ فاروس وهو فنار هائل الارتفاع، عجيب البناء، اسمه من جزيرة تقع مقابل ميناء الإسكندرية مشكلة الميناء. يبلغ الجانب المرتفع منها 800 خطوة ويحوي ركامًا غمره البحر. أقيمت عليه منازل المصريين مشكلة قرية في حجم بلدة تمتد عبر ممر ضيق يخدم كجسر. الميناء ضيق بالنسبة للسفن، وحين تهب العواصف تبطئ من سرعتها، لكن بعضها يشحط بسبب الرعونة، ومن ثم يتم قرصنتها ونهبها. لا يستطيع أحد دخول فاروس دون موافقة أصحابها. De Bello Civili, iii, 112 ." (المؤلف).

– تحمس بعض الشيء حين دقق في لحيتي الطويلة السوداء فنطق سائلًا "جريكو؟" فهززت رأسي قائلًا "فرنجة" ومجاوبًا بالإثبات بكل اللغات التي أعرفها، لكن هذا لم يفدنا بتاتًا. كان الرجل أبعد ما يكون عن معرفة مقصدي المُرتجى. أخيرًا تذكرت أنّ القنصل "التوسكاني" يقيم في "النسر الذهبي". كررت اسم هذه الشخصية المهمة فاستدار العربي لنكتشف أنّ الفندق المجهول على بعد خمس خطوات من محل وقوفنا.

3- استيقظت عقب الفجر مباشرة على طقطقة مميزة لطائر لقلاق تحت نافذتي مختلطة بأصوات العرب الزاعقة وصياح الديوك تُنبئ هنا – كما في أوروبا – إلى انبلاج الصباح، لكنها تنطلق بلا مبالاة في جميع التوقيتات. تفتح نافذة غرفتي على الميناء القديم. على اليسار استمتعت برؤية الجزيرة التي انتصب عليها فنار "بطليموس سوتر"، وعلى اليمين القلعة الجديدة التي تتحكم في مدخل الميناء. توجد سلسلة من الصخور مغمورة في الماء في منطقة واطئة تمتد لمسافة معتبرة في البحر وتتكسر دومًا عندها الأمواج مخلفة رذاذًا وزبدًا. تتواجد صخور أخرى غير الأولى عند مدخل البوغاز وتناوئ حركة الأمواج، لذا تغطيها على الدوام رغوة بيضاء تُشبه الثلج. وتمشيًا مع ما دأب عليه الرحالة قمت في هذا اليوم بحلق شعري ولبست الطربوش، وهو قبعة أنيقة حمراء تتدلى منها شرابة حريرية زرقاء حلت محل العمامة في مصر تقريبًا بشكل عام. [61] لكي يحمي المرء نفسه من حرارة الشمس يتم استهلاك وبلي بطانتين لهذه الطرابيش. مع احتدام موسم الصيف أو التحرك جنوبًا يُوضع منديل سميك تحت الطربوش. وبالرغم من أنّ إبقاء الشعر قصيرًا بصفة دائمة تتسبب كل هذه الطبقات من أغطية الرأس في تسخينه بشكل متزايد، ومن المحتمل أنها تُسهم أكثر من أي سبب آخر في تحول شعر المصريين إلى اللون الرمادي في مرحلة الشباب. إنّ تأثير الطقس [62] على الشعر لهو أمر جدير بالملاحظة. بدأت لحيتي التي كانت مستوية وناعمة كالحرير في أوروبا مباشرة

---

[61] على أنه يتعين اعتبار الطربوش استنباطً ا غير محكم بشكل كبير فبجانب أنّ الجبهة تكون معرضة بالكامل إلى الشمس الحارقة فتتقرح وتتجعد تعاني العينان بشدة من وهج الضوء بحيث تُصاب بالتهابات بعد مرور عدة أيام من الرحلة. يمكن للقبعات ذات الحواف العريضة – إذا تمكن الباشا من فرضها – حماية المصريين جزئيّا من التحول إلى سلالة السيكلوبيان اليونانية ذات العيون الواحدة. (المؤلف).

[62] اعتبر "فولني" Volney الإسكندرية جزءًا من الصحراء الليبية أكثر من كونها قطعة من مصر على أساس أنه لا تصلها مياه النيل أو طميه، وهذه فكرة سخيفة إلا إذا اعتبرنا أنّ الأهرامات وقلعة القاهرة وتماثيل الرامسيوم ومقابر الملوك وهلمّ جرًّا ليست في مصر لأنّ هذه الأشياء تقع خارج حدود الأرض المنزرعة وفيضان النيل. (المؤلف)

عقب وصولي الإسكندرية تتجعد وتتموج وتحتدّ. قبيل وصولي أسوان كانت لحيتي تُشبه شعر الحصان في ملمسها وأخذت تلتفّ مكونة حلقات صغيرة حول الذقن. بلا ريب يُعزى ذلك بشكل أساسي إلى الهواء شديد الجفاف الذي عمل داخليًا على مدار آلاف السنين على تغيير شعر الزنوج إلى ما يشبه الصوف الخشن.

4- من عادة الأوربيين في الإسكندرية تناوُل الوجبة الرئيسية بحلول الظهيرة تقريبًا، ثم يأخذون قيلولة بشكل عام على منوال الشرقيين، بيد أني وجدت شخصًا أو اثنين يفضلان الركوب والانطلاق نحو الأطلال. باشر السيد "ويت" وهو جار في "أكيلا" إرشادي في الوقت الراهن. ركبنا دوابنا في باكورة الظهيرة واجتزنا الحي الأوروبي ثم تابعنا باتجاه جزء من المدينة القديمة يُفترض أنْ يقع فيه "السرابيوم". إنّ أطلال الإسكندرية هي خرائب بحق، وبابل نفسها التي ضارعتها يومًا في العظمة لا يمكن القول إنها خلفت آثارًا أقل في بقائها وبهائها. لا تبصر شيئًا وراء ضواحي المدينة الجديدة قريبًا وبعيدًا من البطحاء سوى أكوام هائلة من الركام والرمال، ومن المرجح أنها تُخفي تحتها أساسات أو أجزاء من الصروح العتيقة. وهنا وهناك حيث يباشر عمال الباشا الحفر [63] بين تلال الأحجار يتم بالفعل كشف النقاب عن قواعد لمبانٍ يونانية ورومانية متنوعة شُيدّت بالأحجار أو الطوب مع وجود ممرات مقنطرة وقرائن من الآبار القديمة وقطع من الأساطين أو ربما أعمدة كاملة من الجرانيت الأحمر الممتقع مطروحة على الأرض أو مدفونة لنصفها في الرمال. لو قُدّر لكل هذه الأكوام الضخمة من النفايات أنْ تُزاح فربما يتم إماطة اللثام عن منازل خاصة أقل في تماسكها وتمامها قليلًا من منازل مدينة "بومبى". [64] لكن الخطة التي يتبعها الباشا حاليًا قد لا تؤدي إلى أي نتائج أخرى عدا الدمار الشامل لكل الخرائب القديمة التي أبقاها الزمن. في عملية الحفر العشوائي إذا عثر العرب على سور أو قنطرة أو رصيف فإنهم يحطمونه ويأخذون الحجارة دون محاولة التأكد من وجود بقية للصرح الذي تنتمي له هذه الأحجار.

---

[63] المقصود الحفر في ترعة المحمودية.

[64] Pompeii، مدينة إيطالية.

(1835)

أحداث السفر إلى مصر والبتراء والأرض المقدسة – مواطن أمريكي

INCIDENTS OF TRAVEL

IN

EGYPT, ARABIA PETRÆA,

AND

THE HOLY LAND.

BY AN AMERICAN.

WITH A MAP AND ENGRAVINGS.

TENTH EDITION, WITH ADDITIONS.

IN TWO VOLUMES.
VOL. I.

NEW-YORK:
HARPER & BROTHERS, 82 CLIFF-STREET.

1851.

الفصل الأول

لَزِمتُ سطح التوجيه بسفينة إنجليزية ذات صاريتين في ظهيرة أحد أيام شهر ديسمبر لعام 1835. مضت خمسة أيام منذ أنْ غادرنا مالطا. في يدي المنظار المعظم أتشوف بجد واجتهاد إلى بر مصر الذي لم يسبق للربان الرسو فيه. ظللنا لعدة ساعات نبحر بمحاذاة ساحل البربر الوَطِيء ، وأخبرتنا خريطتنا وبوصلتنا أننا لا نبعد كثيرًا عن مدينة الإسكندرية المنخفضة. أرخى الليل سدوله دون أنْ نراها. لم تعُدّ فاروس القديمة، منارة بطليموس، عجيبة الدنيا الثامنة، [65] ترسل ضوءها بعيدًا إلى عرض البحر ليهتدي به الملاح المنهك. انبلج الصباح لنجد أنفسنا في مقابل المدينة مباشرة: عمليات الشحن والتفريغ في الميناء الخارجي وأسطول الباشا المجهز بالرجال والرابض تحت جدران الحرملك الذي أخذني للماضي وأعاد لمخيلتي أيام الغازي المقدوني وكليوباترا والبطالسة. اجتزنا الممر الصعب والخطير

[65] احتل الفنار المرتبة السابعة في ترتيب العجائب، ويبدو أن الكاتب يريد أن يقول إنه لن يأتي بعده عجيبة تناظره، ومن ثم أعطاه أيضًا المرتبة الثامنة.

بتؤدة وبطء دون عون من المرشدين لأنه لم يظهر أي منهم ليأخذ بناصيتنا. يستحق الملاحظة حقًا أحد الآثار التاريخية المصرية التي يُشار إليها بالفخر والبنان، ألا وهو عمود "بومباي" الذي يحتفظ بشهرته العريضة حتى الآن بعد مضي ألف عام ونيف كنقطة إشارية تُرشد البحارة إلى العاصمة المتهدمة. ما إنْ عبرنا آخر سلسلة من الصخور حتى خرج لملاقاتنا المرشدون بوجوههم السمراء وعمائمهم وملابسهم الفضفاضة تخفق في الريح ومركبهم الصغير بشراعه المثلث، وكل هذا أضفى على قدومهم ضراوة زاد من حدّتها صخبهم وجلبتهم واضطرابهم وهم يحاولون محاذاة السفينة. حين فشلوا في محاولتهم الأولى لم يقدّم القبطان لهم أي عون، بل ورفض أنْ يسمح لهم باعتلاء السطح حين عادوا صوْبنا من جديد لأنه حين بلغنا مالطا مؤخرًا وصلت أخبار غير سارة بتفشي الطاعون، ومِن ثم لم يشأ الرجل المجازفة حتى تتاح له الفرصة للتشاور مع وكيله البحري. كان خادمي الشخص الوحيد على ظهر السفينة الذي بإمكانه التحدث بالعربية. أخبر العرب الهمج الجامحين أنْ يتشبثوا بمؤخرة السفينة، ومِن ثم قطرنا مرشدونا إلى داخل الميناء الذي رسونا فيه بحلول الساعة الثامنة تقريبًا. بعد مرور حوالي نصف ساعة كنت على الشاطئ، وبمجرد أن نزلته، زال عني توهم المنظر البعيد تمامًا كما حدث لي في القسطنطينية من قبل. حقًّا وقطعًا من الصعب على أي شخص ينزل خرائب وأطلال الإسكندرية ويعيش وسط مفردات هذا العالم أنْ يحلم بمجد مصر الزائل. لنبقى في الحاضر بأشيائه أولًا وقبل كل شيء فبين الحمير السائرة والجِمال المُحمّلة والعرب شبه العُراة بعيونهم الرمداء وجحافل الذباب والكلاب النابحة والرعب من الطاعون يفكر الشخص في سلامة حركته أكثر من تفكيره في الأهرامات. تلمست طريقي لمسافة طويلة من البازارات حتى الحي الأوروبي، وفيه نسيت تمامًا سببَ وجودي هنا، وأنه هناك أشياء مثل المسلات والأهرامات والمعابد المُهدّمة. اشتعلت الفطنة التي ورثتها من موطني الأصلي، وأبصرت بعين خبيرة بعض الشيء في مثل هذه الأمور في بلادي وجود تحسينات على المشهد: شارع كامل من الحوانيت الزاخرة بالبضائع الأوروبية يديرها أوروبيون، صفوف من المباني الحسنة، منازل جميلة على طراز الريف الإنجليزي، حدائق تمتد على رمال جدباء. يُظهر كل هذا أنّ الغرباء القادمين من أرضٍ كانت يومًا بربرية يردّون الجميل الذي يدين به العالم إلى أم الفنون وينتشلونها من الخراب الذي غاصت فيه بسبب سنين من الفوضى وسوء الحكم.

كانت زيارتي الأولى إلى السيد "جليدون"، القنصل الأمريكي واستقبلني الرجل على نحو جعلني أشعر بالفعل أنني لست وحيدًا في أرض غريبة. بينما كنت في منزله حضر رجل إنجليزي يتاجر في الإسكندرية. عقد هذا السيد النية على التوجّه للقاهرة في المساء. تعارفنا بفضل السيد "جليدون". حين أفصحت عن نيتي بالتوجّه أيضًا صوْب القاهرة عرض السيد "ت" الصحبة في التوّ قائلًا إنه دبّر قاربًا، وأنّ كل شيء مُعدٌّ وعلى أهبة الاستعداد، وأنّ هذا يجنبني متاعب عمل الترتيبات فلا يتعين عليّ سوى المجيء إلى القارب مع غروب الشمس. بالرغم أنّ الوقت كان ضيقًا لم أتردد في قبول العرض فبجانب معاناة التجهيزات هناك أيضًا الداء الذي أمسى في كل فم. لم أندم على استغلال هذه الفرصة الآنية للهروب من المدينة فالحقيقة التي تأتي قبل أي شيء آخر هي أنّ "الوباء يسلك في الدُّجى والهلاك يفسد في الظهيرة."[66] لم يكن أمامي سوى وقت قليل فامتطيتُ على الفور حمارًا قصيرًا، ذاك الحيوان الذي نجهله في بلادي وحتى في أوروبا. صحبني خادمي وساسنا فتى عربي ذو عين رمداء. انطلقنا ركضًا حتى نمر بأطلال الإسكندرية على عجل. يقع الحي الأوروبي في أقصى المدينة، وبعد الركوب لفترة ليست طويلة وجدنا أنفسنا في عالم آخر. لم أشعر قبل الآن أني في مصر حين مررنا برمال الضواحي الساخنة تحت شمس حارقة. في الواقع أيضًا لم أشعر أني بين أطلال واحدة من أعظم مدن الدنيا إلا عندما وقفت أمام قاعدة عمود "بومباي". اجتزنا أرتالًا من الأكواخ العربية صدمتُ وجهي بمظاهر الفقر والبؤس والجوع والعُري، ثم بلغنا العمود الذي أنبأتني لمحة واحدة لارتفاعه المهيب أنّ مَن اضطلع بهذا العمل عن حق هم رجال آخرون في أزمنة أخرى. ينتصب العمود المفرد على رابية متوسطة ويرتفع لتسعين قدمًا، بينما يبلغ قطره عشرة أقدام وكذلك طول تاجه "الكورنثي". وعدا جَماله المميّز كنُصب تذكاري هو أيضًا أثرٌ شيق حيث يحدد منتصف المدينة القديمة. يقف العمود خارج الأسوار الحالية. ويمكنك من قاعدته رؤية الصحراء الجدباء الممتدة من شاطئ المتوسط حتى بحيرة مريوط، وكلاهما يمثل حدود الإسكندرية تمامًا كما في الماضي.

في يوم من الأيام حوت هذه المساحة المحصورة التي تتناوب فيها الأغوار والكثبان الرملية المنازل والقصور وربما أيضًا النُصب التي تضارع في جمالها هذه القاعدة

[66] مزامير الملك داوود، 91:6.

التي أقف عليها. يمر الغريب بدابته عبر هذا اليباب فلا يرى إلا أعمدة متكسرة وأسوارًا متداعية وقطعًا من الجرانيت والرّخام تنتأ من مثواها الرملي كما لو كانت تجاهد من أجل البعث. يرى الناظر في ناحية هوّة فاغرة يكدح فيها أربعون أو خمسون عربيًّا عليهم من الثياب القليل، ينبشون وينقبون لاستخراج عمود طويل غطته الرمال لعصور مديدة، ويعاين في ناحية أخرى منزلًا منقورًا بحوائطه وغرفه تقريبًا سليمة كما تركها المصريون القدماء. يسير بمركوبه بين ثنايا جبّانات ضخمة، رمس مدينة خربة مقفرة، ومع كل خطوة تحدّق فيه مِن أضرحتها شواهد الآثار.
مررت راكبًا في تؤدة عبر الخرائب على الآبار الشهيرة التي حُفرت ورُتِبت في زمن الإسكندر مع تأسيس المدينة، ومنها روى أجيال وراء أجيال عطشهم. انتهيت عند إبرة كليوباترا، وهي مسلة جميلة ارتفاعها ستون قدمًا. تضم المسلة نقوشًا هيروغليفية غامضة تتحدى في تهكم علماء وحكماء عصرنا. كان الزمن رحيمًا بها فأبقى النقوش واضحة على جانب منها كما لو كان النحّات قد فرغ منها لتوّه، لكنّ ريح "الصبا"[67] المفزعة، التي تهبّ من الصحراء، قد طمستها على جانب آخر عبر ألفي سنة ويزيد، بل وأبلت الجرانيت الذي يستحيل اختراقه تقريبًا. ترقد بجانبها مسلة شقيقة، في نفس حجمها وعمرها تقريبًا، ونصفها مدفون في الرمال. يُقال إنّ الإنجليز أحضروها من الصعيد منذ سنوات عديدة خلت بغرض نقلها إلى انجلترا، لكنّ الباشا حال دون ذلك، ومنذ ذاك الوقت تستلقي المسلة في مهابة بهوّة عميقة بفعل التنقيبات التي تجري حولها.
في السادسة كنت بصحبة صاحبي ممتطيًا حماري أحثّه على السير بأقصى درجة حتى أخرج من المدينة قبل غلق البوابات. وأتمنى على القارئ أنْ يحلني من الالتزام بوضع كتيب عن الإسكندرية حين يعلم أني غادرتها إلى القاهرة عقب هبوط الظلام في نفس يوم وصولي.

[67] ريح جنوبية شرقية مروّعة.

(1836)

"ملاحظات رحالة ينشد الاستشفاء عبر إيطاليا ومصر واليونان وتركيا، صعودًا مع الدانوب وهبوطًا مع الراين " – وليم فوليرتن كمنج

NOTES OF A WANDERER,

IN SEARCH OF HEALTH,

THROUGH

ITALY, EGYPT, GREECE, TURKEY,

UP THE DANUBE, AND DOWN THE RHINE.

BY

W. F. CUMMING, M. D.

LATE BENGAL MEDICAL ESTABLISHMENT; MEMBER OF THE ROYAL PHYSICAL SOCIETY OF EDINBURGH; ASSOCIATE MEMBER OF THE EGYPTIAN SOCIETY OF CAIRO; AND CORRESPONDING MEMBER OF THE MEDICAL SOCIETY OF ATHENS.

"O beata Sanitas, te præsenti amœnum
Ver floret gratiis—absque te nemo beatus!"

IN TWO VOLUMES.

VOL. I.

LONDON,
SAUNDERS AND OTLEY, CONDUIT STREET:
BLACKWOOD AND SONS, EDINBURGH.
1839.

من "الجزء الأول"

مصر – الإسكندرية، في 31 أكتوبر: أصعدنا مرشد الميناء إلى ظهر السفينة قرابة الساعة السابعة والنصف صباحًا، وألقينا المرساة في التاسعة. اختفى الطاعون نهائيًا من المدينة، لكنّ الجائحة المفجعة ما تزال تلقي بظلالها الوخيمة على أطقم بعض السفن القادمة من القسطنطينية والموجودة الآن في الحجْر الصحي. إنّ منظر الإسكندرية من الميناء فاتنٌ وينبض بالحياة بما فيه الكفاية، لكن لا يُرى أي شكل من أشكال الخضرة، فالشواطئ الواطئة ما هي إلا مساحات من الرمال ليس بها شجرة واحدة تبدل مشهد الجدب الكالح. أبصرت خمسة أو ستة من العسكر المصريين في زيّهم المتأنق على متن قطعة بحرية رابضة في الميناء، ورأيت على أشرعتها لأول مرة الهلال والنجمة يرفرفان مع النسيم. أبرز الشواهد والقرائن على الساحل هي عمود "بومباي" وإحدى مسلات كليوباترا والحجر الصحي. عقب تناول الفطور غادرت السفينة "أوجيني" بمعيّة القبطان والركاب. في العاشرة وطئت ثرى مصر،

ذلك البلد الذي ارتبط اسمه كثيرًا بأمور مقدسة وأخرى آثمة مدنسة تمتد من زمن يعقوب مرورًا بموسى ووصولًا لنابليون و"أبِركرومبي". [68] بكل تأكيد تكون النظرة الأولى بالنسبة لشخص وصل لتوّه إلى ساحل شرقي مذهلة: عدد من النسوة العربيات يحجبن وجوههنّ بعناية ويحملن أثقالًا فوق رؤوسهن وأرتالًا ممتدة من الجِمال مُحمّلة بقِرب المياه وخلافه تجرجر أطرافها الخرقاء أثناء مسيرها والصبية العراة يعدُون هنا وهناك والأتراك الكسالى يتمددون على راحتهم ويدخنون نرجيلتهم الطويلة وحشود من الحمير مُجهّزة بالبرادع ويلحّ أصحابها علينا بالركوب. كل هذه الأشياء مثيرة بقدْر كافٍ وتستحق المشاهدة مرة في العمر، لكنْ بالنسبة لي لم يكن المشهد جديدًا. شِقّ المدينة الذي يقطنه أهل البلد الذي اجتزناه برمته في طريقنا للحي الأوروبي عبارة عن أكوام متداعية من الأكواخ ومُترع بكافة أنواع القذارة المتناثرة في الشوارع الضيقة. الحي الأوروبي عبارة عن مربع من المباني الأنيقة جدًّا التي يسكنها قناصلة الأمم المختلفة والتجار الأجانب. افترقت في هذا الموضع عن رفقاء السفر وقصدت "أكيلا دأورو"، وهو أفضل فندق في المدينة وفي ظني الوحيد بها بالفعل. إنّ تسميته يشوبها خطأ يقينًا لأنه يحوي القليل جدًّا من الذهب سواء في الداخل أو في الخارج. هواؤه أشبه بهواء الثكنات الصحراوية المهجورة. بالرغم من ذلك كنت ممتنًّا لعثوري على مأوى في أي مكان. لم تتوفر سوى غرفة صغيرة في الطابق الأعلى تحوي فِراشًا ومنضدة ومقعدًا. هذه الغرفة هي الآن سكني مقابل نصف دولار لليلة. عقب تناول فطور سيّئ قُدّم لي في قاعة الطعام الطويلة بحوائطها الداكنة العارية من الملصقات أمضيت ساعتين أترجل في المدينة. الإسكندرية مكان بائس، وسكانها البيض من أبغض ما يكون إذ إنهم يأتلفون من دول منوعة تطل على المتوسط. أشعر بالعوز إلى التعرف على شخص إنجليزي مقيم هنا فربما دلني على طريقة أتدبر بها الأمور إلى حين تمكني من اكتساب خبرة العيش في هذا البلد.

تناولت وجبة العشاء في السادسة وهي عبارة عن شريحة لحم من الضلع سيئة الطعم، لكنّ زجاجة الخمر اللندنية اللذيذة أدخلت البهجة على نياط قلبي إذ كدت أنسى هنا تقريبًا هذا المشروب المحبب إلى النفس. لم تتجمع مطلقًا هذه الطائفة من الغرباء بألوانهم ومشاربهم المتباينة كما حدث في قاعة الطعام هذا المساء. كنت

---

[68] Ralph Abercromby، قائد عسكري بريطاني قُتل في الإسكندرية عام1801.

الإنجليزي الوحيد بينهم. كان هناك مجموعة من الفرنسيين يضعون زيًّا تركيًّا. أحدهم كان جالسًا قبالتي على الطاولة ولا يرتدي إلا سترة من الصوف خفيفة وقذرة وسروالًا وخفين بلا جوارب! أخذ يلتهم قطع اللحم بنهم وشره كما يفعل التمساح دون أنْ يستخدم أدوات المائدة نهائيًّا من شوكة وسكين. كان هناك جماعة من الطليان أغلبهم ربابنة سفن تجارية شرقية. تبادلت أطراف الحديث مع رجل فرنسي فارع الطول وحسن المظهر، لديه شارب كث ويرتدي زيًّا تركيًّا. يعمل الرجل مدربًا عسكريًّا في جيش الباشا، وكان قد وصل لتوه من "سنار" على بعد ألفي ميل أعلى النيل. الملاحة النيلية بين القاهرة وطيبة – والعهدة هنا على الرجل – ليست آمنة في الوقت الراهن. قال إنه كان ينام كل ليلة ومسدساته محشوّة ومُعمّرة بجانب مهجعه خشية غارات العرب. ربما كان هذا مجرد كلام. لا أملك بندقية ولا مسدسًا ولا أي سلاح أدرأ به عن نفسي، ومِن ثم سوف أكون ضحية سهلة في يد اللصوص. المحادثة التالية لي كانت طويلة مع يهودي من "هانوفر" يتحدث الإنجليزية بشكل طيب، وتقريبًا جميع اللغات الأوروبية. سافر بمفرده في شتى أرجاء العالم، ونشر كتابًا عن جولاته في الهند. حين سألت النادل عن السيد صاحب اللحية الطويلة أفاد أنه لا يعرف بالضبط سوى أنه مكث مقيدًا بالسلاسل من رقبته في قبو لمدة خمسين يومًا في مكان على ساحل البحر الأحمر يُعرف بـ "ينبع" بتهمة تسميم أحد خدامه. تم اقتياده بعد ذلك سيرًا على الأقدام في حراسة عسكرية إلى القاهرة حيث حُرّر بأوامر من الباشا. من المحتمل أنْ أستقي القصة منه شخصيًّا إذا قُدر لنا اللقاء ثانية. تُعتبر اللغة الإيطالية الأكثر استخدامًا هنا بين الأوروبيين وملاك الحانات والندلاء لانتمائهم جميعًا إلى هذه الأمة. وجدت المعرفة السطحية بهذه اللغة، تلك التي اكتسبتها الصيف الفائت خلال جولتي مع "س" مفيدة للغاية. كان النهار طويلًا ومملًّا، لكنّ المساء مر لطيفًا بفضل المحادثة مع الفرنسي الذي يرتدي ثيابًا تركية واليهودي، صاحب جرعات السّم. تشير الساعة الآن إلى العاشرة مساءً ودرجة الحرارة 76 فهرنهايت. البعوض يلدغ بلا رحمة. أويت إلى سريري على تهويدة صوت الأمواج الرقيقة وهي تتكسر على الشاطئ على بعد ثلاث ياردت من حائط الفندق. وهكذا أفل شهر أكتوبر واليوم الأول لي في بر مصر.

الأول من نوفمبر: امتطيت حمارًا قبل الإفطار وانطلقت إلى حمام بلدي يعدو خلفي صبي عربي مثلما حدث في "ماديرا". [69] أخذ الصبي يزعق في الحمار مما جعله يخبّ بخطى مهرولة. أخذت حمّامًا ممتازًا بمياه سُحبت من النيل. كان الحمّام بمثابة رفاهية بعد الرحلة البحرية. يبعد النيل عن الإسكندرية مسافة ثمانية وأربعين ميلًا، لكن تتفرع منه قناة تشق طريقها صوب المدينة وتمدها بما يكفيها ويزيد من المياه السائغة. بعد الإفطار توجهت لزيارة القنصل، السيد "سلون" الذي استقبلني بأدب ووعد بأنْ يهتم بأمر كتبي حال وصولها وكذا أي مراسلات تأتيني بعنايته. كانت زيارتي التالية إلى عمود "بومباي" أو "سيفيروس" [70] كما يحلو للبعض تسميته الذي ضربت شهرته الآفاق. يرتفع العمود على ربوة رملية خفيفة، ويبعد عن باب رشيد قرابة ربع ميل. يتميز هذا العمود بجمال طاغ. يتكون من قطعة واحدة من الجرانيت ذي اللون الوردي، ويرتفع لأربعة وستين قدمًا في الهواء، بينما يبلغ قطره ثمانية أقدام وأربع بوصات. يصل ارتفاع القاعدة إلى عشرة أقدام، وهي أيضًا من الجرانيت، وينتهي العمود بتاج يمكن وصفه بأنه "كورنثي". ارتقى العمودَ العديدُ من البحارة كما تُنبئ أسماء السفن المكتوبة بأحرف سوداء كبيرة على ارتفاعات متنوعة منه. لاحظت في المنتصف وجود نقش للكلمات التالية "هـ. م. س، [71] جلاسكو، مارس 1827"، وعلى الحلية أعلى العمود نجد "جورج كاننج" [72] مكتوبة بحروف واضحة. [73] لا بد وأنّ البحارة وجدوا بعض الصعوبة في تسلق العمود لأنّ سطحه أملس كالرخام المشطوف. لم أستطع تبين أي نقوش قديمة أو بقايا لها على أي جزء من العمود. لم أر خلال رحلاتي كلها شيئًا يُشبه عمود "بومباي" أو يجمع بين الصلابة والجَمال مثل هذا الأثر. في طريقي عرجت على مزرعة للنخيل الذي طابت ثماره في ذاك الوقت. يتدلى من كل نخلة خمسة إلى اثني عشر عذوقًا تحملها جريدة صفراء يتفرع منها عدد لا محدود من الشماريخ التي يلتف حولها البلح.
بعض السباطات كانت هائلة الحجم وتزن من عشرين إلى أربعين رطلًا على

---

[69] Madeira، مدينة في البرتغال.

[70] Severus.

[71] H. M. S. Her Majesty's Ship، من سفن جلالة الملكة.

[72] George Canning.

[73] وصفت السيدة "رومر" هذا العمل بالبربري. Mrs. Romer,A Pilgrimage to the Temples and Tombs of Egypt, Nubia and Palestine, Richard Bentley, London, 1846, P. 23.، كما ندد "جيمس لاريد" بهذا السلوك James Larid, Journal of Tour in Egypt, Palestine, Syria and Greece, Patterson C. Dolman, London, 1852, P. 33.

الأرجح. أعطيت قرشًا للبستاني الذي أصعد شابًا ليقطف لي بعض التمر. تسلق الشاب بفضل حبل طوّق خصره والشجرة معًا. كان جسمه معتدلًا وقدماه متشبثة بجذع النخلة. عن طريق جر الحبل لأعلى بيديه ارتقى بسهولة كبيرة، وبقي هناك على راحته كما بدا للناظر حتى جمع حفنة أو اثنتين من الرطب. لا يمكن إخضاع شجرة ذات جذع أملس لهذا الشكل من التسلق لأنّ طبيعة كرانيف اللحاء تمنع الحبل من الانزلاق. هناك شيء يقر العين في منظر تجمعات النخيل وعلى وجه الخصوص في الصحراوات المحيطة بالإسكندرية. عن حق الشيء الأخضر الوحيد الذي وقعت عيناي عليه منذ وصولي هو سعف هذه الأشجار. التمور شهية وممتعة، لكنها معسولة بشكل زائد. في طريق عودتي للفندق توجهت إلى مبنى ضخم ذي سقف مسطح يُستخدم كزريبة للبقر والحمير التي رُبطت وصُفّت بأعداد كبيرة. أفخاذ عدد كبير من الحمير البائسة كانت مسحوجة جدًّا مما دفعها إلى الجنون بسبب الذباب. سألت الصبي العربي بمعيتي عن سبب غياب الجِمال؟ أجاب باقتضاب: "تعمل نهارًا وتهجع ليلًا". قابلنا بعد ذلك جنازة. حُملت الجثة على أكتاف الرجال الذين راحوا يرددون جَنّازًا على روح الميت. تبعت الموكب ثلاثُ ندّابات مستأجَرات على الأرجح أخذن يولولِن وهن يلوّحن بمناديلهن فوق رؤوسهن. تقع القرافة بجانب عمود "بومباي". وددت لو تبعت النعش لأرى كيف تُسجّى الجثة في التراب، لكنّ الصبيّ أوضح لي أنّ وجودي قد يُعتبر إساءة. يتكلف تأجير حمار طيلة النهار شلنًا. الجو جد رائع، ولم أكن لأنشد طقسًا أبدع من ذلك، لكنّ التوقعات تشير إلى بدء هطول الأمطار بحلول منتصف الشهر الجاري، ومِن ثم فلديّ رغبة أنْ أبحر إلى القاهرة في أقرب وقت ممكن.

زارني السيد "مير" ذاك المساء. كان أخوه قد ذكر اسمي عنده في خطاب أرسله له. بدا الرجل الأكثر طيبة وعطفًا بين مَن عرفت مِن الأسكتلنديين. شملني بمساعيه الحميدة خلال فترة وجودي في الإسكندرية.

4 نوفمبر: تناولت وجبة الغداء في الثاني من الشهر مع السيد "مير" في الساعة الثانية عشرة كما استقرت عليه العادة، وهذا أمر يناسبني أكثر من الساعات المتأخرة. هبّت ريح شديدة طيلة اليوم وصاحبها برقٌ ورعد وزخّات هائلة من الأمطار. تمنيت كثيرًا لو كنت في القاهرة إذ يبدو أنّ طقس الدلتا البديع قد تبدل. كان يتعيّن عليّ أنْ أنطلق قبل هذا الأوان، لكنّ الباشا استحوذ على جميع القوارب لنقل

بطانته وحاشيته إلى القاهرة، ناهيك عن حلول الموسم الذي يبدأ فيه الحجيج رحلتهم إلى مكة الأمر الذي يترتب عليه تضاعف الصعوبة في تدبير الانتقالات. لا شيء يُشبه الإسكندرية في جدبها وقفرها وقحطها، فأينما تأخذك عينك (ولعمرك مسافة شاسعة نظرًا لانبساط البلدة) لا ترى إلا صحراء قاحلة. لا بد وأنّ الإسكندر كان سياسيًّا بعيد النظر ليتخيل فكرة مدينة كبيرة تترعرع وتزدهر في هذه الفلاة.
توجهت اليوم لمشاهدة إبرتي كليوباترا: واحدة واقفة والأخرى منبطحة ونصفها مدفون في الرمال. الأولى عبارة عن مسلة أنيقة نُحتت من قطعة واحدة من الجرانيت ربما تصل إلى سبعة أقدام مربعة. ترتفع المسلة لمسافة خمسين قدمًا، وتحوي نقوشًا هيروغليفية. تحدثت باستفاضة مع "شيلوك" [74] العجوز الذي زارني أمس لمدة ساعتين وسرد لي تاريخ أسره ومآسيه. لأنه من "هانوفر" فقد ادّعى تمتعه بالحماية البريطانية، وقضيته الآن في يد القنصل البريطاني الذي يسعى للحصول على تعويض من الباشا عن الإصابات التي لحقت به فضلًا عن ضياع ممتلكاته. مسكين هذا اليهودي! أتمنى له النجاح، ولعله يردد من "شيلوك": "المعاناة هي وسم أسباطنا كلها." يُدعى الرجل "هيلالي"، ويفتخر بأنه من نسل داوود.
اضطررت إلى تجهيز بعض المؤن من الطعام وأدوات المائدة واستعملت خادمًا عربيًّا يعرف بعض الكلمات الإيطالية ليقوم بالطهي والترجمة خلال رحلتي النيلية. التجوال في مصر مثل الهند تمامًا يتعين على الرحالة خلاله أنْ يحملوا معهم كافة الأشياء. لو خطر هذا الأمر ببالي وقتها لجلبت معي مقصفًا من أوروبا. إنّ أدوات مثل الشوكة وكذا الأطباق وخلافه عزيزة هنا، فضلًا عن أنه ليس من اليسير الحصول عليها. أخبرني اليهودي أنّ السفر عبر النيل محفوفٌ بالمخاطر، وأنه لا يقوم الإنسان الحريص بهذه الرحلة دون سلاح، وأنه لم يحمل هو نفسه مسدساتٍ وحسب، بل بندقية بماسورتين وسيفًا. الإعداد للحرب أوثق وسيلة لحفظ السلام كما يقولون. وعملًا بهذا المبدأ قررت أنا أيضًا شراء بندقية.

[74] يعود الاسم لشخصية اليهودي في مسرحية شكسبير "تاجر البندقية".

(1839)

"ملاحظات على الرحلة البرية عبر فرنسا ومصر وصولًا لبومباي" – إيما روبرتس

NOTES
OF
AN OVERLAND JOURNEY
THROUGH
FRANCE AND EGYPT
TO
BOMBAY.

BY THE LATE
MISS EMMA ROBERTS.

WITH A MEMOIR.

LONDON:
WM. H. ALLEN & Co., 7, LEADENHALL STREET.
1841.

من "الفصل الرابع"

من الإسكندرية إلى بولاق

توجد في الإسكندرية عدّةُ فنادق ممتازة لإقامة الرحالة الأوروبيين. ثمة مَن نصحنا بفندق "ريي" [75] الذي وجدنا فيه سبل الراحة التي ننشدها. الفندق ضخم وأنيق وموقعه جيد في نهاية شارع عريض أو بالأحرى منطقة يقطنها السكان الأوروبيون الأكثر ثراءً، بالإضافة إلى بعض المنازل التي تخصّ قناصل الأمم المختلفة. وهذه الأخيرة هي عادة عبارة عن منازل منفصلة مستقلة أوصافها في شدة الأناقة والجمال، خاصة هذا الذي يواجه ال مُرْتَفع فسوف يكون رائعًا حين يتم الانتهاء من تشييده.

[75] Rey.

جميع المنازل في هذا الحي تتمتع بتماسك البناء، كما أنها فخمة وأسطحها منبسطة. تبدو الأدوار الأرضية منها صالحة لتجارة البضائع أو كمكاتب محلية، بينما تقع الشقق السكنية في الأعلى. للنوافذ شيش خارجي عادة ما يتم طلاؤه باللون الأخضر. يضفي هذا اللون مع الأبيض الناصع الذي تُدهن به الحوائط على المنظر لمحة من التجديد لم أكن أتوقع رؤيتها. في الواقع جاءت دهشتي التي لا يضاهيها شيء حين أبصرت الشارع الذي قد يثير الإعجاب في كثير من العواصم الأوروبية. في وقت قصير سوف يتم تزيينه بنافورة شرعوا في نصبها أثناء زيارتي. وإذا سعى السكان لتشجيره فإنه لن يحتاج أكثر من ذلك ليصبح من أبهى الشوارع الموجودة على هذا النسق. تكمن الصعوبة في زراعة الأشجار في وجود سبخة البحر تحت السطح ببضع بوصات في بعض الأوقات، وفي بعض الأماكن تكون عملية التخضير مستحيلة.

متاخمًا لهذا الجزء العصري من المدينة تقع سلسلة من المباني القديمة والفريدة تُعرف بالعقيلة،[76] وهذه الكلمة مشتقة من كلمة "قلعة" على ما أعتقد. تأتلف هذه المباني من مربع كبير يتم دخوله عن طريق بوّابات موجودة في الجوانب المختلفة. يوجد ممر ترتقي إليه عن طريق بعض درجات من السلالم، ويمتد على مدار المربع مشكلًا رواقًا مقنطرًا. تفتح منازل الأوروبيين فوق هذا الرواق. هذه المنازل كبيرة وفسيحة، لكنّ إطلالتها لا تماثل الحي الجديد، فأسفل الربع قد تجد أي شيء عدا النظافة والنظام. البضائع والماعون بمختلف أنواعها والحمير والخيول والجمال، كل هذا يجعل المكان أشبه بحوش نُزل القوافل الأهلية، ويمكن القول أيضًا إنّ أوروبا تحوي مواضع شبيهة ولها نفس الأوصاف.

تقع خانات وحوانيت الأوروبيين في شارع ضيق تصطفّ الأشجار على جانبيه في نهاية الطريق الواسع الذي عرجنا على ذكره آنفًا. يضم الشارع عدة حانات من الواضح أنه يسكنها من لا يمكنه تحمل تكلفة الإقامة في الفنادق. إحداها على وجه الخصوص مكسوة بورق حائط مبهرج يحاكي "تابلوهات الجوبلان". لم أكن قريبة بالقدر الكافي لأميز رسوماته، لكن مع إضاءة الحانة تترك الألوان والأشكال تأثيرًا مبهجًا بشكل كبير. لاحظت وجود عدد معتبر من دكاكين البقالة التي عادة ما تكون منكشفة بالكامل بحيث يمكنك رؤية محتوياتها. تتمتع هذه المحال بالترتيب والتنظيم،

[76] Okella، ربما قصدت الكاتبة "وكالة"، وفي هذه الحالة ليس للمفردة علاقة بكلمة "قلعة".

وتعرض أصنافها المتنوعة للبيع على امتداد الرفوف الداخلية. لم نقم بأي مشتريات سواء هنا أو في منطقة البازارات التركية التي تزدحم بالناس صباح مساء. ثمة مَن أشار إلى بعض المنازل الجيدة المُقامة على الطراز الأوروبي مفيدًا بملكيتها لرجال أتراك لديهم وظائف مرموقة ودخول كبيرة.

طلبنا تأخير العشاء إلى السابعة حتى يمكننا استغلال الساعات الرطبة من اليوم في التمشية التي لم تتجاوز الحي الأوروبي ومجاوراته. تفكهنا بمشاهدة مَن قابلنا مِن أشكال فريدة من المارة الأوروبيين الذين كان من العسير علينا تحديد مواطن رؤوسهم من ملابسهم. بعضهم كان ممتطيًا الخيول، لكننا لم نر أي نساء في أزياء باهرة. اندفعت مركبتان إنجليزيتان محملتان بأتراك مِن أصحاب الذوات بكثير من التهور الذي يميز عادة القيادة هنا. مر بنا بعض الأعيان مِن أهل البلد يستقلون مركبات فخيمة وهم في نشوة الزهو والتكبر الشرقي. بعد أنْ أضنى الترجل في التراب والرمال كواحلنا بشكل كبير قفلنا إلى الفندق لنجد عشاءً يحوي مجموعة من الأطباق الممتازة ومنها العصافير.

لأنني لم أكن أنتوي بلوغ الإسكندرية بهذه السرعة لم أرسل إشعارًا بوصولي أنا والآنسة "إي"، ومن ثم لم يتم اتخاذ أي استعدادات. بالرغم من ذلك حدانا الأمل في أنْ نجد قاربًا جاهزًا حسب وعد صديق في لندن ذكر إمكانية تزامن وجودنا في مصر مع البريد المغادر "مرسيليا" في الواحد والعشرين من الشهر، لكنّ هذا الإجراء الاحترازي تم تجاهله، والسيد الذي كان مفترضًا أنْ يقوم بتدبير أفضل قارب انشغل بمهامه المرتبطة بوصول الباخرة فلم ننل منه سوى التعبير عن أسفه عن عدم تكريس جُلّ همه لراحتنا. ونظرًا لهذه الظروف الطارئة لجأنا إلى السيد "واجهورن" الذي دفعه حدسه باحتمالية وجود رغبة لديّ للبقاء في الإسكندرية بتجهيز إقامة لاستقبالي في منزله، بيد أنّ الأمور قد أخذت منحى تعذر معه المجازفة، ومِن ثم فقد عقدتُ العزم على المواصلة إلى السويس دون تأخير. وفي ظل هذه الظروف بذل الرجل ما في وسعه وفق ما سمحت طبيعة الحالة فأكد لي أنّ بإمكاني حين أبلغ النيل استعمال قاربه الذي يتمتع بحالة جيدة رغم حجمه الصغير، كما قام بإمدادي بكل ما أحتاج أثناء التنقل. أما السيدة حرمه فقد زكّت لدينا خادمًا راقت لنا طلعته ومِن ثم استأجرناه على الفور خلال الرحلة إلى السويس.

كان بحوزتي خطابات توصية للقنصل العام ولقاطنين آخرين في الإسكندرية زاروني في الفندق. عرض العقيد "كامبيل" الذي أظهر عطفًا واهتمامًا خاصًّا مدّنا بانكشاريّ حكومي ليرافقنا ويحرسنا إلى القاهرة. من جانبنا تلقينا هذا العرض بكثير مِن السرور ورضا النفس، وقد خدمَنا هذا الأمرُ بشكل غير محدود. لم نواجه أي معاناة بخصوص متاعنا فلقد تركنا حقائبنا على متن السفينة في حراسة خادم ذي بشرة سوداء وجدير بالثقة. نزل معنا إلى الشاطئ أحد ضباط السفينة الذي استطاع برعايته المهذبة للركاب لفت النظر إليه. أرسل الضابط إلى السفينة يطلب منقولاتنا. أخذ الرجل مفاتيحنا وصحب الانكشاريّ إلى الجمارك وسرعان ما سعدنا برؤية متاعنا محمّلًا على ظهر جَمل حتى باب الفندق، وكانت الأتعاب وإيجار الجَمل شيئًا لا يُذكر. كان هناك غرفة كبيرة على أحد جانبي البوابة لوضع الحقائب التي لا نرغب في فتحها، وكان بابها مؤمّنًا بقفل جيد. [77] في الحقيقة كانت الترتيبات بالفندق على أفضل ما يكون. تم الاتفاق على عدم هدْر أي وقت متاح للوصول إلى السويس، ومِن ثم قررنا بدء رحلتنا عاجلًا في ظهيرة اليوم التالي وبمجرد انتهائنا من إعداد كافة الأغراض. تم تجهيز الحمير في مطلع النهار لتوصيل المجموعة إلى عمود "بومباي"، وأخذنا بعض الراحة بعد النصَب والإثارة التي مررنا بها. كان الجو دافئًا ولطيفًا على نحو كبير مما يسمح بفتح بعض النوافذ، لكننا استيقظنا مرة أو مرتين خلال الليل على نباح واحد من الكلاب الضالة التي تتواجد بأعداد هائلة في طول مصر وعرضها، أما خلال النهار ومن باب التغيير فلا يعلو صوت في الإسكندرية على رغاء الجمال التي تضاهي أعدادها تقريبًا أعداد الكلاب.

إنّ النقوش المستقرة على عمود "بومباي" جعلت كل مَن يستفسر عنها مُطلِعًا على هذا الأثر الشهير. من الأيسر تخيل المشاعر التي اجتاحتنا ونحن نحدّق فيه مقارنة بوصفها والتعبير عنها. يتمتع العمود بالوقوف على مرتفع كبير عبارة عن أخدود رملي تقع تحته أعدادٌ مهولة من شواهد القبور المتناثرة. تمتد المقابر التركية والعربية حتى قاعدته. لا يُحدد أيًّا منها سوى حجر وكومة من التراب. في بعض المواضع أخضع ورع الأحياء من الأقارب الرمال المعاندة على تقديم دليل على تذكرهم الشفوق للراحلين إذ تخرج أحيانًا نبتة خضراء متفردة وتجاهد لتُظلل مكان الراحة الأخير لهؤلاء الذين ينامون في باطن الثرى. ولا يمكن لشيء أنْ يضيف إلى

[77] ما بات يُعرف الآن بالأمانات.

كآبة المشهد أكثر من الأوراق الذابلة الضئيلة التي تلفّ الأموات الصامتين بشكل يخلع القلوب ويُدميها. هناك شيء غير طبيعي في انسجام الكساء النباتي – على ندرته – مع تربة ابتُليت بجدب مُحال. إنّ الحدائق والبقع الخضراء القليلة التي تجاور الإسكندرية تنتقص من المشهد عِوضًا عن تحسينه والإضافة إليه. بالرغم من أنّ هذه البقع الخضراء المحدودة تُمثل ملاذًا لطيفًا وجميلًا للقادمين إلى المدينة إلا أنها تُقذي العين أكثر مما تُقرّها عندما تُشاهَد مِن بُعد.

لقد تم دراسة آثار مصر بعمق في كافة الدول المسيحية المتنورة. بالرغم من ذلك مازال الأمل يداعب الرحالة غير المتبحرين في إمكانية إلقاء مزيد مِن الضوء عليها، ومِن ثم يتعين على المعاصرين منهم أنْ يستمتعوا بالمشاعر التي تثيرها هذه الآثار في نفوسهم وأنْ يفتشوا في واقعها الحالي عن كل مواطن الإثارة والتشويق فينقلوه إلى يومياتهم كميثاق بينهم وبين هؤلاء الذين يتصفحونها.

جاء لزيارتنا بعد الفطور السيد المصري الذي زاملنا في رحلة القدوم. اصطحب معه صديقًا تعلّم مثله في انجلترا قبل أنْ يحصل على وظيفة جيدة فضلًا عن تعيينه ضابطًا ميدانيًا مِن قِبل الباشا. كان سلوكه طيبًا ومتواضعًا، لكنْ بلا خجل، كما كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة وتكلم معنا بسعادة في كل الموضوعات التي طُرحت. كان صديقنا الأول مازال في مِرْية وقلق مِن أمره بخصوص وجهته القادمة. لقد غادر محمد علي الإسكندرية إلى واحد مِن أماكن إقامته في الريف بذريعة تغيير الجوّ، لكنّ الحقيقة كما قيلت إنه حاول تحاشي احتجاجات هؤلاء الذين طالبوا بسياسة غريبة عن رغباته. لم يستطع الواصل الجديد تقديم نفسه إلى الوزير إلا بعد تجهيز زيّ مصري. حمل الصديق المرافق أخبارًا سارّة لنا بخصوص السفينة الكبيرة الأنيقة التي تضم قمرة خاصة بالسيدات وتتسع لأربعين راكبًا. لقد تم بناء هذه السفينة في الإسكندرية بفضل تجارها وحين يكتمل بناؤها الذي لا يُعوزه سوى الطلاء والتجهيزات سوف تحمل الركاب عبر الترعة إلى قرية العطف وتقطع المسافة بفضل الخيول التي تجرها على الضفتين [78] في نصف يوم. لقد كان متوقعًا وصول قوارب بخارية حديدية من انجلترا للعمل في النيل، ومع توفير وسائل

[78] ليس هناك ما يشير إلى نجاح فكرة القوارب التي تجرها الخيول في مصر مقارنةًبانجلترا وأيرلندا. راجع الرابط التالي لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع:
https://irishwaterways.files.wordpress.com/2014/04/the-mahmoudic3a9-mystery-v04-iwh.pdf

الراحة تلك فإنّ الرحلة سوف تصبح أكثر مواءمة وبهجة مقارنة بالمسافة الحالية التي يستغرق قطعها أيامًا عديدة وتشوبها الصعوبة والافتقار لسبل الراحة.

اكتشفنا أنّ السيدة "واجهورن" قد أمدتني والآنسة "إي" بحشوتين ووسادتين ولحافين من القطن، وكلها جيدة، ناهيك عن إعارتنا مقصفًا أنيقًا. ولأنّ جماعة قد اضطُروا للانفصال عنا بسبب الإقامة المحدودة المتوفرة على متن القوارب فلم نتمكن مِن استعمال المؤن التي بحوزة النسوة الأخريات واللاتي كان من المفترض أنْ نسافر معهن إلا عندما التقينا مِن جديد في الصحراء. وبسبب احتمالية التعرض للتهلكة إذا لم تجد مقصفًا[79] من المؤن يناسب احتياجات المسافر يُباع في الإسكندرية فإنني أنصح بتدبير واحدٍ قبل مغادرة أوروبا مجهّزًا بأغراض ضرورية مثل الطناجر والقدور المعدنية لأنه ليس مِن اليسير حمل وسائل طهي مِن أي نوع آخر.

لم نثقل على أنفسنا بحمل مقعد أو مائدة ورضينا بزوج مِن الكراسي قابلة للطي وليس لها مساند. ضمت المؤن الخاصة بنا الشاي والقهوة والخمر والشمع (استخدمنا مِشكاة زجاجية بداخلها الشموع) وطيورًا وخبزًا وفاكهة وحليبًا وبيضًا وزبدًا وزوجًا من الطيور المشوية وكذلك قطعة لحم معدّة لوجبتنا الأولى. حملنا معنا أيضًا بعض الزجاجات التي تحوي ماءً مُنقى. وُضع متاع المجموعة على ظهور ثلاثة جِمال وحمار. كان موكبنا مثيرًا للفضول حين غادرنا الفندق.

تصدّر المقدمة الخادم الهندي على ظهر حمار محتضنًا في الوقت ذاته بين ذراعيه رضيعنا الصغير الذي لُفّ في غطاء حريري وردي وفوقه مظلة. لم يحتاجا أي مساعدة سوى حث دابتهما على الحركة عن طريق النغز لتنطلق إلى الأمام. جاء في إثر حمار الطليعة موكب جماعة السيدات وقد ارتدين ثيابًا ملوّنة مِن قماش "الموسلين" وأوشحة حريرية سوداء في حراسة الانكشاريّ وخادمين عربيين أيضًا على ظهور الحمير فضلًا عن سيد محترم تطوّع لينضم إلى مجموعة الحراسة، ناهيك عن أصحاب الحمير الذين ترجلوا بجوارنا. ولأني لم أمتطِ أي حيوان سوى الفيل حتى وصولي الإسكندرية فلم أشعر بالراحة على ظهر الحمار، ومِن ثم طلبتُ من خادمنا الجديد، محمد، أنْ يوجّه السائس حتى يوليني رعاية خاصة. نزل الأخير على رغباتي ونفّذها حرفيًّا فالتزم بالسير كثيبًا إلى جانبي، وكلما مررنا بأرض وعرة وضع يده على الحمار والأخرى على مقدمة خصري. لم يكن في وسعي

---

[79] النمْلِيَّةُ.

الانفلات من هذا اللمس اللصيق من شخص ينتمي لطائفة عُرف عنها قلة النظافة سواء في الجلد أو اللباس، لكنّ نية الرفيق المسكين كانت طيبة. ولأني كنت في حاجة إلى خدماته ولأنّ شكله كان محترمًا عن حق أدركت أنه ليس الوقت المناسب ليكون الشخص نَيِّقاً، ولم أستطع منع نفسي من الضحك على الهيئة الهزلية التي بدوْتُ عليها.

مررنا ببعض المباني والحمّامات حسنة الطلعة. كانت الأخيرة مُغرية مِن هيئتها الخارجية وتقدم خدمة ممتازة وفقًا لصيتها العام. قابلنا حال بلوغنا بوابة سور الإسكندرية جنازة عائدة من المقبرة المتاخمة لعمود "بومباي". كان الموكب كبيرًا واصطحبته النساء بأعداد كبيرة اللاتي – بالرغم من فاجعتهن – وقفْن لدقيقة ليشبعْن فضولهنّ ويتمعنّ في شخوصنا الغريبة وثيابنا الأكثر غرابة. التقينا سويًّا أثناء عبور البوابة ذات الجدران السميكة التي استغرق اجتيازها بضع دقائق مما وفر لنا فرصة التدقيق الكثيب كل في الآخر. حال حجاب النساء بالرغم مِن ذلك دون استجلاء مُحيّاهنّ بشكل جيد. في غضون عبورنا قابلْنا قطيعًا من الجاموس وهي حيوانات جديدة تمامًا على الآنسة "إي" التي لم تر أيًّا منها مسبقًا، ولا حتى عيّنة منها في حديقة الحيوان. اجتزنا قاعدة عمود "بومباي" وتخطينا المقبرة، وما هي إلا ربع ساعة أخرى حتى ألفينا أنفسنا على ضفة الترعة فاعتلينا المركب التي اتفقنا معها مسبقًا لتقلنا إلى قرية العطف.

خلال جميع رحلاتي السابقة لم أر شيئًا بئيسًا وغير مريح مثل هذا القارب. كانت الإقامة المُعدّة لنا عبارة عن كابينتين أو بالأحرى زريبتين مفتوحتين على بعضهما البعض وكان سقفاهما واطئين بحيث لا يسمحان لشخص بالغ أنْ يقف منتصبًا.

جرت محاولة سابقة لطلائهما ونقشهما، لكنّ القذارة كانت السّمة الغالبة عليهما، بينما سمحت الثقوب والشقوق في كل الجوانب بخروج الحشرات التي أنبأ مظهرها عن إقامتها الطويلة في المكان. بالرغم مِن تيقّننا مِن قضاء الليل في الترعة، لم نشأ أنْ نجلب على أنفسنا المعاناة بنصب فرشنا. جلسنا عِوضًا عن ذلك على صناديق متاعنا في مكان قريب مِن الباب حتى نعاين كل ما يمكننا مشاهدته مِن المنظر.

تتمتع ضِفتا الترعة بوفرة الكساء النباتي، لكن بسبب انخفاضهما فإنهما كانتا مرتعًا لكافة ضروب وأصناف الحشرات. غزت أسرابُ البعوض القارب، وإذا جاز القول فإنّ الذباب كان أكثر إيلامًا، ومِن ثم كانت غاية أمانينا قطع هذه الترعة بأقصى

سرعة ممكنة. شاهدنا السفينة التي عرجنا على بنائها آنفًا بغرض نقل الركاب إلى العطف. كانت جميلة وأنيقة وكبيرة، وعليه فإنه إذا قُدّر للمشكلات السياسية المثارة في الوقت الراهن أنْ تُحلّ بشكل وديّ بحيث تستمر مصر كطريق مباشر للمسافرين إلى الهند فإنّ المتاعب التي أتبرم منها الآن سوف تختفي مِن الوجود.

مررنا ببعض المنازل الأنيقة التي شُيّدت على الطراز الأوروبي، وإحداها – كما أُخبرت – تخصّ بنت الباشا، زوجة الدفتردار.[80] تحيط الحدائق بهذا المنزل، لكنه يفتقر للفخامة في هيئته. صادفْنا أيضًا معسكرًا لقوات الباشا يتكون مِن دائرة صغيرة من الخيام اللصيقة، ويفتقد للنظام الذي نراه في الجيوش الأوروبية. بالرغم ممّا تتحدث به التقارير عن انضباطه الجيد فلا يبدو على جنوده المظهر العسكري الذي رأيته ونال إعجابي في العسكر الهندي. من الاستحالة بمكان أنْ يحافظوا على زيّهم الأبيض نظيفًا في بلد مُغبرة مثل مصر مما يسيء إلى منظرهم بشكل كبير. مِن المؤسف عدم اتخاذ إجراء أو تبني اختيار لزيّ أفضل مقاوِم لآثار الغبار. ارتدى الانكشاري الذي صحِبنا زيًّا أحمر اللون أعطى صبغة عسكرية أكثر منهم. تمتع هذا الرفيق بملامح حسنة فهو طويل وذو بنية جيدة، كما كان زيّه جدّ مناسب ولائقًا ومصنوعًا مِن خامات طيبة. تمتع خادمنا محمد أيضًا بطلعة بشوشة، فضلًا عن الحيوية والروح المرحة التي تُعتبر سمة مميزة لشعب مصر، خاصة مَن ينتمي منهم للشريحة الأعلى مباشرة للطبقة الدنيا وينعم بدرجة مِن الراحة ولين العيش.

في مصر تجد تنوعًا كبيرًا في الأزياء فبعضها يأتلف من معطفٍ طويل يُلبس فوق سروال. كان الزي العسكري الذي وضعه الانكشاري والخادم لائقًا وبهيًّا. مِن الصعوبة بمكان وصف لباس الطبقة السفلى فهو واسع إلى الركب وفضفاض بوفرة مِن الخلف. أعود للانكشاري الذي ارتدى سروالًا خفيفًا مُنسدلًا حتى كاحله، أمّا محمد فكانت رجلاه حاسرتين إلا في الحالات التي يُدخل فيها ثنيتي السروال في جوربين أوروبيين.[81] الصدرية والمعطف مشدودان بشكل محكم إلى الجسم وتفصيلهما به ذوق، ويشكلان – مع الوشاح وغطاء الرأس القرمزي الذي تجده تقريبًا في كل مكان ويتدلي منه شُرّابةٌ لونها أزرق غامق[82] – زيًّا جميلًا وأنيقًا. صُنعت صدرية محمد مِن خامة زرقاء ناعمة، كما كانت مزركشة أو بالأحرى

---

[80] الأميرة نازلي.

[81] يُسمى هذا الإجراء "تأفيز" بلغة الجيش الحديث في مصر.

[82] الطربوش.

مجدولة مِن الجانبين. يسود هذا النوع مِن الزينة حتى إنك تجد بعض الفلاحين المعوزين الذين يمتلكون قميصًا واحدًا مِن قماش القنب الخشن يزينونه على هذا النمط.

لا تقع عيناك على الكثير على ضفتي المحمودية فترى هنا أو هناك قسيسًا يؤدي صلواته بالقرب مِن ساحل المياه أو بعض الأكواخ البائسة على سبيل التنوع في المشهد، على أننا قابلنا قواربَ لا يُحصى عددها. يتسم ملاحو هذه القوارب بالإهمال الشديد لدرجة أننا واجهنا صعوبة بالغة في تفادي الاصطدام بأحدها، ولولا اليقظة التامة التي تمتع بها الانكشاري لوقعت أكثر من حادثة تصادم. فككنا الشراع كلما كانت الرياح مواتية، وعدا ذلك جرّ النواتية القارب عبر القناة. وعلى هذا النهج استمرت رحلتنا طيلة الليل. تحسرنا كثيرًا لأنّ الليلة لم تكن مقمرة. مع رحيل النهار جاءت نهاية متعتنا. خرجت الصراصير التي يصل حجمها إلى الجزء العلوي مِن كؤوس الخمر، وتناهى إلى أسماعنا نهيز الفئران. هجم البعوض باستماتة أكثر مِن أي وقت سبق، أما الأعداد المهولة مِن الذباب فقد اجتمعت على النوم ملتصقة بالسقف الذي يعلو رأسي مباشرة لدرجة أنه تولدت لديّ رغبة في أنْ أشعل عود ثقاب "لوسيفر"[83] وأرديها جميعًا، وما أردعني عن تنفيذ هذه المذبحة الجماعية إلا التوقعات بمغادرة القارب في باكورة اليوم التالي، بيد أني لم أظهر أي رحمة تجاه البعوض الذي جذبه الضوء ليستقر على زجاج المِشكاة.

كانت ليلة طويلة وموحشة. الحادث الوحيد الذي وقع كان ارتجاجًا جعلني والآنسة "إي" نطير مِن فوق صناديق السفر. لقد جنحنا خطأً في مسار قاربٍ آخر، أو بالأحرى فشل صُراخ العرب على متن قاربنا في إيقاظ النائمين على متن المركب القادم من الجنوب. أخيرًا بزغ ضوء الفجر، وحاولنا عن طريق الاغتسال المتأني وتغيير ملابسنا أنْ ننعش أنفسنا بعد تلك الليلة التي لم نذق فيها طعم النوم.

أدركنا حاجتنا إلى الحليب للفطور فأرسلنا ولدًا صغيرًا مِن أحد أفراد الطاقم إلى الشاطئ ليجلبه لنا مِن إحدى القرى. في الأثناء هبّت نسائم ساعدتْنا على الانطلاق بسرعة وقع في خلدنا إثرها أننا تركنا الصبي في الخلف، لكن هاهو الرفيق المسكين يعدو بأقصى سرعة ممكنة محترزًا في الوقت ذاته حتى لا يريق وعاءه. عاد بعد فترة إلى ظهر القارب. تعيّن عليه لإنجاز ذلك الأمر أنْ يغطس بجسمه كليًا في

[83] علامة تجارية.

الماء. لا أعرف إذا كان قد أُصيب بمكروه أو أنّ هذه الخاتمة المحزنة جاءت نتيجة لتقطع أنفاسه أو إصابته بالإنهاك نظرًا للمجهود الشديد، لكنه أخذ في البكاء بصورة تثير الشفقة ولا يبررها ما ساقه مِن مزاعم بأنّ ملابسه قد ابتلت فما هي إلا قطعة قديمة من الخيش. وجهت محمد ليكافأه مقابل خدماته بقرش، قطعة فضية صغيرة تعدل 2.5 d.[84] ربما لم يُحدث مبلغٌ زهيد من المال كلَّ هذا التأثير مطلقًا مِن قبل ففي ذات اللحظة انقطع البكاء وجفّت الدموع، وفي غضون تمعُّنه بالثروة التي حازها حديثًا مُحيت من عقل الصبي ذكرى آلامه.

انتصف النهار تقريبًا قبل أنْ نبلغ العطف. مع كل خبرتي السابقة عن الأماكن البائسة التي يقطنها البشر إلا أنني ذُهلت من إقفار هذه القرية التي تقع عند مأخذ الترعة. التصقت المنازل إذا جاز لنا أنْ ندعوها كذلك على الجرف الذي بدت تُشبهه جدرانها الطينية المسقوفة بحدّ الكفاف من البوص والقشّ، ثم هناك بعض الكوات المتنافرة كأبواب ونوافذ، لكنّ الأغرب مِن ذلك أنك لا ترى مثل هذه الأكواخ البائسة في أكثر الأماكن همجية. أدركت أنّ مثل هذه المواضع لها باحة صغيرة تتصل بها الأكواخ التي تقع في أقصى نهايته لا يميزها سوى هذه الأسقف المتدنية بينما تتوارى الأجزاء الأكبر منها.

اضطُررنا هنا إلى ترك القارب فنزلنا على الجهة المقابلة لهذه القرية. ترجّلنا لمسافة قصيرة لنجد أنفسنا على ضفاف النيل. كان المكان في ارتباك شديد بسبب التواجد الفعلي للباشا. ثمة مَن أخبرنا أنه وحاشيته شغلوا كافة القوارب باستثناء ذاك الذي يخصّ السيد "واجهورن" الذي عهد به البريد إليه. بعد أن التأم الشمل مع أصدقائنا أصبح مِن المستحيل تسكين أربع سيدات وخادمة أوروبية وطفلة رضيعة في هذا القارب الصغير، ومِن ثم أرسلنا الانكشاري بخطاب باللغة التركية كان قد أُعطى لنا في الإسكندرية إلى حاكم[85] العطف، وسرعان ما جاء الرد المهذب يفيد بأنه سيتم وضع أفضل سفينة متاحة تحت تصرفنا.

نزل الباشا في مسكن مزري الهيئة، وسرعان ما ظهر للعيان أمام ساحته. هؤلاء الذين لا يعرفونه إلا من اللوحات والأوصاف قد يُصدمون لرؤية شخص قصير القامة، عاديًّا في ملبسه ومظهره، ويشكل فكرة مختلفة عن عواهل مصر. ولأنه لم يكن هناك ترتيبات لتقديمنا إليه ولعلمنا أنّ لديه حبوة للأوروبيات ويُفرد وقتًا

[84] لم نستطع الاهتداء إلى رمز هذه العملة، لكنّ مصر شهدت في ذاك الوقت تعاملًا بخليط من العملات المختلفة.
[85] شيخ القرية في عهد محمد علي العمدة الآن.

للاستماع إليهنّ لم نسعَ إلى مخاطبته، وضحينا بالفضول مقابل اللياقة والذوق.
صعدنا إلى السفينة بغرض الحصول على أفضلية أكبر في استجلاء المشهد.
ربضت السفينة أمام شريط ضيق مِن الأرض محصور بين النهر ومبنى كبير مازال يحتفظ بزجاج نوافذه رغم تهدّمه. حمل المبنى لقب "فندق المحمودية" الذي يدعو للفخر. تكتظ هذه المساحة المحددة جيئة وذهابًا بالجِمال وسائسيها ورجال عظماء وحراسهم والبائعين في سعيهم لتسويق بضاعتهم المتنوعة، ناهيك عن حشود مِن البشر والكلاب والحمير. لاحظت تطلع الناس في الرضيعة التي حملها خادم مِن أهل البلد أثناء مروره بينهم بحنان مميز. كانت هذه الطفلة الإنجليزية مخلوقًا جميلًا حقًا في شملتها البيضاء الحسنة وقلنسوتها الوردية الحريرية من "الدانتيل" فجذبت طلعتها الانتباه في كل مكان ظهرت فيه. ربما لم ير الناس المجتمعين الآن في العطف مثل هذه الإطلالة مطلقًا مِن قبلُ فبدت عليهم البهجة بشكل واضح وهم ينظرون إليها. مِن جانبها كانت الرضيعة سعيدة بقدر مساوٍ، ومدّت ذراعيها الصغيرتين لكل مَن اقترب منها.
نظرًا لصغر حجم السفينة وجدت مِن الضروري فتح واحدة مِن حقائب سفري وأخذ بعض الملابس قبل إرسال المتاع. أثناء انشغالي بذلك الأمر وجدت امرأتين أو ثلاثًا في ملابس محتشمة وكذا بضعة رجال بحذائهن ممّن كانوا على ظهر السفينة يتابعون حركاتي. لم أفهم بالطبع ما تفوّهوا به، لكني خمّنت مِن إشاراتهم أنهم يتساءلون عن بعض الأشياء العجيبة التي شاهدوها. لم يكن بحوزتي أغراض يمكن الاستغناء عنها أو ما قد يكون ذا نفع للنسوة عدا مجموعة من إبر الحياكة مصفوفة داخل مطويّة وضعتها في يد إحداهنّ عبر كوّة القُمرة. كان لون المظروف ذهبيًّا فظننّ في البداية أنه لا يحوي شيئًا، لكني أشرت إليهنّ بفتحه وما إنْ فعلنَ ذلك حتى انتشينَ برؤية الإبر وطفِقن يقسمنها فيما بينهنّ.

(1848)

"الحياة الشرقية أمس واليوم" – هاريت مارتينيو

EASTERN LIFE,

PRESENT AND PAST.

BY

HARRIET MARTINEAU.

"Joyful to receive the impression thereof, as the eye joyeth to receive light: and not only delighted in beholding the variety of things, and vicissitude of times, but raised also to find out and discern the ordinances and decrees, which, throughout all these changes, are infallibly observed."—BACON. *Advancement of Learning, I.*

COMPLETE IN ONE VOLUME.



PHILADELPHIA:
LEA AND BLANCHARD.
1848.

مصر وعقيدتها

الفصل الأول

أول مشهد لأفريقيا – أولى المناظر في أفريقيا- الإسكندرية

كان أول ما وقع ناظري عليه من أفريقيا هو مشهد رهيب لعشية إحدى ليالي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عندما كانت الشمس تغرب بضوئها الأحمر على مجموعة من الصخور ذات اللون الأرجواني ناحية الغرب. لم تكن تلك الصخور مرئيّة إلا عندما ألقت الشمس بظلالها عليها، وما لبثت أن اختفت مرة أخرى بعد ما غربت الشمس خلفها وتبدد ضوء السحاب. كان أول ما رأينا هو جزيرة "زمبرة" [86] وساحل تونس المتاخم لها. لم يُثر إعجابي شيء في أفريقيا قط أكثر من ذلك المشهد الأول الذي بدا كطيف وسط البرد، وتجمّع غسق المساء مع مشهد اتساع البحر الرحب الذي كان يرفع الحمرة بيننا وبين البحر.

[86] Zembra.

كان المشهد الثاني لأفريقيا عندما ذهبت على ظهر السفينة في صباح يوم العشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني). لاح في الأفق رأس بحري ليبي ناحية الجنوب الشرقي، وبالتدريج ظهر لنا المزيد من اليابسة التي كانت منخفضة وذات لون رمادي. بعدها بدأت تلك الأجزاء المتناثرة تتجمع حتى ظهر أمامنا خط متصل من الساحل المستوي الرملي الأبيض عليه برج العرب [87] على ربوة عالية. رأينا هذا البرج مرتين خلال اليوم على مثل هذه الربوة العالية. أصبح البحر الآن لبني اللون ولامعًا وكأنه ينساب ويرفع العقيق، ثم صار لونه ضاربًا إلى الأخضر الفاتح. عندما كنا نرى حصنًا ومبنى محطمًا بجواره كان الجميع يصيحون قائلين: "الإسكندرية!" وكنا نتوقع أن نصل بحلول الظهيرة، ولكننا مررنا بالحصن والمباني المحطمة ولم نر سوى المزيد من أراضي الساحل المنخفضة الرملية. كانت الساعة الثالثة قبل أن نصل إلى المرفأ، وعندما صعدنا على ظهر السفينة بعد الغداء علمنا أننا ننتظر مرشد السفينة وأنه ينبغي علينا أن نتعجل الأمر لأنه لم يبق سوى ساعة واحدة في ضوء النهار ولا يمكننا أن ندخل المرفأ بعد حلول الظلام. لم يكن هناك أي رد من الزورق المرشد الذي طلبناه، لذا أرسلنا أحد القوراب التابعة للباخرة لتطلب مجيء مرشد السفينة الذي بدا اعتقاده جليًّا أنه بإمكانه إنهاء بعض المهام الأخرى قبل أنْ يأتي إلى سفينتنا. اضطر إلى المجيء وكان هذا في الوقت المناسب تمامًا، فقد ظهرت النجوم وبدأ ضوء النهار يتلاشى من المياه قبل أن نرسو. عندما دخلنا المرفأ كان هناك عدد من طواحين الهواء في الجنوب الغربي، وهو ما كان شيئًا عجيبًا في ميناءٍ أفريقي. كانت المدينة أمامنا وبها عمود "بومباي" الذي يرتفع خلف الأسطح، كما كان قصر الباشا يظهر ناحية الشمال، وكذلك الحرملك بحدائقه وصفوف النخيل التي تصل حتى حافة البحر، وتحيط به منارة الاسكندرية، أما ناحية الشرق على اليابسة فقد كانت هناك المدفعية. كان رجال الجمارك التابعين للباشا -الذين لا يتحملون إجراء الفحص وقت الظهيرة - تبدو عليهم المهابة في الأضواء اللامعة والظلال العميقة للمساء حيث كانت أعلام منازل القناصل الحمراء التي يعلوها الهلال والنجمة ترفرف وتطير في الهواء والسكون. باستثناء الضوء البهيّ لم يكن هناك شيء جميل في المشهد إلا العلم (الأجمل في العالم على الإطلاق) ومنظر مرشد السفينة وهو ملتف بردائه ويرتدي عمامة ويشير وهو جالس على صندوق

---

[87] يقع في الكيلو 44 طريق الإسكندرية – مطروح، ويُقال إنّ جثتي "أنطونيو وكليوباترا" مدفونتان تحته.

عجلة التجديف، وهو مشهد رائع يتمنى أي غربي أنْ يمتع ناظريه به. كان الضوء المسلط على المشهد الراكد يشبه في روعته منظر السحب الرمادية الملبدة بالغيوم وهي تحمل في طيّاتها قوس قزح. بينما كنا نستدير ونتحرك صوب المرفأ كانت هناك باخرة فرنسية كبيرة تتحرك للخروج منه عائدة إلى الوطن. كان ركابها على سطح السفينة، بينما كانت الأضواء تلمع من نوافذها. قبل أنْ ترسو سفينتنا جنحت تلك السفينة وارتطمت بالأرض. شعرنا بالأسف عندما رأينا تلك السفينة راسية عند وصولنا للشاطئ.

قبل أنْ نلقي المرساة وجدنا حولنا عددًا كبيرًا من القوارب – كان من بينها قليل من الرجال الأوروبيين وحشد من العرب الذين يصيحون. لم أعلم شيئًا يمكن مقارنته بمثل هذه الجلبة إلا صخب حفلة موسيقية لضفادع مستنقع "كارولينا". كنا نتساءل مِن قبلُ عن كيفية رسونا على الشاطئ، ولم يخفف مشهد رحيل رفقائنا على السفينة من وطأة شكوكنا، فلم يكن بإمكاننا أنْ نتظاهر بأننا نلوّح بعصي غليظة كما رأينا بعضًا من السادة الذين كانوا معنا يفعلون، وذلك لقناعتهم الراسخة أنّ هذه هي الطريقة الوحيدة للتعامل مع العرب. ذهب السيد " E " إلى الشاطئ مع أول مَن ذهبوا إلى هناك ليحجز لنا غرفًا. لم نكن نعرف ماذا كنا سنفعل نحن الثلاثة بأمتعتنا دون مساعدة، ولكننا حظينا بمساعدة، فقد تولى أمرنا تاجرٌ إنجليزي بالإسكندرية بكل لطف، ووضع أمتعتنا في قارب، وأخذنا نحن في قارب آخر ثم رافقنا حتى الشاطئ. كان الهدوء الذي حظينا به خلال فترة عبورنا مِن الباخرة حتى رصيف الميناء مهلة احتفينا بها، ولكن ما إنْ وطئت أقدامنا رصيف الميناء حتى ألفينا أنفسنا وسط حشد مِن الرجال الذين يرتدون ملابس غريبة متنوعة وزمرة مِن الصبيان الذين يدفعون حميرهم في وسطنا، كما كانت هناك عربات تُسحب هنا وهناك. كان الجميع يصيحون ويتدافعون تحت ضوء النجوم. وُضعت أمتعتنا على عربة طويلة وتبعنا نحن تلك العربة سيرًا على الأقدام، ولكنْ كان هناك توقفٌ مباشر بسبب بعض المشكلات الخاصة بالجمارك، ولم نعلم كيف تغلبنا عليها. بعد ذلك هرب الحصان وكسر أطواقه وبعثر بعض أمتعتنا. بالرغم من ذلك، تمكنّا في النهاية مِن السير حتى الفندق. سرنا في شوارع لا تعد ضيقة بالنسبة للمدن الشرقية، وخلال الطريق لمحنا أصحاب المنازل المدخنين داخل منازلهم الخافتة، والحرفيين المعممين، والضوء

الأصفر للمصباح من خلف النوافذ المتشابكة. كانت الحرارة مزعجة بالنسبة لنا بعد الأيام الباردة التي أمضيناها في البحر، كما كان باقي العشيّة مرهِقًا بشكل كاف.

بدأ مجموعة الركاب الذين أتوا من "بومباي"[88] يسرعون لتحضير الإعدادات اللازمة ليسافروا إلى القاهرة، فقد كانوا يكتبون خطاباتهم ويحتسون الشاي لينطلقوا إلى القاهرة في الساعة التاسعة. استحوذ على المشهد صوت رغاء الإبل في الميدان وهي تُحمّل بالأمتعة ووهج المصابيح والحرارة والضوء والجلبة والصخب والعجلة وهي الأمور التي كان مِن الصعب تحمّلها بعد رتابة الحياة في البحر. نشدت بعض السكينة في كتابة خطاب ما جعلني أنسى تقريبًا موقعنا الحالي حتى تحدث إليّ أحد رفقائنا على السفينة الذي كان موشكًا على الرحيل، وعندما نظرت إلى أعلى رأيت أحد اليونانيين يقف على مقربة مني، وآخرَ عربيًّا يسد المدخل ومربية نوبية آتية إلى الداخل لتعتني بالطفل الذي يبكي. قبل حلول الساعة العاشرة، عمّ الهدوء المكان بأسره، فقد أصبح الميدان خاليًا من الحافلات، والإبل، ووهج المصابيح، ولم يعد فندقنا يعجّ بالصخب والجلبة. لم يكن هناك أي شيء يمنعنا من أنْ نحظى بليلة هانئة استعدادًا ليومنا الأول للجولة السياحية في أفريقيا.

عندما نظرت مِن النافذة باكرًا في صباح اليوم التالي، لم أر أي شيء أفريقي على وجه التحديد. كان ميدان "القناصلة"[89] رحبًا والمنازل كبيرة، ولكنها قد تبدو رديئة ومستهجنة لو كانت في أي مكان آخر. كانت سواري الأعلام على الأسطح تأخذ الأنظار، أما ضوء الشمس الساطع واللامع من خلف المئذنة فقد جعل الصباح يُشبه صباح أحد أيام شهر نوفمبر الصحوة في بريطانيا. مرت الآن مجموعة مِن الجِمال عبر الميدان وهي تمشي وتتقدم بخطى هادئة. ظننت حينها -كما مازلت أظنّ حتى الآن- بعد معرفتي بالإبل لمدة طويلة أنّ هذه الحيوانات هي أقل الحيوانات التي عرفتها جَمالًا. لا يمكن أنْ يكون هناك شيء أكثر قبحًا منها ما عدا النعامة التي تشبه الجمل بشكل هزلي في شكلها وطريقة عدْوها وتعابير وجهها. بالنسبة لي لم أحب قط رؤية صبر الجمل الذي طالما احتفت به الكتب. لا أدري، فقد كان يبدو لي أنه حيوان لا يصبر، كان يزمجر ويمتعض ويشاكس عندما يُطلب منه أن يحمل أي شيء، وكان يبدو في مثل هذه المواقف وكأنه يتوق إلى العضّ لو كان يجرؤ على فعل ذلك. لا تُظهر صور الجمل تعبيرات وجهه الخبيثة، ولكن يمكن رؤيتها إذا كان

---

[88] Bombay.

[89] ميدان المنشية حاليًا.

المرء يبحث عنها بالفعل. غالبًا ما تُعطيني تعبيرات وجه الجمل المختلطة من الضغينة والخوف واليأس انطباعًا أنه يشعر بكونه حيوانًا بغيضًا أو هالكًا. أتساءل لماذا لم يضع مصورو الجحيم صورة الجمل في الصدارة ويجعلوه شعارًا تقليديًا لهم. صحيح أنّ العربي يحب ناقته ويقبّل شفتيها ويعانقها ويدعوها بحبيبته وجوهرته ويعلن حبه لها تمامًا مثلما يحب ابنه الأكبر، إلا أنّ هذا الحب يقتصر على حب المرء لجمله أو ناقته هو فحسب بسبب الخدمات التي يقدمها له والتي تُعدّ كنزًا نفيسًا لا يقدر بثمن، وليست هذه المشاعر لأي جمل آخر. قد يقوم العربي بركل أو سب أي حيوان باستثناء الفصيل الأليف (أي ناقته)، كما يمكنه أنْ يتحمل الدأب ويضمر الضغينة تجاه أي مخلوق آخر شرس أو عنيف. تعد الميزة الوحيدة التي يتمتع بها الجمل هي قدرته على العمل دون أنْ يحتاج إلى الماء، ولكنْ خارج الصحراء لا أعتقد أنّ أي راكب سوف يستبدل المطية المُريحة والرائعة والأبية للحصان بالجمل الذي يعترض على كل شيء، ولن يقدّم خدماته إلا تحت وطأة الاضطرار بسبب خوفه.

عندما مرت الجِمال دخلت بعض النساء إلى الميدان من مداخل مختلفة. تعجبت عندما رأيت أنّ وجوههنّ كانت مغطاة بالكاد. كنّ يسحبن جزءًا مِن قطعة قماش زرقاء اللون أو نصفها فوق وجوههنّ عندما يقترب أي شخص منهن كنوع من الشكليات، ولكنْ في الاسكندرية على الأقل كنا نتمكن من رؤية أي وجه نبغي رؤيته فيما عدا بالطبع وجوه نساء عِلية القوم (الأرستقراطيات). عندما ذهبنا إلى جنوب البلاد، رأينا النساء يغطين أنفسهنّ بشكل أكثر، وعندما وصلنا حدود النوبة حظينا برؤية ملامح إحدى الفتيات.

كان المشهد الثاني في الميدان هو لنساء الحرملك وهنّ خارجات في نزهة – مر موكب من النساء يمتطين الحمير وكل امرأة منهن محاطة بما يُشبه المنطاد المصنوع من الحرير الأسود ومنفرجة الساقين وترتدي في رجليها زوجًا من النعل الأصفر المصنوع من جلد الماعز المدبوغ. كان هناك سائس مترجّل يجري بجوار كل حمار، بينما كان ضابط الحرملك يتابع الجزء الخلفي من الموكب.

عندئذٍ كان أصدقائي مستعدين لاحتساء فنجان من القهوة والتنزه قبل تناول الفطور، لذا ذهبنا لنرى ما يمكننا مشاهدته. بعد أنْ غادرنا الميدان سلكنا طريقنا وسط أكوام القمامة وأتلال التراب في الطريق إلى الحصون الجديدة مرورًا بأكواخ العرب التي

كانت تبدو رديئة المنظر وموحشة أكثر مما رأيته في أي مكان آخر في البلاد. قابلنا عددًا قليلًا من غير المُبصرين والمرضى أقل مما توقعنا، ويتعين عليّ القول أنني اعترتني الدهشة هذا الصباح وأثناء ترحالي في مصر من مظهر الناس هناك. لا ريب أنّ المنازل كانت تُعوزها النظافة وكذلك الأشخاص، لذا انتشرت الأمراض التي تنتج عن الافتقار إلى النظافة، إلا أنّ مظهر الأشخاص الذين قابلناهم هناك وفي شتى أرجاء البلاد كان أنيقًا ويبدو عليهم الابتهاج وحسن التغذية. لا أذكر أنني رأيت شخصًا لم يحظ بتغذية جيدة في كل أنحاء مصر، فهناك العديد من المصاعب في جوانب أخرى مثل البؤس الشديد والشقاء الذي يُدمي قلوب المسافرين، ولكن لم يكن السبب في هذا أبدًا -حسبما رأينا- هو الاحتياج إلى الطعام. قيل لي -ولا ريب في حقيقة ذلك- أنّ السبب في هذا يرجع إلى تشريعات القرآن التي تقضي بأنْ يشارك كل فرد ما لديه حتى آخر جرعة مع أخيه المحتاج، فلا بد أنْ يكون هناك طعامٌ كافٍ أو ما يمكن أنْ يكون كافيًا للجميع بغضّ النظر عن طريقة التوزيع. أما بالنسبة للنقص السكاني المتصاعد في مصر خلال السنوات العديدة الماضية، فأنا على قناعة تامة أنّ نقص الطعام ليس سببًا في ذلك وليس أحد تبعاته. إنني على قناعة تامة أنّ مصر يمكنها كما كانت في سابق عهدها أنْ تتحمل أكثر من أربعة أضعاف سكانها، إلا أنني لا أرى أي سبب يجعلنا نفترض- حتى في غِمار سوء الإدارة والقهر الذي يعاني منه الشعب- أنهم ليس لديهم ما يكفي من الطعام ليؤمّن لهم الحياة والصحة. كنت أرى رجالًا ونساءً وأطفالًا أكثر نحالة وضآلة وكمدًا في مرة واحدة من المرات التي كنت أتنزه فيها في بريطانيا أكثر مما رأيته على أرض مصر من بداية رحلتي وحتى آخرها، فلم يكن الأمر متعلقًا بالطعام بالمرة. لن يفترض أي أحد أنّ وجود كميات كافية من الطعام في مصر يعني بالضرورة -كما هو الحال عندنا- كفاية بعض الأشياء الأخرى التي تكون أقل أهمية من الطعام لتحقيق الرفاهية.

رأينا ذلك الصباح "ساقية" للمرة الأولى. لم تكن لدينا أدنى فكرة عما ستمثله لنا "الساقية" خلال إقامتنا طوال الثلاثة أشهر وكيف أنّ هذا الاسم ستكون له ذكريات عديدة للنيل الذي يجري، والحقول الخضراء الرحبة، وأجمات قصب السكر، وشجن موسيقى الساقية، والصور البديعة لأطفال الفلاحين الذين يقتادون الثيران في الدائرة الوارفة للأعشاب التي تنمو على السقيفة. كانت الساقية الأولى التي رأيناها بدائية للغاية، فقد كانت موضوعة بين تلال الرمال المدنسة بالقاذورات، كما كانت تروسها

المصنوعة من الخشب تالفة. رأينا بعدها ساقية أفضل منها في حديقة القنصل الألماني. كانت على منصة تحت عريشة من الكرْم، أما الترس الذي كان يديره ثور معصوب العينين، فكان عليه جرّات خزفية خشنة مربوطة على دوارات الرياح وخلال تلك اللفات تُفرغ الجرار في ممر تنساق فيه المياه لري الحديقة.
في تلك الحديقة -كما هو الحال في كل الحقول والحدائق في مصر- كانت الأرض مقسمة إلى أجزاء تحيط بكل جزء حافات صغيرة لتحبس كمية المياه التي تصل إلى هذا الجزء. عندما يكون الري صناعيًّا، تمر المياه من خلال تلك الممرات أو الجرف وتتوزع على كل جزء من الحديقة. لقد عاينت هنا أول تدريب للعين على الزوايا التي تعد الطابع الرئيسي للبنية في مصر. يبدو أنّ هناك قانونًا من الآلهة القديمة في مصر أنّ الزوايا هي القاعدة الأساسية للجَمال ومن الواضح أنّ هذا القانون لا يزال من الأمور المسلم بها حتى يومنا هذا. إنّ أحد أكثر الأشياء التي يتعجب منها الزوار المسافرون هو أنهم يشعرون على الفور بالتعاطف مع هذا الذوق حتى إنهم يجدون لديهم في ذوقهم وأفكارهم عن الجَمال دربًا جديدًا ملائمًا لتذوق جَمال أمجاد معابد النيل.
بدت حدائق الاسكندرية بدائية بالنسبة لأعين الأوروبيين، ولكننا رأينا بعض الحدائق الجميلة فيما بعد. كانت الأعشاب تنمو في البِقاع الرطبة خاصة نبات الخبّازالذي يُستخدم في إعداد الحساء وكذلك الكرنب الذي يعد ضمن الفاكهة الأفريقية. كان من بين أنواع الزهور الرائعة نباتات الدفلى، وشب الليل، كما كان التين والبرتقال من بين النباتات المعروفة التي أعتقد أنها كانت محبوبة. أما منازل القناصل، فقد كان تحت نوافذها ورود توضع كل شهر ومنها ورد الأقحوان، وطريحة الحب النازفة، والغرنوقي، وإكليل الجبل، وبالطبع زهرة الأدريون الأفريقية. يغطي النخيل معظم تلك المساحات الرطبة ويكوّن مساحة من بساتين النخيل كما اعتدنا تسميتها. كانت هناك مجموعات من البلح معلقة على سعف النخيل وكانت هذه دائمًا ما تكون أهم منتجات الحديقة. بالطبع لم تكن حدائق القناصل ذات طابع شرقي صرف في مظهرها، فلم نكن نرى فيها -كما هو الحال في الحدائق التي يمتلكها العرب- صهريجَ المياه الذي يستخدمه أتباع ملة محمد للوضوء، ولم يكن ربُّ المنزل يتكئ على عمامته على أول الحديقة بعد أنْ يستحم، أو يصلي ويسجد في حديقته.

كان البون شاسعًا بين هذه الحدائق وبين موقعي إبرة كليوباترا وعمود "بومباي"، فقد كان المشهد رائعًا بطريقة لست بحاجة إلى وصفها فقد رأى الجميع صورًا لها. تقع إبرة كليوباترا على الرمال المتأججة بالقرب من سور القلعة الجديدة الذي يبلغ ارتفاعه ثمانين مترًا ويحيط بالمدينة. بجوار مسلة كليوباترا كانت هناك مسلة شقيقة– عُرضت على انجلترا ولكنها الآن مدفونة في الرمال. في ذلك المكان لن يصيبها التلف لأنه لا شيء أفضل من رمال مصر لتصون مثل هذه المسلة. متى وتحت أية ظروف يمكن لتلك المسلة أنْ ترى النور مرة أخرى؟ هل سيحدث هذا في زمن تكون تلك المسلة معروفة فيه كما هو الحال الآن؟ أم أنّ هذا سيحدث في زمن سحيق للغاية حتى إنها ستحتاج إلى عملية توثيق وتدقيق مرةً أخرى؟ الجميع يعلم الآن أنّ هاتين المسلتين من عصر الفراعنة القدماء وعليهما نقوشٌ تحمل أسماء بعض الفراعنة وأنهما كانتا في "هيليوبليس" ثم نقلهما أحد القياصرة إلى الإسكندرية.

يقع عمود "بومباي" في مكان أكثر عزلة. وصلنا إلى هناك بعد أنْ مررنا بأكثر المقابر كآبة حيث كان كل شيء يكسوه الغبار حتى نبات الصبار الموجود بجوار كل مقبرة. كانت المقابر مغطاة بالطين الذي كان معظمه مكسورًا ومحطمًا. أخبرنا مرشد مسيحي أنّ هذا التحطيم كان بسبب الكلاب والذئاب، ولكنّ أحد أتباع الملة المحمدية أخبرنا أنّ هذا التخريب والتلف توقف الآن بعد وجود المراقبة الجيدة للمقابر. هناك كتاب قديم ونادر يُلقي الضوء على ماهية هذا العمود. في القرن الثاني عشر ميلادي عندما اجتاح الصليبيون سوريا زار عالم فيزيائي من بغداد يُدعى "عبد اللطيف"[90] مصر وأقام هناك لبعض الوقت، ثم دوّن ملاحظاته عما رآه في مصر في كتاب رائع ترجمه عدد من العلماء العرب. كانت أفضل تلك الترجمات هي ترجمة "دي ساسي"[91] (باريس- 1810). يقول عبد اللطيف إنّ العمود الذي نُطلق عليه الآن اسم "عمود بومباي" الذي يمكن رؤيته بوضوح من البحر كان العرب يسمونه "عمود السواري" وأنه رأى بنفسه بقايا أكثر من أربعمائة عمود من نفس مادة الصنع ملقاة على شاطئ البحر، ثم يُفصّل كيف جاءت تلك البقايا إلى هناك. انقلب حاكم الاسكندرية –الضابط الذي عيّنه صلاح الدين ليكون مسؤولًا عن المدينة- على صلاح الدين وكسر تلك الأعمدة ليصنع حاجزًا في المياه! كان هذا

---

[90] عبد اللطيف كتاب "الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار" الكتاب الأول – الفصل الرابع + ملحق أ.(المؤلف)
[91] De Sacy "أنطوان إيزاك سِلفستر دي ساسي" مستشرق فرنسي لقب بـ"شيخ المستشرقين الفرنسيين".

الفعل -حسبما ذكر عبد اللطيف- تصرفًا أخرقَ طفوليًّا، أو أنه تصرف صادر عن رجل لا يعرف الخير من الشر." ويستطرد الكاتب قائلًا: "لقد رأيت أيضًا حول "عمود صف الأعمدة" بعضًا من بقايا تلك الأعمدة، كان بعضها أعمدة كاملة بينما كان البعض الآخر مجرد بقايا. بدا واضحًا من خلال بقايا تلك الأعمدة أنها كانت جميعها مغطاة بسقف واحد تدعمه تلك الأعمدة. كانت هناك قبة فوق العمود ترتكز عليه. أعتقد أنّ هذا كان هو الرواق الذي درس فيه أرسطو وتلاميذه من بعده، وأنّ هذه كانت الأكاديمية التي أقامها الإسكندر عندما أنشأ المدينة وهو المكان الذي كانت فيه مكتبة الإسكندرية التي حرقها عمرو بأمر من عمر [92]. يذكرنا "دي ساسي" أنّ الدمار المزعوم الذي حدث للقبّة لا بدّ وأنْ يكون قد حدث قبل ثلاثين عامًا من زيارة عبد اللطيف لمصر على الأكثر، كما أكد هذا الأمر "كل سكان مدينة الاسكندرية دون استثناء" وكذلك المسافرون، لذا ليس من المنطقي التشكيك في الأمر. لقد قرر أنّ هذا هو المكان الذي كان به معبد السيرابيوم الشهير. كان المشهد من قاعدة العمود رائعًا للقادمين الجُدد. كانت الحصون ترتفع في خطوط طويلة بينما كان هناك مجموعات من العرب يعملون في تفتيت التربة الساخنة البيضاء ويراقبهم مجموعة من الضباط. تجاه الجنوب الشرقي، حظينا برؤية رائعة لبحيرة مريوط التي بدا شاطئها الرفيع وكأنه سيصبح عرضة للانهيار مع أول موجة من مياه البحيرة. كانت المساحة بين البحيرة والبحر عبارة عن نطاق موحش. بالقرب من البحيرة كان هناك شريط من النباتات وبعض المستنقعات والحقول والبساتين، كما كان هناك أيضًا بعض المنشآت على القناة وقاربٌ شراعي ينساب بين الأشجار.

ذات صباح، حظينا برؤية أوضح من الحصن الذي يقع على ربوة "كريتين" [93]. أعتقد أنّ هذه النقطة هي الأفضل على الإطلاق لرؤية المنطقة بأسرها. كنا نفكر في أنْ نحذرَ أولئك العرب الذين توقفوا عن العمل ليحدّقوا النظر بنا من خلف الحافات ويروا ما كنا نفعله بالتلسكوب (المقراب) والخريطة والبوصلة. كانت المياه تحيط بالمشهد برمته -البحر وبحيرة مريوط- باستثناء مساحة صغيرة في الشمال الشرقي وهذه المساحة كانت تغطيها منارة ومجموعة من المنازل. باستثناء بعض النخيل الذي كان بيننا وبين بحيرة مريوط تجاه الجنوب، وهي المنطقة التي كان بها

---

[92] نفى كثير من المؤرخين تهمة إحراق عمرو بن العاص للمكتبة واتفق البعض على أنّ يوليوس قيصر هو الذي أحرق مكتبة الإسكندرية بسبب الحريق الذي بدأه لتدمير الأسطول المصري المرابط في ميناء الإسكندرية

[93] Cretin.

مجموعة من منازل البلدة تقف بوضوح في مواجهة سماء الصباح، لم يكن حولنا سوى أكمة من القمامة يبدو منظرها أكثر كآبة ووحشة من الصحراء، لأنّ هذه الكآبة مستحدثة وليست طبيعية. لو كنا نقف على هذه البقعة منذ زمن ليس بالسحيق أيام البطالمة (وهو زمن تعلمنا مؤخرًا أنْ نعتبره حديثًا إلى حد ما) لكان من العسير أنْ ندرك الدمار الحالي الذي حلّ بالمكان، أكثر من صعوبة تخيُّلنا الآن للمدينة في أيام عظمتها وفخامتها. فمن ناحية، كنا سنرى بيننا وبين البحيرة الميدان وبه الحشود التي تمشي ذهابًا وإيابًا، ومن ناحية أخرى كنا سنرى الملعب الذي يعجُّ بالحشود. أما في المكان الذي يقف فيه عمود "بومباي" وحده، كنا سنرى صفوفًا طويلة من الأعمدة للسيرابيوم البديع. على حافة الميناء القديم كنا سنرى الأعمدة الفخمة لجسر الهيبتاستاديون[94] الذي يصل جزيرة فاروس بالمدينة الرئيسية. أما الميناء العظيم الذي يُطلق عليه اليوم "الميناء الجديد" فهو الآن يرقد بعيدًا ولا يوجد في محيطه أي سفينة أو قارب، لا يوجد سوى تلال من الرمال المقفرة حول هذا الخليج الذي كان يعجّ ذات يوم بالمباني والحشود من الناس. بالجوار، كان هناك معبد الملكة "أرسينوي"[95] والمسرح، والقصور الداخلية، وكذلك السوق. أما الآن في يومنا هذا، فعندما ننظر هنا لا نرى أي أثر للحياة فيما عدا العرب الذين يعملون في الحصون وشخصًا أو اثنين في المقابر التي بالقرب منا. كان العمل في الحصون في حد ذاته يبدو أمرًا عبثيًّا وفقًا لما تراه العين فلم يكن هناك شيء يمكن أخذه من المدينة وبالتالي لم يكن هناك شيء يجب الدفاع عنه. فباستثناء اتجاه المدينة الصغيرة التي بدت رديئة المظهر، كانت المساحة التي تقع داخل محيط الأسوار الجديدة خالية إلا من المساحات المتربة وأكوام القمامة مع وجود بعض الأكواخ الرديئة ومجموعات النخيل المزروعة في الوسط، وجبانة أو اثنتين بهما مقابر محطمة. لقد رأيت الكثير من الأماكن الخربة والموحشة في العديد من البلدان ولكن لا شيء يضاهي مدينة الإسكندرية وكآبة منظرها عندما تُشاهد من الأعلى. أخبرنا أصدقاؤنا أنهم كانوا مسرورين لأننا مكثنا بضعة أيام لنرى ما يستحق المشاهدة هناك ونروّح عن أنفسنا من خلال رؤيتنا لبعض الأمور الأفريقية المبتكرة فقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يلجأ إليها سكان الإسكندرية لإثارة الاهتمام. لا يرجع أي من الزوار

[94] جسر بناه دينوقراطس عرضه600 قدم وهو أطول بسبع مرّات من الملعب اليوناني.

[95] Arsinoe أرسينوي الثانية هي أرسينوى بنت بطليموس الأول وبرينيكي الأولى. ولدت عام 316 ق م وماتت في شهر يوليو من عام270 ق م.

أبدًا إلى الإسكندرية بعد رؤية جمال القاهرة والاستمتاع بآثار صعيد مصر. سيكون الأمر عجيبًا حقًا إذا عاد أي شخص إلى الإسكندرية على الرغم من تمكنه من أنْ يغادر البلاد بأي طريقة أخرى.

قبل أنْ نغادر ربوة "كريتين" ذلك الصباح نظرنا في إحدى الحفر التي كان العمال يحفرونها ورأيناهم يكشفون النقاب عن عمود من الجرانيت الأحمر – كان لامعًا ولا تشوبه شائبة. كان بعض العمال الآخرين يفصلون أجزاءً من الأسوار الرومانية الضخمة بحثًا عن الطوب. في مثل هذه الأماكن يجد المسافر نفسه يفكر في مخططات جنونية لإزالة الغبار وإماطة اللثام عن المدن المدفونة بمحاذاة وادي النيل.

خلال الأربعة أيام التي أمضيناها بالإسكندرية رأينا المناظر المعتادة مثل قصر الباشا، والترسانة البحرية، وحديقة التاجر اليوناني التي كان الباشا يذهب إليها لتناول فطوره، كما استمتعنا بحسن ضيافة العديد من الأوروبيين المقيمين بالإسكندرية. سمعنا أيضًا الكثير عن الأخبار السياسية ولكنني لن أكتب أي شيء في هذا الصدد. كان هناك غِيرة متبادلة بين الأوروبيين المقيمين في مصر ولذا كان الأمل ضئيلًا في التوصّل لفهم عادل وتفسير للأحداث التي تحدث اليوم تحت وطأة هذه الغيرة، فالحل الوحيد الذي يمكن للمسافرين فعله حتى لا يسببوا مزيدًا من الأذى هو ألا ينقلوا أي خبر. بالطبع لديّ بعض الانطباعات عن التوقعات المحتملة للسياسة في مصر، وعن طبيعة بعض التحالفات مع العديد من القوى الأوروبية، ولكن بما أنّ أي كلمة تُقال من أي شخص تُستخدم وقودًا لإشعال المزيد من الغيرة وذريعة للمزيد من التكهنات عن المستقبل، لذا تقتضي المصلحة لتحقيق السلام وحسن النوايا الصمت من المسافرين الذين لن تكون آراؤهم -حتى أفضلها- تستحق تحمّل الضغينة التي ستنجم عن تعبيرهم عن تلك الآراء.

(1848)

"الشرق: اسكيتشات السفر إلى مصر والأرض المقدسة" – جيسي أميس سبينسر

THE EAST:

SKETCHES OF TRAVEL

IN

EGYPT AND THE HOLY LAND.

BY THE

REV. J. A. SPENCER, M. A.

AUTHOR OF "THE CHRISTIAN INSTRUCTED;" EDITOR OF "THE NEW TESTAMENT IN GREEK, WITH NOTES ON THE HISTORICAL BOOKS;" MEMBER OF THE NEW YORK HISTORICAL SOCIETY, ETC., ETC.

Elegantly Illustrated from Original Drawings.

. . . . "Those holy fields,
Over whose acres walked those blessed feet,
Which, fourteen hundred years ago, were nail'd,
For our advantage, on the bitter cross."

KING HENRY IV.

NEW YORK:
GEORGE P. PUTNAM, 163 BROADWAY.
LONDON: JOHN MURRAY.
1850.

من "الخطاب الأول"

الإسكندرية- ديسمبر (كانون الأول)، 1848

عزيزي S،

وصلنا أخيرًا إلى أرض مصر، كانت رحلتنا حتى الآن ناجحة وقد وصلنا بالسلامة إلى نقطة في جولاتنا كنا نتطلع إليها بفارغ الصبر. ربما تذكر أنني في خطابي السابق ذكرت لك أنني وصلت أنا والسيد " P " إلى "فاليتا" [96] في جزيرة مالطا. قضينا حوالي أسبوع هناك بكل سرور - وليس دون جدوى- في استكشاف العديد من الأشياء المثيرة للاهتمام التي تحويها تلك الجزيرة المعروفة وخاصة في زيارة مدخل أو فتحة الشاطئ الشمالي الغربي والمعروفة باسم "خليج القديس بولس" [97]

[96] Valetta عاصمة مالطا وأكبر مدنها.

[97] St. Paul's بولس الطرسوسي ويعرف أيضًا ببولس الرسول أو القديس بولس. هو أحد قادة الجيل المسيحي الأول وينظر إليه البعض على أنه ثاني أهم شخصية في تاريخ المسيحية بعد يسوع نفسه.

الذي يعتقد أهل مالطا اعتقادًا راسخًا أنه الموقع الذي تحطمت فيه سفينة القديس بولس وحراسته. قضينا بعض الوقت في الإعداد لسفرنا إلى الشرق وفي ابتياع العديد من الأشياء التي كنا في أمسّ الحاجة للحصول عليها قبل أنْ نمضي قُدمًا ونعبر بعيدًا عن وسائل الراحة والحضارة الأوروبية. بعد أنْ أتممنا الترتيبات المختلفة وأخذنا خادمًا مالطيًّا ودّعنا مالطا وضيافتها في التاسع من الشهر (ديسمبر) واتجهت أفكارنا وأمنياتنا إلى مصر وعجائبها الغامضة. ركبنا باخرة تابعة للحكومة الفرنسية تُدعى "إيجيبتوس" [98]. كانت سفينة كبيرة ومجهزة على أعلى مستوى كما كان قبطانها يتحدث الإنجليزية بطلاقة وينصت جيدًا لرغبات الركاب. حظينا بطقس رائع إلا أنّ البحر كان هائجًا وكان من الممكن أنْ تكون هناك عواقب وخيمة لذلك الأمر. كان من بين ركاب السفينة أحمد بيه وإسماعيل بيه –ابنا إبراهيم باشا- اللذين اضطرتهما وفاة والدهما أنْ يتركا المدرسة العسكرية في باريس ليحضرا مراسم تجهيز والدهما ودفنه. كانا شابين يافعين يبلغ عمر أحدهما عشرين عامًا والآخر اثنين وعشرين عامًا. كانا قصيري القامة وبدينين وكانت أعينهما صغيرة وغير معبّرة. كان مظهرهما يوحي بأنهما غير مثقفين، كما كانت ملابسهما نصفها فرنسي والنصف الآخر تركي، الأمر الذي ينم عن ذوقٍ سيئ جدًّا. بالطبع لم يكن هذا الأمر جديرًا بالذكر لولا أنّ ذكر اسم إبراهيم باشا جعلنا نتوقع أنْ نرى شيئًا جديرًا بالاحترام على الأقل، كما أنّ صلتهما بأسرة "محمد علي" جعلتنا نفترض أنهما قد يتمتعان بشيء من العبقرية التي جعلت والدهما- باشا مصر المتوفى- يحظى بهذا المنصب الهام في التاريخ. بالرغم من ذلك، لم يكن هناك أي شيء من هذا القبيل في سلوكهما، أو حديثهما، أو مظهرهما، ومع أنني لا يمكنني أنْ أنكر احتمالية تمتعهما ببعض الصفات الراقية، إلا أنني أشعر بالأسف وأنا أقول إنه لم يكن هناك أي إشارة ولو طفيفة لأي شيء من هذا القبيل ونحن على ظهر سفينة "إيجيبتوس".

قرب مساء يوم الثالث عشر وصلنا إلى الميناء الذي كان من المقرر لنا أنْ نصل إليه، وطبقًا لما ذكره أحد المرشدين العرب الهزيلين -الذين كانوا على مسافة منا- كنا قد تأخرنا على الدخول للميناء. بالرغم من ذلك، كان قبطان سفينتنا رجلًا نشيطًا وعلى دراية جيدة بالإبحار في البحر المتوسط بشكل عام، وبدخول الإسكندرية على وجه الخصوص، لذا ترك المرشدين وأفكارهم الغريبة عن قضايا الملاحة البحرية

[98] Egyptus.

بكل هدوء وقاد "إيجبيتوس" حتى الميناء دون أي إزعاج أو صعوبات ثم رسا في مكانه المعتاد في الميناء بالقرب من العديد من البواخر التركية والإنجليزية الأخرى.
في صباح اليوم التالي، التقت أعيننا للمرة الأولى بمشهد بعيد لما تبقى مما كانت يومًا ما المدينة الفخمة التي أسسها الفاتح المقدوني وذاع صيتها في عهد البطالمة الأوائل. من البحر لم يكن هناك الكثير الذي يجذب الانتباه بالنسبة للمسافر. فقد كنا نرى ضباط الباشا الذين كان منظرهم زائفًا لوقوفهم دون جدوى، والمنارة الشامخة، وطواحين الرياح على الهضاب المجاورة، والقصر الأبيض الضخم، والحرملك، وبعض المآذن في المدينة، والتنوع الفريد للطراز الأوروبي والمصري، إذا كان بإمكاننا أنْ نطلق عليه ذلك. لم تكن المباني المرئية على مرمى البصر ولا رؤية المدينة على النحو الفعلي الذي هي عليه الآن يُبهر المرء لأنه لا يُظهر عظمة مدينة الإسكندرية ولا بهاءها، فلم تكن تلك الأشياء تعطي انطباعًا جيدًا عن الحالة الحقيقية للمدينة. من ناحية أخرى، أعتقد أنّ هذا الأمر يُثير مخيلة الفرد، أو أنّ سياسات "محمد علي" تسببت في الكثير من الضرر أكثر من النفع، فلا يُمكن أنْ ننكر أنّ المدينة الحالية التي تحمل اسم أحد أعظم الأبطال عبر التاريخ تُسبب الإحباط والضيق والاشمئزاز للمسافرين. هذا على الأقل هو الانطباع الذي يرسخ في الذهن بعد المكوث بضعة أيام في الإسكندرية، وهو الانطباع الذي –أشعر بالأسف لأقول- لم يغيره أي شيء قط بالنسبة لي بغض النظر عن العديد من الأفعال التي أظهرت لطف أهل المدينة الذين –على الرغم من كونهم سكندريين- إلا أنني أفتخر بتسميتهم أصدقائي.
كان مشهد الرسو فريدًا بالنسبة للأوروبين أو الأمريكيين، فما إنْ حصلت الباخرة على براءة الحجْر الصحي حتى ألفينا أنفسنا محاطين بخمسين أو مائة قارب بها مجموعات متنوعة من أناس ذوي بشرة داكنة ومعممين ونصف عرايا وبدائيين إلى حد ما. كانوا جميعًا يصيحون ويقومون بإشارات عديدة وبحوزتهم العديد من الآثار من العصور الغابرة. لقد بذلت قصارى جهدي وسوف أبذل المزيد من الجهد لأفحص كل شيء يُقدّم لنا بعناية شديدة قدْر المستطاع دون أي انحياز أو إجحاف وبذاكرة ثاقبة، لأنّ الله هو الذي يحكم في شؤون العباد وفقًا لما يُرضيه، وطبقًا لقدراتي سأحاول جاهدة أنْ أضع بين أيديكم الوضع الحالي للأشياء والحقائق الواقعية لحياة الناس الذين أقيم معهم حاليًا وسلوكياتهم وملابسهم وعاداتهم وخلافه.

إنني لا أتمنى أن أصل إلى درجة الذكاء المتقد التي وصل إليها البعض ممن كتبوا عن الحياة الشرقية وأمتعوا العالم وأبهروه بالصور الحية التي صوروها للمشاهد التي كانت حالمة للغاية بالنسبة لأولي العقل الحصيف، ولكنّ هدفي أكثر تواضعًا من ذلك، فأنا لديّ البصيرة الأبية لأعلم أنّ رغبتي تلك – في نظركم وكذلك في نظر أولئك الذين أقدّر آراءهم الجيدة - لن تُثنيني عن ذكر الحقيقة أو عن صحة ما قد أكتبه. فالحقيقة المجردة والكاملة هي دائمًا ما يصبو إليه الشخص المسيحي، ومع ذلك فأنا لا أجرؤ على أنْ أتظاهر ولو للحظة أنني قادرة أو سأكون قادرة على تقديم الحقيقة الكاملة في كل صورها فيما يتعلق بمصر والشرق بشكل عام. إنني واثقة أنني ليس لديّ أي رغبة في الحياد عن الحقيقة لا يمينًا ولا يسارًا. أعلم أنني ليس لديّ أي رغبة في أنْ أضحي بقول الحقيقة لأجمّل التعبير أو لأجعل السرد يبدو متألقًا أو لاذعًا. وبناءً على ذلك فإنني واثقة من أنني سأجعلك يا عزيزي "S" في بعض الأوقات مشاركًا في المتعة والميزات التي حظيت بها خلال زيارتي الحالية للشرق، وأرجو أنْ تسامحني على الإطالة في هذا الأمر وأعدك أنني بعد أنْ أوضحت لك هدفي وتوقعاتي فسوف أكفّ عن الحديث عن هذا الأمر مطلقًا.

الإسكندرية –كما يُطلق عليها العرب ذلك- كما هي موجودة الآن ليست كبيرة كما تعلم. لقد حدث بها الكثير من التغيرات العديدة منذ أن اختار ابن "فيليب"[99] تلك البقعة ليؤسس مدينة يمكنها منافسة العالم بأسره. لا يمكن للمدينة الحديثة أنْ تتفاخر بالكثير لا من حيث المساحة ولا من الناحية الجمالية، وبينما تُعزى أهميتها الحالية وتطورها في الأيام الماضية[100] إلى عبقرية "محمد علي" وسياسته إلا أنها لا تزال تظهر بالنسبة لأعيننا على أنها أطلال مجد وعظمة بائدين، لأنها في حالة لا يمكن أنْ يكون هناك ما هو أسوأ منها. من الغريب مقارنة ما ذكره المؤرخ "سترابو"[101] بمشاهدات الرحالة المعاصرين. يقول "سترابو" في كتابه العظيم عن الجغرافيا: "كان موقع المدينة يتخذ شكل درع (مقدوني) مغمور جانباه الأطول بالمياه لمسافة

[99] المقصود هو "الإسكندر الأكبر" لأنه كان ابن الملك فيليب الثانى المقدوني.

[100] انخفض عدد سكان مدينة الإسكندرية حتى وصل 6000 نسمة، كما قيل، وأسماها بعض الرحالة بالمدينة الصغيرة الهجينة، ولكن تحت حكم الباشا الراحل ارتفع عدد السكان ليصل إلى 80000 نسمة من بينهم 20000 منضمين إلى الخدمة العسكرية والبحرية. وبحسب "ويلكنسون"، كان سكان الإسكندرية من سلالات مختلفة من الساحل البربري وجميع أرجاء مصر والأتراك والألبان والسوريين واليونانيين واليهود والأقباط والأرمن والمستقلين من مستوطني فرانك. تم التأكيد على أنّ المظهر العام للمدينة من الناحية المادية تحسن أيضًا. (المؤلف)

[101] Strabot سترابو - وسماه العرب اسطرابون - مؤرخ وجغرافي وفيلسوف يوناني. سترابو، جورج، فصل 17، ص 793، طبعة باريس، 1620. (المؤلف)

ثلاثين ستاديا (مقياس يعادل 3 ونصف ميل) مع وجود البحر من ناحية والبحيرة (بحيرة مريوط) من ناحية أخرى. تقسم المدينة شوارع رحبة تمر من خلالها الأحصنة والعربات بكل حرية، ولكنْ كان هناك شارعان أكثر اتساعًا من غيرهما حيث كان عرضهما يزيد عن "بليثرم" [102] (مقياس يساوي 101 قدم) وتتقاطع هذه الشوارع مع بعضها بعضًا في زوايا مستقيمة. تشغل معابد الإسكندرية ومبانيها العامة وقصورها حوالي ربع أو ثلث مساحة المدينة بأكملها، لأنّ كل ملك تلو الآخر – يصبو إلى شرف تجميل تلك الآثار المقدسة- كان يُضيف بصمته على ما هو موجود بالفعل. لم تكن كل هذه الأجزاء متصلة ببعضها بعضًا فحسب، بل متصلة أيضًا بالميناء والمباني المُقامة خارجه." [103] قليل من أولئك الذين زاروا الإسكندرية مؤخرًا يمكنهم أن يتخيلوا أنها كانت تستحق ذات يوم الوصف العظيم الذي قيل عنها، أو أنها كانت بالفعل تلك المدينة المهيبة البديعة التي أخبرنا عنها القدماء. فلم يكن هناك أي شخص إلا ويتحدث عن خيبة الأمل التي أصابته بسبب الأماكن التي قرأنا عنها وأثارت مخيلتنا وجعلتنا متحمسين وما فتئنا نفكر في المجد والصيت الذي تمتعت به المدينة، ولكن لا شيء يقمع ذلك الحماس أو يدمره تمامًا مثل مشهد مدينة الإسكندرية الحالي. لست بحاجة إلى أنْ أنقل لكم ما قاله الآخرون لأُثبت لكم ما كانوا يشعرون به، ربما يكون كافيًا أنْ أصرّح –وهذا دون أي نية للتقليل من شأن المدينة التي كان موقعها يعد الأهم بالنسبة للتجارة مع الشرق الأقصى- أنني شعرت بالاستياء لأنني كنت أتوقع الكثير، ولكن مع الأسف صُدمت بالواقع الأليم الذي رأيته بأم عينيّ.

ولكن حتى لا أسهب في هذه الملاحظات العامة التي أخشى ألا تقدم أي فكرة واضحة، اسمحوا لي أنْ أخوض في التفاصيل بعض الشيء. دائمًا ما كنت أتجول

---

[102] Plethrum مقياس يوناني.

[103] وفقًا لـ"بلينري" (تاريخ. نات. v10)، كان محيط الإسكندرية القديمة خمسة عشر ميلًا، كما كان سكانها أكثر من 300000 نسمة بالإضافة إلى عدد مماثل من العبيد على الأقل. كما كان الرومان أيضًا يعتبرونها المدينة الثانية في الأهمية بعد عاصمتهم وحتى قديمًا عام 640 م عندما استولى عليها السراكينوس –مصطلح استخدمه الرومان للإشارة إلى سكان الصحراء في إقليم البتراء الروماني ثم أصبح يطلق على العرب وفي العصور الوسطى وخلال الحروب الصليبية توسع المصطلح ليشمل كل الذين يدينون بالإسلام- احتفظت المدينة بثرواتها الأصلية وبهائها وفخامتها. يقول عمرو في خطابه للخليفة: "لقد استوليت على مدينة الغرب العظيمة. يصعب عليّ أنْ أحصر ثرواتها المتنوعة وبهاءها، لذا سأكتفي بأنْ أذكر أنها تحتوي على 4000 قصرٍ و4000 حمّامٍ و400 مسرحٍ أو أماكن ترفيهية 12000 حانوتٍ لبيع الخضروات و40000 يهودي تابعين." سوف تذكّر أنّ أهمية المدينة تلاشت تمامًا عند اكتشاف رأس الرجاء الصالح عام 1497 بفضل جرأة البرتغاليين ومهارتهم ولكنْ على الأرجح استمرت المدينة في الحفاظ على أهميتها بشكل كبير الآن لأنّ بريطانيا تحتاج إليها لتصل إلى مستعمراتها الشاسعة في الهند. (المؤلف)

في المدينة في كل اتجاه، في بعض الأحيان سيرًا على الأقدام وفي البعض الآخر ممتطية حمارًا. فقدتْ مدينة الإسكندرية طابعها الشرقي في العديد من الجوانب ولا يمكن القول إنها تُعطي فكرة جيدة عن المدينة ذات الطابع الشرقي، فقد بدا تأثير العادات والتقاليد الأوروبية جليًا، وكذلك تأثير التعامل مع الفرنسيين والبريطانيين، ومن المحتمل مع مرور الوقت وبسبب ضرورة وجود ممر حر ومباشر لبريطانيا لمستعمراتها في الهند من خلال الإسكندرية والسويس والبحر الأحمر أنْ يصبح التغير ملحوظًا بشكل أكبر، ووفقًا لما نعتقده فإنّ تطوير المدينة هو الأهم. أما بالنسبة للحال الذي عليه مدينة الإسكندرية الآن، فهي تبدو موحشة ومستهجنة لمن اعتاد على الشوارع النظيفة الممهدة، والجادات الرحبة التي تُنظف وتُغسل وتُضاء أثناء الليل بالمصابيح الغازية، والمباني العامة والخاصة الأنيقة، والعديد من وسائل الراحة التي يتمتع بها المجتمع الراقي في غرب أوروبا. كانت الشوارع في مدينة الإسكندرية غير ممهدة، لذا كانت إما متسخة أو موحلة، كما كانت نوعية التربة تجعل كلتا الحالتين –الوحل أو الاتساخ- يبعثان على الضجر، وذلك حتى على الرغم من أننا كانت لدينا خبرة مع الوحل لأنّ كميات كبيرة من الأمطار الغزيرة هطلت مؤخرًا وجعلت الشوارع والطرق موحلة وبشعة. بشكل عام لم يكن هناك شوارع أو جادات واسعة، فقد كانت الممرات التي تربط بين أجزاء المدينة ضيقة ومتعرجة ومخططة بطريقة لا تأخذ في الاعتبار راحة العامة. كما يمكن أنْ نتصور، يستقر الوحل بهدوء حتى يجف بفعل الشمس والرياح والدق المتواصل والبعثرة والنثر الذي يقوم به الفلاحون حفاة الأقدام. أما الغبار فقد كان يتناثر ويسبب مصدرًا دائمًا للإزعاج حتى تهطل الأمطار وتحوله إلى طين لازب. كان من المستحيل الخروج من المنزل ليلًا دون اصطحاب خادم ومشكاة، فباستثناء بعض الوميض من الضوء العرضي هنا وهناك في بعض المنازل في ميدان القناصل، كانت المدينة تلتحف الظلام الكئيب الذي لا يمكنني وصفه بأي طريقة إلا بكونه ثقيل الوطأة ومُستهجن لأقصى درجة. إذا استثنينا ميدان القناصل أو ذلك الجزء الذي يقيم فيه القناصل ومعظم الأجانب، فسوف تعترينا الدهشة عندما نرى جوّ الوحشة والبؤس -ليس هذا الوصف مُبالغًا فيه- فكثير من أجزاء المدينة الحالية عبارة عن منازل غير مكتملة البناء، وأجزاء من الأسوار، وأكوام من الحجارة والدنس. كانت هناك مجموعات من المتمددين بشكل فوضوي، والأكواخ البائسة التي ليس لمعظمها سقف ومجردة

من كل وسائل الراحة التي تُعين على متطلبات الحياة- ولكي أضع الصورة كاملة بين أيديكم، كان الناس يرتدون نصف ملابسهم ويغطيهم الدنس وتبدو عليهم المهانة، كما كان الرجال والنساء والأطفال يمشون مع مواشيهم القليلة في طريق الطيور والماعز والحمير وكل منهم يقطن الركن المفضل في محل إقامته وكأنهم جميعًا على قدم المساواة. كانت هذه الأمور وما شابهها هي الأشياء التي تصدم المسافرين الذين يأتون إلى مصر من بلد مثل بلدنا حيث الحضارة والتطوير وانتشار سبل الراحة ونِعم الحياة التي تعدُّ أهم ما نفخر به ونعتبره امتيازًا ثمينًا.

أما الجزء العربي من المدينة فلا يمكن أن يُطلق عليه سوى أنه متاهة من الشوارع والممرات الضيقة والطرق المتعرجة. كانت المنازل ذوقها سيئ وتبدو رديئة المنظر تحت أشعة الشمس الحارة، كما تبدو متكلسة ونادرًا ما يكون لها أية نوافذ في الواجهة، كما كانت تجسد مشهدًا مقيتًا وكئيبًا. أما في الشوارع والطرقات التي تقع بها الحوانيت، فقد كان المشهد دائمًا مفعمًا بالحيوية وشرقيًّا على وجه الخصوص في العديد من الجوانب. كان كل شيء منفتحًا على الشارع، وفي أحد الحوانيت الصغيرة كان صاحب الحانوت يجلس على منطقة مرتفعة بعض الشيء عن المكان الذي يعبر منه المارة وهو يدخن الغليون وحوله البضائع التي يبيعها. كان ينتظر الزبائن التي تعبر وتتجمع بين الحين والآخر من العرب، والأتراك، واليونانيين، والأقباط، والأجانب، من جميع الجنسيات في تراخٍ وخمول، ثم يبدأ في المناقشات الطويلة المضجرة والمزعجة للتخفيض في السعر والمساومة حيث كانت تنشأ مشاجرات كلامية بين الحين والآخر. في الوقت نفسه كان هناك حشد من الأفراد يعبرون، كثير منهم مترجلون وبعضهم يمتطي حميرًا أو مكاريًّا. كان الصبية الذين يسوقون الحمير يصرخون في الناس ليأخذوا حذرهم. مرت الآن مجموعة من الجِمال عليها أحمال ضخمة وكانوا يتحركون ببطء إلى الأمام مما جعل الجميع يُفسح لهم الطريق. كان هناك مجموعة من الضباط المصريين يرتدون ملابسهم القطنية البيضاء وطرابيشهم ذات اللون القرمزي اللامع ويسيرون تجاه ثكناتهم.

تصادف الآن مرور شخصية هامة يسبقها سائس يمسك بسوط كبير في يده وهو يمتطي شيئًا مُغطى ومختفيًا بالحرير ومنفرج الساقين على حماره الذي غالبًا ما يكون عليه طفل يجلس في الأمام ويمشي الهوينى بهدوء وسط الحشود مع وجود سائق مرافق أو سائس وهكذا يمرون واحدًا تلو الآخر ويُحدثون جلبة وضجيجًا لا

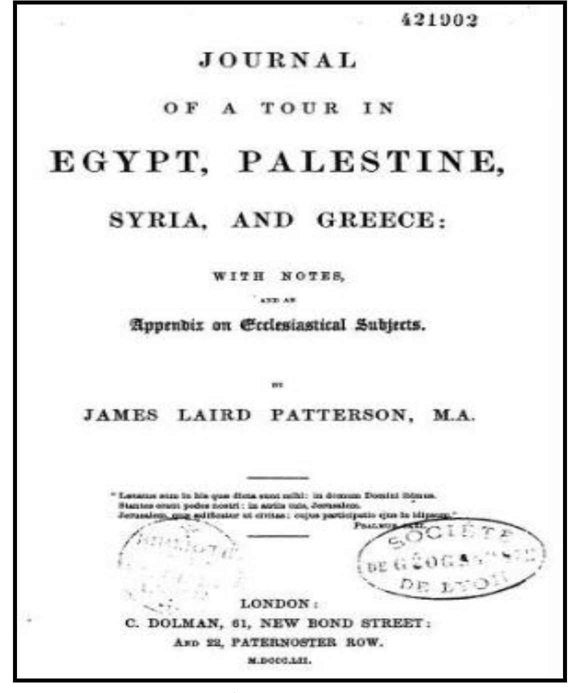
طائل من ورائه. هكذا يقضي العرب أيامهم يومًا بعد يوم وعامًا تلو الآخر دون طموح ويبدو أنهم يقضونها دون أي أمل تقريبًا.

لا أشعر أنني حتى هذه اللحظة خلال جولاتي رأيت ما يكفي من حياة المصريين وسلوكياتهم حتى أتمكن من الحديث بدقة عن المشاهد الغريبة والشيقة التي تحدث بشكل يومي أمام أعيننا. سوف أتحدث عن التفاصيل لاحقًا عندما أهدف إلى أنْ أقدّم وصفًا كتابيًّا للأمور التي تهمك بقدر ما تسنح لي الفرصة، ولكنني لا أستطيع أنْ أكفّ هذه المرة عن سرد عبارة أو عبارتين عن الفلاحين أو عامة الشعب في مصر. للوهلة الأولى يبدو أنه لا شيء يمكن أن يكون أسوأ من أحوالهم، فهم بالكاد يرتدون الملابس في أفضل الحالات، وغالبًا ما يكونون مجردين من ثيابهم البالية التي لا تغطي أجسادهم العارية وهم يجلسون القرفصاء في الزوايا في الأجزاء المشمسة من الشوارع أو يتمددون بطول أجسادهم على الأرض. أما الأطفال فعادة ما يكونون عرايا تمامًا كما ولدتهم أمهاتهم، كانوا جميعًا -دون استثناء- يبدو عليهم القذارة والدنس بسبب الإهمال كما يمكن تصوره في الأساطير، أما الرجال فقد كانوا يدخنون الغليون إذا كان بإمكانهم الحصول عليه، وكانت المرأة من النساء اللاتي لديهنّ أطفال تحمل أحد أطفالها وهو منفرج الساقين بين كتفيها وتمسك بالطفل الآخر بين ذراعيها، أو تحمل أحمالًا ثقيلة على رأسها. كل أولئك كانوا ذوي بشرة داكنة وأرجل وأذرع عارية وبعض الأمور والغرائب الأخرى التي لا يمكنني ذكرها ولكنها تُسبب صدمة لا يمكن وصفها بالعبارات وبالتأكيد تُعطي انطباعًا عن تدني مستوى المصريين العصريين إلى أدنى مستوى ممكن في المقياس الاجتماعي. على الرغم من ذلك، ليس من الإنصاف أنْ نأخذ جانبًا واحدًا من الأمر ونغفل الجانب الآخر: بالفعل كان المصريون يشعرون بالمهانة والقهر وكانوا غير متعلمين ويؤمنون بالخرافات لدرجة يصعب تصديقها، كما كانوا محرومين من كل وسائل الراحة والمتعة التي نعتبرها نحن ضرورية لتحقيق السعادة، ومع ذلك سوف تعتريك الدهشة -كما حدث لي- عندما ترى طيبة أخلاقهم وصبرهم وتحملهم للمشاق والإملاق، وابتهاجهم الصاخب، وعطفهم الشجي، وحنو الأمهات على أطفالهن، ورضاهم بالأجر الضئيل. إنّ هذه الصفات -التي لا تُثبت أي شيء فيما يتعلق بأحوالهم عندما تقاس بمقياس الحضارة الغربية والرقي- إلا أنها تُظهر أنهم لم يعرفوا شيئًا قط عن الحضارة الغربية، لذا لا يمكنهم أنْ يشعروا بالحاجة إلى ما

تعودنا نحن على اعتباره ضروريات الحياة. ومع ذلك لا بد وأنْ أعترف أنّ المشاهد التي رأيتها هنا مُحبِطة ولا تبعث على السرور بالنسبة لمن اعتاد على التفكير مليًا في النظافة والأمور التي تتعلق بذلك. كما ذكرت آنفًا، من الطبيعي أنْ ترى أطفالًا عراة تمامًا في الشوارع وفي أطراف البلدة، وكل من النساء والرجال غالبًا لا يرتدون ملابس كافية لتغطية أجسادهم (أعني وفقًا لما تعودنا نحن عليه) وهو الأمر الذي يعتبر صدمة بالنسبة لأفكارنا عن الأناقة وخصوصًا عن الاحتشام. بالرغم من ذلك، سريعًا ما يعتاد المرء على كل هذه الأمور وعلى غيرها من الأشياء إلا أنه أمرٌ مستهجن بسبب شيوعه وكونه يتعلق بأحد الخرافات السخيفة التي يؤمنون بها. أعني أنهم يخشون من عين الحاسد وهذا هو السبب في أنهم يتركون الأطفال عامة في حالة مُزرية وبغيضة وخاصة أعينهم حتى لا تصيبهم عين الحاسد. ينتشر التهاب العيون بشكل يُرثى له في جميع أنحاء مصر خاصة بين أهل البلد الأصليين وهو الأمر الذي قد يتعجب منه المرء الذي ليس على دراية كافية بالأسباب التي تؤدي إلى انتشار مثل هذه العدوى الخطيرة. تختفي هذه الدهشة عندما يكتسب المرء بعض الخبرة ويصبح على دراية بما أصفه الآن في عبارات ملائمة للواقع. لم أر قط أي طفل عينه مُغطاة ليس هذا فحسب بل كانت أعين الأطفال تغطيها جحافل الذباب الذي يرتع على الصديد الذي تُفرزه القروح ويظل الذباب كما يحلو له دون أنْ تبذل الأم أو الطفل أي جهد لتهشه بعيدًا. كانوا يجلسون ساعة تلو الأخرى أو يستلقون أو يلعبون دون توانٍ في الشمس ولا يفكرون في غسل أعينهم وهو أفضل الطرق الممكنة للعلاج، ولكنهم يمتنعون عن ذلك بكل إصرار وعن الأمر برمته، لذا يستمرون عامًا تلو الآخر ويتحملون الذباب والقروح والانكشاف والقاذورات وكل شيء ويشعرون بالغبطة لأنهم يستخدمون إحدى العينين أو كلاهما، إلا أنهم قد يفقدون بصرهم تمامًا أو يُحرمون من إحدى العينين أو يصابون بعمى جزئي مدى الحياة. كنت أشعر بالشفقة تجاه أولئك الأطفال المساكين كلما حدّقت النظر بهم، ولكنني أعترف أنني كنت أشعر بالامتعاض الشديد من التفكير في تلك الخرافة المقيتة التي كانت السبب في الترويج لمثل هذا الإهمال المخزي لأحد أعظم النعم التي حبانا بها الله القدير.

(1849)

"يوميات جولة في مصر وفلسطين وسوريا واليونان"- جيمس لاريد باترسون



421902

JOURNAL

OF A TOUR IN

EGYPT, PALESTINE,

SYRIA, AND GREECE:

WITH NOTES,

AND AN

Appendix on Ecclesiastical Subjects.

BY

JAMES LAIRD PATTERSON, M.A.

"Laetatus sum in his quae dicta sunt mihi: in domum Domini ibimus.
Stantes erant pedes nostri: in atriis tuis, Jerusalem.
Jerusalem, quae aedificatur ut civitas: cujus participatio ejus in idipsum."
Psalmus cxxi.

LONDON:
C. DOLMAN, 61, NEW BOND STREET:
AND 22, PATERNOSTER ROW.
M.DCCC.LII.

من "الفصل الثاني"

فندق الشرق، الإسكندرية، 4 ديسمبر (كانون الأول). استيقظنا هذا الصباح بكل سرور على صوت إعلان يعلمنا أنّ المرشد قد صعد على متن السفينة، وبعدها بفترة وجيزة ألفينا أنفسنا بين البوارج البحرية والسفن التجارية التركية، والنمساوية، والفرنسية، والبريطانية في هذا الميناء الجميل. أمّن لنا خطابٌ كان معنا موجه إلى مسؤول إدارة الجمارك رسوًا سريعًا وميسرًا وتم اصطحابنا عبر الشوارع الضيقة والمزدحمة التي تبدو شرقية إلى حد ما إلى الفندق العظيم الموجود في ميدان القناصل. كانت الجِمال الطويلة، وآلاف الشرقيين المترجلين، والحمير، والنساء المحجبات، وأصحاب الحوانيت المتربعون، والمنازل ذات النوافذ الشبكية، والمآذن كلها تُعطي انطباعًا مشابهًا لـ "ألف ليلة وليلة" كما توقعت. كان هذا الانطباع أوقع بكثير في الحمّامات حيث ذهبنا بالطبع فور استقرارنا في غرفنا بالفندق. لن أعيد كتابة طقوس الشرقيين في الحمّام التي ذكرت من قبل ألف مرة، بل سأكتفي بأنْ أقول إننا أُخذنا من غرفة تلو الأخرى، وقاموا بتدليكنا وغسل أجسادنا بالصابون

وفركها ثم التربيت عليها ووضعها في الماء الساخن، ثم تبريدها بالماء البارد. بعدها ارتدينا بعض الأردية الكتانية والعمامات، وفي النهاية شعرنا بالنصب والإرهاق من الاستحمام وكذلك من الضحك على بعضنا بعضَا واضطجعنا على الأرائك الموجودة في شقة خارجية ومعنا غليون طويل في أيدينا، مع وجود خادم يقدّم أقداحًا صغيرة من القهوة كل دقيقة تلو الأخرى. مكثنا في هذه الحالة لبعض الوقت ثم ارتدينا ملابسنا غير الملائمة التي كانت مصنوعة من الجوخ واعتمرنا قبعة الرأس العجيبة الخاصة بالغربيين ثم انطلقنا مرة أخرى. أخذنا قسطًا قصيرًا من الراحة في المنزل ثم خرجنا وامتطينا الحمير مرة أخرى واصطحبنا الغلام النوبي الصغير "حسن" معنا لنبتاع بعض الأشياء من الحوانيت. كان الحي الأوروبي في الإسكندرية يُشبه إلى حد كبير الموانئ البحرية الأخرى في الغرب، ولكن تسوقنا جعلنا نمر بالحي التركي حيث رأينا الشوارع الطويلة الضيقة، والنوافذ المتدلية المصنوعة من الخشب المتشابك المطلي بالذهب، والحوانيت الصغيرة التي تحدث فيها الاشتباكات الصاخبة لصفقات الشرقيين بين التجار والمشترين وما إلى ذلك. ما أثار دهشتي هو أنّ الحمير التي كانت تنطلق بسرعة وبخطى مرتعدة تمكنت من الإفلات من المجموعات الكبيرة من الجِمال والعقبات الأخرى التي كانت تقف في طريقنا. على وجه الدقة، في اللحظة التي ارتعدت فيها فرائصنا وظننا أنّ الدابة قد تخر في الحفرة الكبيرة الموجودة في الأرض، كان الصبي الذي يركض لاهثًا خلفنا واثقًا من أنه سيعطي دفعة جديدة لدوابنا التي استجابت على الفور وأبدت تغيرًا مفاجئًا. ابتعنا بعض الطرابيش القرمزية والأوشحة وهي أمور لا غنى عنها لمن يسافر إلى الشرق، ثم انطلقنا إلى خارج المدينة في اتجاه الميناء القديم لنرى "عمود بومباي" و"إبرة كليوباترا". كان "عمود بومباي" أثرًا بارزًا وهو عبارة عن عمود من الجرانيت له قاعدة شاهقة الارتفاع وتاج "كورنيثي". كان ارتفاعه يبلغ خمسة وتسعين قدمًا ويبدو كأنه أكثر ارتفاعًا من ذلك من موقعه المرتفع على الربوة، وهو مثبت بصرامة في الأرض حتى إنّ الأتراك حاولوا ذات مرة أنْ يقتلعوه من مكانه منذ عدة سنوات ولكنه فوجئوا أنّ فوجًا كاملًا لم يستطع تحريكه مع أنهم كانوا قد قوّضوه بدرجة كبيرة من ذي قبل. كان محيط هذا العمود موحشًا، فقد كانت الأرض متسخة جدًّا ومتكسرة. ولإعطاء أولئك الهمجيين درسًا في الحضارات، حفر العديد من الشخصيات الأوروبية الهامة أسماءهم على قاعدة "عمود بومباي". السيد

"تومبسون"[104] العظيم والسيد "بوتون" [105] الشهير نقشوا أسماءهم بإسهاب على العمود ومن الجلي أنهم قد استخدموا العديد من زجاجات "داي اند مارتين" [106] حتى يجعلوا من أصعب المستحيلات للأجيال القادمة أنْ يطمسوا هذه الأسماء اللامعة.
شيّد أهل الإسكندرية هذا العمود في عهد أحد الرومان "بوبلياس" [107] كقربان قدموه لإرضاء الفاتح "دقلديانوس" [108] (كما يشهد لذلك النقوش العديدة التي انمحت الآن تقريبًا بسبب الحماس المتوالي للعديد من أمثال السيد "تومبسون" والسيد "بوتون")، والتجويف الذي حدث لهذا النُّصب، إلا أنّ تلك النقوش لاتزال موجودة أعلى العمود على التاج. أعتقد أنّ الاسم الحالي المعروف للعمود يرجع إلى العادة الدائمة التي تعزو أي شيء قديم في مكان ما باسم معين يرتبط به ذلك الأثر.
تقع إبرة كليوباترا على الشاطئ شرق الميناء القديم. وحتى نصل إلى هناك مررنا بمسجد فائق الجمال رأيت فيه عددًا من المسلمين يتعبدون. وجّه أحدهم لنا العديد من السباب (لكوننا مسيحيين) ولاحظنا أنّ العديد من الناس –خاصة النساء- كانوا يسبون ويتمتمون ببعض العبارات التي تدل على الازدراء واللعن عندما مررنا أمامهم.
من المدهش أنْ ترى أشخاصًا يبسطون سجادة الصلاة ويتوضؤون (يغسلون وجوههم وأيديهم وأرجلهم) ثم يولون وجوههم شطر المسجد الحرام بمكة في الأوقات المحددة للصلوات بينما هم منهمكون في أشغالهم في حوانيتهم أو على أسطح المنازل. علمت أيضًا أنهم يواظبون على صوم شهر رمضان هنا بكل التزام وأعترف أنّ هذه البصيرة العامة والمألوفة للدين -على الرغم من أنها قد تكون زائفة- إلا أنها تجعلني ألتمس العذر للتعصب ومشاعر البغض التي يظهرها الأفراد تجاه المسيحيين، ولكن يا لها من سخرية مريعة وشيطانية تجاه الممارسات المسيحية! إنّ انعدام الأخلاق وانعدام التسامح الذي يُظهره هؤلاء المساكين يُعد أمرًا صادمًا خاصة عندما يجتمع مع ديانتهم التي قد تكون هي السبب في ذلك. إنّ الأسى الذي ينتج عن رؤية الآلاف مكبلين بقيود الشيطان وهناك الكثير من الأشياء الحلال محرّمة عليهم والكثير من المحرمات محللة لهم ومأمورون بها قد يكون أمرًا لا

[104] Thompson.
[105] Button.
[106] Day and Martin.
[107] Publius.
[108] Diocletian امبراطور روماني.

يمكن تحمله لولا أنه ذكرني بالحقيقة الموجودة في الديانة المسيحية التي تذكر أنّ الإله العظيم سيميت كل البشر حتى أولئك الذين لم يعرفوه.

وصلنا إلى المنزل متأخرًا وكنا نشعر بالإحباط بسبب مثل هذه الأفكار التي تنادي بأنْ يعيش المسيحيون في أرض الكفار، ولكن سرعان ما توجهت أفكارنا إلى شيء مختلف تمامًا. رأينا حاشية ذوي بشرة سوداء وبيضاء وأخرى تميل إلى اللون البني والأحمر على مائدة الضيوف وسمعنا جلبة وضجيجًا للعديد من الألسنة من بينهم والضيوف الذين كانوا بانتظارهم. كان من بين الخدام صبي نوبي صغير ذو مظهر جذاب (كما علمت فيما بعد أنّ معظم قومه يتمتعون بنفس الأمر). كان هذا الصبي خادمًا لسيد تركي يُدعى "أشينكين بيه"[109] وكان قبله يعمل في خدمة كونت نمساوي يُدعى "ريفيدي"[110] أخذه من والديه بالقرب من الشلال الأول منذ ستة أو سبعة أعوام واصطحبه إلى إيطاليا حيث تعلم وتم تعميده هناك. يشتهر النوبيون بأنهم أناس يتمتعون بطبيعة حميدة وبكونهم مطيعين للتعليمات. أعطيت الصبي الصغير صليبًا وتلقاه بمشاعر متأججة وامتنان وأخذ يقبله بتبجيل وإجلال.

الخامس من ديسمبر (كانون الأول) - أدركنا أننا يجب أنْ ننتظر الباخرة الإنجليزية لنبحر في النيل إلى الأعلى وإلا فسوف نكتري قاربًا في النيل وهو الأمر الذي كنا لا نميل لفعله لأنّ النهر لم يكن جذابًا في الدلتا وكانت الرحلة ستستغرق أربعة أيام أو خمسة لنبحر ونصل إلى القاهرة بدلًا من أنْ تأخذ يومًا واحدًا بالباخرة. ذهبنا هذا الصباح إلى دير "الفرانسيسكان"[111] الذي كان بالجوار. كانوا يشيدون كنيسة جديدة وكبيرة لها قُبة. ذهبنا إلى القداس في الكنيسة المؤقتة التي كانت عبارة عن حجرة طويلة بها العديد من المذابح القريبة من بعضها على نحو غير ملائم. تحدثنا مع راهب غير مرسوم وأخبرنا أنّ الكنيسة كانت قد استُكملت من قبل مرتين تقريبًا، ولكنّ العرب يبنون بطريقة سيئة مما جعل المبنى يتحطم مرة أخرى. عندما سألناه عن وجود أي أثر هنا يتعلق بالقديس " أثناسيوس"[112] أو كنيسته، أخبرنا أنّ هناك مسجدًا سُمي على اسمه ولكنه غير متأكد من المكان الذي تقع فيه كنيسته. كما أخبرنا أنّ كلًّا من الأقباط [113] واليونانيين[114] يزعمون أنّ بحوزتهم رفات القديس

---

[109] Achenken.
[110] Revedi.
[111] Franciscan.
[112] Athanasius (بابا الإسكندرية)
[113] Vide Appendix No. II, letter D (المؤلف)

مارك (الذي تؤكد أعراف الكنيسة أنه نُقل إلى "البندقية" بمعرفة أهل البندقية أنفسهم الذين سُمح لهم أنْ يفعلوا ذلك لبسالتهم في الحرب المقدسة)، ولكنّ كنيسة روما تعتبر مكان رقادهم السابق غير مؤكد. كانت هناك كنيسة أخرى هنا لاتينية يخدم فيها رجال كهنوت فرنسيون (أعتقد أنهم من "اللَّعازاريّين" [115])، وبعض راهبات الرحمة. ذهبنا عبر الجزء الشرقي للمدينة إلى القلعة التي يُقال عنها الآن إنها منيعة تمامًا من ناحية البحر. حصّن هذه القلعة المهندسون الفرنسيون الذين كان معظمهم في جيش الباشا. أخذ أصدقاؤنا الألمانيون قاربًا في النيل وانطلقوا في اليوم التالي وكذلك فعل اللورد N، ولكنني أعتقد أننا كنا على صواب في أننا آثرنا أنْ ننتظر الباخرة.

الخميس السادس من ديسمبر (كانون الأول) - في قداس بدير الفرنسيسكان [116].

لاحظت البون الشاسع بين الرداء الفخم المصنوع من القماش المطرز لقميص الكاهن الذي يقيم القداس وبين ثيابه الشخصية التي كانت رديئة، ورجليه المكشوفتين وهو يرتدي الصندل. لا أدري ما هذا الهراء الذي يقال عن بذخ ورفاهية الرهبان من قبل أولئك الذين لم يروهم قط. إنّ هذا الأمر هو جزء من الأعراف القومية التي ينقاد وراءها الشعب الإنجليزي انقيادًا أعمى أكثر من أي شيء آخر.

بعد أنْ رأينا أصدقاءنا الألمان وهم ينطلقون في إحدى "الدهبيات" المزخرفة بشكل كبير، ذهبنا مع السيدة ----- والآنسة ----- (ركضنا كالعادة في الشوارع) لنرى القصر الجديد للباشا. كان القصر عبارة عن مبنى أبيض ممتد يتخذ موقعًا رائعًا على الميناء ويحوي أجنحة فخمة تُشبه الطراز الأوروبي وبه باركيه بديع يُشبه ذلك الموجود في النمسا. على الرغم من ذلك، كان المبنى غير مكتمل البناء ويبدو غير متجانس، وهو أمر بارز في معظم المباني هنا. كانت سياسات الباشا الحالي -عباس باشا"- متردية وأتصور أنه لا يحب الطراز النصف أوروبي لقصره (الذي بناه محمد علي) ولم يزره عباس حتى الآن منذ توليه العرش.

كان هناك حزبان في مصر آنذاك، حزب النهضة القومية الذي كان ينادي بالانفصال عن القسطنطينية وعن ديانتها، وحزب الباشا الذي يمكن تسميته بالحزب التركي المحافظ. قيل لنا إنّ سعيد باشا – أخا عباس باشا وخليفته- يدعم حزب

---

[114] Vide Appendix No. II, letter A (المؤلف)

[115] يطلق عليهم أيضًا لقب الفنسانيين (رهبنة كاثوليكية أنشأها القديس فنسان دو بول).

[116] Vide Appendix No. I, letter H

النهضة، وأظنّ أنّ هذا يعني الحضارة المادية والحرية الدينية. عاينّا توضيحًا بسيطًا لسياسة الحكومة عندما كنا في القلعة. كان محمد علي قد أصدر مرسومًا عامًّا يقضي بالسماح لكل الأوروبيين برؤية القلعة ووفقًا لذلك دخلنا من السور الخارجي لها، ولكن الخفير (الذي كان مسترخيًا على الطريقة التركية في مظلة الحارس وهو يصلح بنطاله) رفض أنْ يدخلنا وتعامل معنا بفظاظة وأخبرنا أنّ ذلك الأمر قد أُلغي.
انطلقنا لرؤية بعض المقابر في الصحراء ورأينا بعض النساء اللواتي كنّ يرتدين حللًا زرقاء اللون يمكن أن يُطلق عليها كلمة "ثوب" أو "شال" أو كلاهما بالإضافة إلى البرقع الذي به فتحة أفقية أمام العينين ومثبت على الوجه بنوع من العُرى المصنوعة من الفضة أو النحاس، وهذا مظهر مخيف. كانت النساء ترتدين كمية من الملابس وفوق كل ملابسهن يرتدين رداءً من الحرير الأسود. أثبتت قبعتي الأوروبية أنها بالفعل تستحق أنْ أتحملها، بينما كنا نعبر جسرًا حديديًّا انزلق حماري وسقطت أنا وهو على الأرض وألجم التراب أفواهنا. أنقذت قبعة "لينكولن وبينيت"[117] التي طالما تعرضت للنقد رأسي، ولكنني على الرغم من ذلك طرحتها بكل جحود في اليوم التالي لألتقط بعض الصور الفاتنة بالقبعة المصنوعة من الجوخ.
عندما وصلنا إلى المقابر، أصبحت الأرض محمّلة ليس فقط بأطلال ما كان يومًا ما أمجاد مدينة الإسكندرية بل أيضًا أكوام من حطام زهريات من الخزف وهي ظاهرة غريبة حيّرت خبراء الآثار في كل المواقع الأثرية تقريبًا. لقد دمر الأتراك تقريبًا المدخل الكبير للمقابر باستخدام البارود. عندما نزلنا عند الحفريات التي تكونت بجوار المقابر تعثرنا بأحد التوابيت [118] المصنوعة من الرخام الأبيض الذي يُظهر براعة الرومان في النحت. كانت جوانبه منقوشة على كلا الجانبين بأشكال "ميتوب"[119] قربانية وأكاليل. كان الغطاء المزود بإفريز مائل مرميًّا على بعد قليل فقد ترك الأتراك عملهم الذي سرعان ما أيقنوا أنه يتطلب جهدًا على أرض الواقع أكثر مما توقعوه. على جدار إحدى الغرف المفتوحة الآن للهواء الطلق لاحظت وجود تصوير جصي يجسد الصليب ومعه إكليل وزهور تنبثق من الأطراف

---

[117] Lincoln and Bennett.

[118] يطلق عليه اسم "ناووس".

[119] في العمارة القديمة تشير إلى وحدة مستطيل معماري التي تملأ الفراغ بين كل اثنين من التريكليف أو الخشخان وهو عنصر معماري من عناصر الإفريز في النظام الدوريسي في العمارة اليونانية والرومانية. مصنوع من حجر ذي شكل صغير مزين بثلاثة أخاديد رأسية (glyphs) .

ومحاطة بشمعدانين. من الواضح أنّ هذا شيء مما خلفه المسيحيون وراءهم وهو يدل على أنّ هذا الموقع لمذبح الكنيسة التي تقع فوق مرقد الشهداء. لم تكن الحجرات مثيرة للاهتمام لأنها كانت منحوتة من الحجر المسامي [120] الخشن ولها سقف يتخذ شكل القوس القطاعي المستوي. كان مسكن المومياوات مختلفًا عن معظم ما رأيته في مصر في عرضه الذي كان يبلغ حوالي ستة أقدام حتى يمكن وضع أكثر من مومياء بداخله جنبًا إلى جنب. أعتقد أنّ بقايا الخزف يمكن أن يُعزى إلى منشآت التحنيط التي -على ما يبدو- كانت تُقام على مقربة من المقابر وكان يستخدمه الرومان في الدفن في جرات خزفية لأنني أعتقد أنهم استخدموا هذه الجبانات كمقابر وثنية يطلق عليها اسم " كولمباريوم"[121] لصفّ جرّات الرفات فيها. ولكن كلا الأمرين لا يمكن أنْ يفسر الكميات الهائلة التي عثر عليها. لاحظت أنّ القطع الكبيرة كانت للأحرف ومقابض الجرات.

في المساء، عرض علينا شاب من صقلية كان قد تعرف على السيدة ------ على العشاء أنْ يُحضر لنا بعض الموسيقيين من أهل البلد الأصليين الذين سمعناهم وهم يمرون وأعجبنا كثيرًا بهم. كانوا ثلاثة: كان رئيس الفرقة رجلًا كبيرًا مضحكًا ويبدو فرحًا بأدائه. كان يلعب على نوع من الفيول (آلة موسيقية وترية تعد نوعًا من الكمان) له وتران يرتكزان على الكرسي الذي كان يجلس عليه. أما الفرد الثاني من الفرقة فقد كان أعمى تقريبًا (لا بد وأنه قبطي -على ما أعتقد- لأنّ مظهره كان يُنبئ بأنه مصري للغاية)، وكان يلعب على نوع من البيان القيثاري به أوتار معدنية مرتبة مثل البيانو. كان يستخدم ريشتين للعزف وبدا أنه يُضفي شيئًا من التنوع على عزف الكمان الرتيب. أما الثالث فقد أخذ يدق على الرق دقًا سرمديًا وكأنه يقاوم الزمن، بينما كان الفرد الأول يعطي تعليمات بصوته ويغير الألحان وما إلى ذلك.

بعد ذلك، غنى الرجل الذي كان يدق على الرق أغنية يتعذر على الأذن الغربية وصفها، فقد كانت نوعًا من الدندنة على ثلاث أو أربع نوتات في نغمة تتأرجح بين المعاناة والحماس. قالت السيدة ------- إنّ هذه النغمة تشبه كثيرًا أغاني الفلاحين في جنوب أسبانيا. لاحظت اليوم أنّ العرض الموسيقي الذي عزفه الجنود المصريون

---

[120] يطلق عليه أيضًا الطفة البركانية وهي رماد بركاني يترسب على الأرض بعد تطايره في الهواء مكونًا أحجارًا طفلية متماسكة. يمكن استخدامها في البناء بسبب مساميتها وعزلها الحراري الجيد كما أنها تلطف الرطوبة في المنازل.

[121] مقبرة وثنية رومانية قديمة فيها كوى (جمع كوة) يُحفظ بداخلها رفات الموتى

الذين كانوا يرتدون سترات زرقاء مشقوقة الذيل وسراويل بيضاء وطرابيش حمراء به عزف على الناي والطبلة وهي الأداة الموسيقية التي كنت أعتقد أنها حصرٌ على الجيش البريطاني وجيش هانوفر[122].

اختلسنا النظر اليوم إلى مقر أسرة صغيرة تتألف من فتاة مصرية شابة وأخيها الصغير وهما يتيمان. كان المنزل عبارة عن كوخ من الطين في أطراف المدينة، أما السرير فقد كان عبارة عن جزء مرتفع قليلًا عن الأرض، وكان جزء مرتفع آخر هو التنور أو الفرن. كان هناك تجويف بالجدار للمصباح وكان هذا هو كل الأثاث الموجود في المسكن. احتشد الجيران بالداخل ليروا السيدة ------ وبدا أنهم مسرورون من فضولنا ولم يبد عليهم الضجر على الإطلاق. أعطيناهم بعض القطع المعدنية ذات الخمس بارات[123] وكانوا ممتنين لنا، ولكن عندما أعطيت الفتاة نصف قرش تعجبت. أعتقد أنها لم تر مثل هذا القدر الكبير من المال مثل نصف الدرهم أو نصف البنس من قبل وأرادت أن تعطيه لي مرة أخرى لأنه عملة غريبة.

الجمعة السابع من ديسمبر (كانون الأول) - وصلت باخرتنا. ذهبنا هذا الصباح إلى قداس مهيب لأرواح الموتى حضره جمع غفير بإيمان. كان الترتيل مهيبًا وجيدًا، بينما كانت الآلات سيئة جدًّا. قضينا اليوم في الإعدادات وكذلك الاشتباكات مع مضيف لركاب هنود سمجين اجتاحوا غرفتنا وتقاتلوا على العشاء وخلافه. بعد الظهيرة، ذهبنا إلى صلاة الغروب والمباركة لأنّ الليلة كانت عشية العيد. أثناء الصلاة تم ترديد ابتهال السيدة مريم وبعدها ألقى القس بعض الصلوات السريعة والقصيرة باللغة الإيطالية، وذكر فضل السيدة مريم وميزاتها وعظمتها والتمس شفاعتها. إنه لمن الغريب أن يُسيء البروتستانت فهم الإخلاص الكاثوليكي لأحد أكثر المخلوقات قداسة! يبدو أنّ هذه الصلوات والابتهالات التي تتعلق بعلاقة السيدة مريم بالله القدير دائمًا ما تُصلى كما حدث اليوم –على سبيل المثال- خلال الطقوس الدينية. لم نركب على ظهر الباخرة حتى الساعة الثامنة مساءً. كان ضوء القمر الخافت والمنحسر يُضيء النيل بينما كنا نبحر خروجًا من قناة المحمودية في اتجاه قلب القناة الذي كان ينعم بالسكينة والوقار ما جعله يستحق الشهرة القديمة التي كانت تصفه بالغموض. كان الركاب مزدحمين على ظهر السفينة الصغيرة البائسة، لذا لم

---

[122] حتى تاريخ تتويج الملكة "فيكتوريا" كانت إمارة "هنوفر" في ألمانيا تابعة للتاج البريطاني.
[123] مفردها بارة وهي عملة تركية كانت متداولة في مصر.

يكن الأمر يسمح بالتأمل الملائم، وبعد ذلك انتقلنا إلى سفينة أخرى في النيل ولكنها كانت صغيرة أيضًا حتى إننا لم نستطع أن ننعم بالراحة إلا قليلًا أثناء الليل.
السبت، الثامن من ديسمبر (كانون الأول) - صعدت على ظهر السفينة في الساعة السادسة صباحًا لأشاهد شروق الشمس الذي كان رائعًا بالفعل. في الساعة السابعة انبثقت الشمس من الأفق في شكل فيض من اللون القرمزي وأظهرت لنا الضفاف الطويلة المنخفضة والعباب الهادئ الذي صاحبنا حتى القاهرة. أمضينا اليوم في تناول الطعام والشراب وتجاذبنا أطراف الحديث سويًّا عن نوعية الطعام وغير ذلك من الأمور التي يبغض المرء أنْ يتحدث عنها مثل ميل السيد "سميث" للآنسة "تومكينز"[124]، وغرابة ملابس زوجة أحد الأشخاص ممّن كانوا على ظهر السفينة. في الساعة الواحدة صباحًا، وجدنا أنفسنا في بولاق – ميناء القاهرة.

[124] Tomkins.

(1854)

"أرض حام"

بنت يافث

WANDERINGS

IN

THE LAND OF HAM.

BY

A DAUGHTER OF JAPHET.

Egypt is monotonous—but it is the monotony of Paradise.
OSBURN'S *Monumental History of Egypt.*

O Ægypte, Ægypte, solæ supersunt fabulæ, et æquè incredibile posteris, sola supersunt verba lapidibus incisa.
Books of HERMES.

LONDON:
LONGMAN, BROWN, GREEN, LONGMANS, & ROBERTS.
1858.

من "الفصل الثاني"

السابع عشر من ديسمبر (كانون الأول) - غادرنا الإسكندرية في الساعة التاسعة من صباح الأمس واستقللنا القطار لمدة ثلاث ساعات حتى وصلنا إلى "كفر ليث"[125] حيث كان في انتظارنا باخرة لتقلنا إلى القاهرة. كان خط السكة الحديدية يسير بمحاذاة قناة المحمودية. يعلم الجميع قصة هذه القناة التي افتُتحت في عام 1828 وكان إنشاؤها جزءًا من خطة "محمد علي" لتنشيط التجارة بين الإسكندرية والشرق. جمع محمد علي جيشًا يتألف من مائتي وخمسين ألف شخص لحفر القناة. كان الطمي يُكشط بالأيدي أو بالمعول العادي ويُحمل بعيدًا في سلال، بينما كانت الإمدادات من الطعام والملابس والمسكن لهذا الجمع الغفير من العمال رديئة للغاية

[125] كفر الزيات.

بالنسبة للمهام الشاقة التي كانت تُطلب منهم، لذا قيل إنّ ما لا يقل عن عشرين ألف عامل لقوا حتفهم جرّاء الحوادث والجوع والأوبئة.
كان الجزء الذي مررنا منه في الدلتا لا يزال مغمورًا بالمياه إلى حد كبير. يمر خط السكة الحديدية ببحيرة مريوط التي كانت رائحتها كريهة مثل رائحة سبخات بونتين[126]. رأينا العديد من أنواع الطيور كانت تحوم حولنا مثل الصقور، والفلامنجو (النحام الوردي)، والبجع، وطائر اللقلاق، والغرنوق، وكذلك الحلزون، والأوز البري، والبط، والشنقب. على الرغم من أنّ القرية التي مررنا بها لم تكن جميلة، إلا أنها كانت جديدة بالنسبة لنا وجعلتنا نشعر أننا بالفعل في مصر وهو الأمر الذي كان مُبهِجًا حقًا، لذا كان من المستحيل ألا نهتم بكل شيء هناك وكنا نتوق إلى رؤية كل شيء باهتمام. كانت القرية مستوية مع وجود بعض التلال هنا وهناك وقطع من الخزف المكسور الذي كان عادة ما يدل في مصر على وجود آثار لمدينة قديمة. كانت المدن والقرى التي مررنا بها مبنية من الطين على طراز بدائي بصورة لا يمكن تخليها. أما الأسقف فقد كانت مصنوعة من الحصير وهناك فتحة في الأسفل تُستخدم كباب ونافذة في آن واحد. غالبًا ما تكون هناك مقابر بالقرب من القرية وكذلك قُبة بيضاء ترمز إلى وجود ضريح أحد الشيوخ أو الرجال المقدسين ويمكن رؤيتها من بين جذوع النخيل. يوجز الوصف الذي ذكره "ويلكينسون" [127] لإحدى القرى العربية الأمر في بضع كلمات: "عدد من الأكواخ المبنية من الطين، وكلاب جائعة، وأطفال تصرخ".
وصلنا إلى الباخرة في الظهيرة، [128] ولا أعلم ما إذا كان السبب هو ضعف الموتور وصغره أم الرياح التي كانت عكس اتجاهنا، إلا أننا مكثنا على ظهر الباخرة لمدة ثلاث وعشرين ساعة -وهو ضعف الوقت المعتاد! صار الجو باردًا في المساء حتى إننا اضطررنا في النهاية إلى الدخول إلى قمرتنا- إذا كان بإمكاننا أن نُطلق عليها اسم قمرة من الأساس. وُضعتُ أنا ووالدتي في كوّة بها إفريز من الخشب عليه مرتبة تؤدي غرضًا مزدوجًا فهي سرير لنا وماعون لجحافل المخلوقات التي يمكن ذكرها وخلافه. مكثنا في هذا المكان طوال الليل وكنا مضطرين لإبقاء شق من

---

[126] منطقة سبخة في إيطاليا تغطي نحو 70,820 هكتارًا جنوب روما. ظلت سبخات بونتين مسؤولة قرونًا عديدة عن انتشار أوبئة الملاريا على نطاق واسع في وسط إيطاليا.

[127] Wilkinson.

[128] بعد أنْ خططت تلك السطور أُنهي خط السكة الحديدية من القاهرة إلى الإسكندرية وأصبح من الممكن للمسافرين أنْ يتجنبوا تكبد مشقة السفر بالبواخر النيلية. (المؤلفة)

الباب مفتوحًا حتى نحصل على بعض الهواء لأنه لم يكن هناك أي وسيلة أخرى للتهوية. في الساعة السابعة صباحًا لمحت عمامة المترجم الخاص بنا وسرعان ما سمعت صوت إسماعيل يقول: "من فضلك، سيدتي، الأهرامات!" قفزنا للأعلى بسرعة ونسينا أمر البراغيث وكل شيء آخر، وأسرعنا إلى ظهر السفينة. بالفعل كانت الأهرامات تظهر وسط ضباب السديم الذي يسبق ضوء النهار على بعد خمسة وعشرين ميلًا. سوف أطلق العنان لمخيلة القارئ ليتخيل كل ما جال بخاطري في تلك اللحظة. كانت مجرد الفكرة كافية لاستحضار الكثير والكثير من الأفكار، فقد كانت تلك الصخور المركبة التي أدهشت أعين كل الأجيال منذ زمن "إبراهيم" - عليه السلام- وحتى يومنا أمامنا رأي العين!

وصلنا بولاق في الساعة العاشرة والنصف وسرعان ما دخلنا أبواب القاهرة الخلابة واتجهنا صوب غرفنا في فندق "شيفرد".

الثامن عشر من ديسمبر (كانون الأول) - كان معنا خطاب لتقديمنا للسيدة التي زارتنا في الظهيرة وعرضت علينا بكل لطف أنْ تصحبنا لنرى الحرملك. قيل لنا إنّ هذا يُعد فضلًا عظيمًا، لأنّ معارفها في القاهرة كُثُر، لذا فقد أخذتْ عهدًا على نفسها ألا تعرض على أي أحد أنْ يزور الحرملك. على الرغم من ذلك، فلأنها على علاقة وطيدة بـ"زينب هانم" زوجة "خورشيد باشا" أرسلت لتسألها ما إذا كان بإمكانها أنْ تقدم لها صديقتيها. كانت هذه الأميرة زوجة "سعيد باشا" ولي عهد مصر، وهي حاليًا في زيارة إلى أخيها في القسطنطينية. تلقينا استدعاءً منها في فترة ما بعد الظهيرة وسرعان ما ذهبنا إلى قصرها ورافقنا صديقنا اللطيف. استقبلنا على الباب عدد من العبيد ذوي البشرة السوداء وأدخلونا من خلال قاعات خارجية إلى ممر طويل تعلوه قنطرة من أغصان شجر البرتقال. يؤدي هذا الممر إلى غرفة كبيرة أرضيتها من الرخام وكان بها حشود من الإماء البيض والسود. كانت الغرفة التالية التي دخلنا إليها هي غرفة الاستقبال وهي عبارة عن حجرة كبيرة جدًّا وبها العديد من الفُرش والأثاث الوحيد بها هو الأرائك وبعض المقاعد التي كانت مصفوفة بجوار الحائط، إلا أنّ الاحتياج للمناضد أو إلى أي شيء يُوضع في منتصف الغرفة جعلها تبدو جرداء للغاية. قُدمنا إلى الأميرة بالطريقة الملائمة، فقد كانت تجلس على مجموعة من الوسائد على الأريكة في نهاية الجناح. صافحناها باليد وبعدها وضعنا أيدينا على ثغرنا ثم على جبهتنا عندما ألفيناها تفعل الأمر نفسه. كانت صديقاتها

المقربات هنّ فقط مَن يُقبلنّ يدها. جعلتْ الأميرة والدتي تجلس بجانبها وسألتْ صديقتنا عنا وعن سبب قدومنا إلى مصر. لم تتمكن من تفهّم سبب مجيئنا إلى مصر ونحن لسنا زوجات أحد القناصل أو زوجات أيّ ممن يعملون في أيّ مِن المناصب الحكومية، ولم تستطع أنْ تصدق أننا قطعنا كل هذه المسافة فقط من أجل المتعة! قُدّم غليونٌ لكل منا لندخن، كان طوله خمسة أقدام وكان مزركشًا بطريقة رائعة، فقد كانت القطعة التي توضع في الفم مصنوعة من كهرمان حوله أحجار نفيسة تُقدّر قيمتها بمبلغ يتراوح من مائة إلى مائتي جنيه إنجليزي. وُضعت سلطانيات الغليون على الأرض على أطباق صغيرة من الفضة. كانت القهوة تُقدم لنا في فناجين رائعة مصنوعة من الخزف أو كؤوس تُشبه شكل وحجم كؤوس البيض. كانت هذه الكؤوس مصنوعة من الفضة المزركشة بالتثقيب والألماس. كان طعم القهوة لذيذًا على الرغم من أنها كانت ثقيلة إلى حدّ ما لأنهم لا يُصفّونها أبدًا، وكانت تُقدم لنا بعض الأوقات وهي مُحلاة بالسكر وفي مرات أخرى بدون سكر، كما كانوا يضعون طيبًا لتصبح رائحتها زكية. كانت أردية السيدات والإماء رائعة، فبعضها كان مصنوعًا من أجود أنواع الكشمير، والبعض الآخر كان مصنوعًا من الخيوط الفضية والذهبية، ومعظمها كان مبطنًا بالفراء. ولكن على الرغم من غلاء الخامات التي صُنعت منها تلك الأردية، إلا أنّ صُنعها كان سيئًا للغاية والأشكال التي زُينت بها كانت قبيحة جدًّا. يعلم الجميع أنّ المرأة التركية تتفاخر دومًا بكونها أكثر بدانة من جاراتها، وبما أنّ الأمر كذلك، فلستُ بحاجة إلى أنْ أُسهب في الحديث عن عدم لياقة الملابس الضيقة التي كنّ يرتدينها فوق الصدرية وعليها طبقات عديدة من الحشوات الوفيرة التي تتدلى حتى الركبة أو الكاحل وتحتها السراويل الواسعة من الحرير الأصفر التي يمكن رؤيتها بكل فخر. أُصبنا بالإحباط بسبب الافتقار إلى الجمال الذي عاينّاه، فقد كنا نتوقع أنْ نرى جميلات بين الإماء الشركسيات، ولكنْ كان هناك القليل من الجميلات حتى بين الشابات منهن بل كان بعضهن لديهنّ حوَلٌ! أما بالنسبة للنساء الكبيرات في السنّ فقد كان النظر إليهنّ يُعد أمرًا فظيعًا وكنّ بدينات بشكل مخيف. كانت أولئك النساء نادرًا ما يخرجن حتى ولو للتمشية، لذا فقد كان يبدو عليهنّ السقم وكنّ خاملات. كانت حواجبهن داكنة لأنهن كن يرسمنها بالكحل وكن يرسمن أيضًا خطًّا يصل ما بين الحاجبين في المنطقة التي تعلو الأنف. أما غطاء الرأس فقد كان قبيحًا للغاية، وكن يقصصن شعورهن جدًّا لأنّ الشعر

المستعار كان يعتبر جذابًا فقد كن يستخدمنه في شكل ضفائر طويلة يجدلنها بالحرير الأسود ويربطن نهايتها بشرابة. كن يربطن مناديل مصنوعة من القطن ذات لون أحمر أو بني فاتح يميل إلى الأصفر حول رؤوسهن كما كن يزيّن تسريحة شعرهن بإسراف بالأحجار الكريمة خاصة الألماس. كانت مجوهراتهن رائعة الجمال وكن يمتلكن كميات هائلة منها، كما كان الاهتمام لديهن بحجم المجوهرات وليس بنوعية الألماس.

في نهاية الغرفة كانت هناك ثماني حيزبونات عجوزات مخيفات تسببن في إحداث الصمم لنا جميعًا طوال وقت الزيارة بسبب غنائهن. كان معهن دف ودربوكة (نوع من الطبلة)، وبناء على طلبنا جيء باثنتين من الإماء وطُلب منهما أن ترقصا. كان أداؤهما أخرق أكثر مما يمكن تخيله. فقد كان الفن العظيم يعتمد على وضع الكعوب للأسفل أولًا ثم لفّ الأصابع للداخل. كان رداؤهما مختلفًا عن بقية الإماء فقد كانتا ترتديان تنورتين خفيفتين شفافتين وصدريات ضيقة جدًّا كانت تُشبه شبكة من الخيوط الفضية والذهبية المزينة بالمجوهرات وعليها عملات معدنية صغيرة معلقة كانت تجلجل مع كل خطوة. كانت إحدى الحركات غير اللطيفة التي كانت تتكرر كثيرًا هي فتح الرجلين وهزّ الجزء الأعلى من الجسد بقوة وكأنه يتكئ بشكل طليق على الأوراك وكأنه يأتي في جزأين. كانت هاتان الجاريتان تتمتعان بجسد مرن وكانتا تقومان بحركات لي للأجساد استثنائية وخارقة للعادة. كانتا تمسكان بصاجات في أيديهما وهو الأمر الذي أحدث مزيدًا من الجلبة.

(1860)

"أربعة أشهر في دهبية" ـم. ل. م. كاري

FOUR MONTHS IN A DAHABËÉH;

OR,

NARRATIVE OF A WINTER'S CRUISE
ON THE NILE.

BY

M. L. M. CAREY.

" Flies and mosquitoes hold divided sway,
Half sting by night, the other half by day."

LONDON:
L. BOOTH, 307 REGENT STREET, W.
1863.

من "الفصل الثاني"

من الإسكندرية إلى القاهرة

رافقنا المترجم "محمد العدلي" عند رحيلنا من الإسكندرية ومنذ اللحظة الأولى أثبت أنه أكثر الخدام نفعًا ونشاطًا. بدأ يتصرف على الفور وكأنه القائد العام، كان لطيفًا للغاية معنا بينما كان عنيفًا ومُستخدمًا عصاه على أكتاف الدخلاء المتطفلين من العرب. كان اسم عائلة "فيل" ابن عمي يفوق قدرات محمد في النطق. تذمر محمد قائلًا: "هذا صعب جدًّا عليّ"، لذا لجأ إلى اختصار اسمه إلى شيء كان مناسبًا لرئيس مجموعتنا. أسماه "بابا" وقال له: "اجلس هنا". أما توماس وسارة: "اجلسا هناك." بالنسبة لي أنا وسيلينا، فقال لنا: "تعاليا معي لنأخذ التذاكر ثم نرجع لندفع النقود للأمتعة ثم يأتي "بابا" إلينا ويركب في العربة على الفور". بالفعل أنجزنا الأمر بسرعة البرق وكذلك استمتعنا بعض الشيء. اتبعنا أوامر خادمنا بكل إذعان

وأنهينا كل ما كان علينا فعله، فلم يكن هناك وقت للتفكير، ولكن كان يحدونا الأمل أنْ يكون كل شيء على ما يرام. كنا نتمنى أنْ يكون هناك فنانٌ جدير بالثقة ليرسم صورة حية لذلك الشخص النشيط ذي البشرة القمحية والطربوش الأحمر والعمامة ذات اللونين الأحمر والأصفر والسترة الزرقاء والبنطال الكبير الفضفاض من الحرير الدمشقي وبه زنّار حول الوسط والعصا التي يُمسك بها في يده. دلنا أصدقاؤنا اللطفاء على مكان القطار المتجه إلى القاهرة: كانت العربات إنجليزية الصنع وكانت مُصممة بطريقة تُلائم المناخ ومطليّة بلون خفيف يُشبه لون الغبرة. على الفور ألفينا أنفسنا في أكثر الأماكن راحة مقارنة بما مررنا به في الآونة الأخيرة. كان اليوم هو الخميس الأول من نوفمبر (تشرين) وزاد من حماسنا بالذكريات المصاحبة لهذا اليوم "يوم القديسين" أننا تذكرنا أنّ العديد من القديسين القدماء للكنيسة قد وطئت أقدامهم الأرض التي يسير عليها القطار المزعج الذي يُقلنا. ازدادت تلك الذكريات كلما اتجهنا أكثر إلى الجنوب تجاه الإقليم الذي يزخر بحقول القمح المتموّجة في مصر. في بعض الأجزاء كانت التربة الخصبة الثرية تُحرث بمحراث بدائي مصنوع من الخشب يجرّه اثنان من الثيران وفي بعض الأحيان كان يجره اثنان من الجاموس بينما يكون هناك رجل يرتدي ثوبًا أبيضَ فضفاضًا وعمامة ويُرشد الجاموس أو الثيران من الخلف. كانت بعض الأجزاء الأخرى من البلاد لا تزال مغمورة بالمياه، وكان الأرز يزرع فيها وسط المياه، كما كانوا يُلقون في المياه بعض الحبوب الجديدة. كان هناك مناطق كبيرة بها شعير يانع يرقد تحت ضوء الشمس بلونه الذهبي اللامع، وفي بعض الحقول كانوا يحصدون المحصول بالفعل. قيل لنا إنّ مياه النيل ارتفعت هذا العام ستة أقدام أكثر من المنسوب العادي، لذا تلف محصولُ الذرة الصفراء، أما محصول الأرز فقد كان وفيرًا نسبيًّا. بينما كان القطار يسير بسرعة مصرية بطيئة ويعبر النهر على الجسر المعلق الذي بناه "روبرت ستيفينسون"، [129] رأينا الخضرة الغنّاء لشجيرات البُنّ ومزارع القطن الذي كان في سِنفه. لم تكن تلك النباتات على مقربة منا حتى نستطيع أنْ نميزها بأعيننا التي لم تكن محنكة، في الحقيقة، اعتقدنا في البداية أنها محصول "طماطم". في وسط هذا المشهد الريفي كانت القرى المبنية من الطمي لأهل البلاد الأصليين منتشرة هنا وهناك على مسافات قصيرة على الطريق. كان أهل القرى

---

[129] Robert Stephenson.

يبدون أشقياء مثل أولئك الذين يقع ناظرك عليهم أول شيء عندما تطأ قدمك مدينة الإسكندرية، كما كان هناك فتيات صغيرات مسكينات على ضفتي بعض القنوات المائية يجمعن الطمي بأيديهن ويصنعن منه المِلاط لبناء أو ترميم منازلهنّ البائسة. كانت أنصاف أجسادهنّ مغطاة بأردية قطنية زرقاء اللون وذات مربعات خاصة بأهل القرى، إلا أنّ الكثير منهن كنّ يرتدين أساور في أيديهن وقلائد من الخرز حول أعناقهن. كان هناك مسجد ومئذنة في كل قرية من تلك القرى الصغيرة يؤذّن منها للصلاة ثلاث مرات يوميًا [130]. كانت هذه القرى مع المسجد والمئذنة فضلًا عن النخيل وأفواج الإبل المثقلة بالأحمال وهي تمر جميعها تُكمل المشهد في هذا الجزء من البلاد.

كان عدد الأشخاص الذين يعبرون الطريق بين القاهرة والاسكندرية مُذهلًا، فقد كان من الممكن رؤيتهم طوال الطريق بعضهم مترجل وهو يمسك عصا في يده، أو يحمل متاعًا على أكتافه وكأنه يؤمّن الدعم لظهره، بينما كان البعض الآخر يمتطي الجِمال أو الحمير، وكان القليل من المتميزين يركبون الخيول. كان البعض يعملون في الحقول بخمول، وجميع أولئك كانوا يُكملون جَمال المشهد من خلال تنوّع ألوان وأشكال العمامات وأقمشتها الزهيدة. كلما كان القطار يتوقف في إحدى المحطات على جانب النهر، كانت تصعد للقطار فتيات صغيرات ويُقدّمن لنا مياه نيلهن المحبوب في قوارير مسامية رائعة ذوات أعناق طويلة مصنوعة من الفخار وتسمّى "قُلة". تنتشر القلة في كل أرجاء مصر وتكون المياه بها ساقعة ولذيذة. كانت مياه النيل نقيّة للغاية وجيّدة عندما يتم تنقيتها، أما عندما تجري في النهر فتعطي لونًا يميل إلى الحُمرة لا يشجع على شربها أبدًا. كان هناك تأنقٌ ملحوظ في شكل الأطفال وهم يرتدون أنصاف ثيابهم وفي طريقتهم في المرح واللعب الذي يجتهدون فيه ليحظوا بالاهتمام أو بمعنى أصح ليحصلوا على "البقشيش". "نصف البنس من فضلك يا سيدي." يبدو أنهم يرددون هذه العبارة ولا يكفّون عن تكرارها على الرغم من أنّ جهودهم نادرًا ما تُكلل بالنجاح. يمكن للمرح والدنس أنْ يتواجدا معًا ويزدهرا على الأقل في المناطق الجنوبية، وذلك لأننا اندهشنا من وجوههم المبتهجة إلا أنّ اندهاشنا كان أكثر بعَوزهم للنظافة، وكان التواصل عن قُرب مع تلك الكائنات الحية يعتبر ذُعرًا سرمديًّا للمارة. كان من الواضح أنّ بشرة أولئك الأطفال فقدت كل

---

[130] يؤذن للصلاة خمس مرات يوميًا ويبدو أنّ الكاتب لم يكن على دراية بعدد الصلوات لدى المسلمين.

الإحساس، فقد رأينا العديد منهم مُغطىً وجهُه بمعنى الكلمة بالحشرات الطائرة بينما كانوا يثغرون أفواههم وهم يبتسمون ابتسامة عريضة طوال الوقت دون أي اكتراث تمامًا. ومع ذلك، فقد كان هناك أيضًا الكثير من الأشخاص الآخرين كانوا يمثلون صورة حزينة للبؤس مثل إخوانهم وأخواتهم في المدن. كان الرجال يحملون أوعية من الجلد على ظهورهم وفي أيديهم أطباق من النحاس يجلجلونها معًا ويقدمون "الشربات" أو "العرقسوس" لأهل البلد. كانت الأوعية مصنوعة من جلد الماعز في شكله الطبيعي وكانت تُملأ من أوعية أصغر حجمًا تحمل المياه بداخلها على ظهور الرجال والإبل والحمير، بينما تُحضرها النساء من النهر في أباريق كبيرة يحملنها فوق رؤوسهن ويدعمنها بإحدى أيديهن، أو يحافظن على توازنهن دون أي دعم على الإطلاق. ذات مرة رأينا رجلًا يسقي جمله المهيب من طبق صغير مصنوع من الحديد. كان يمكن أن يكون هذا مشهدًا رائعًا بالنسبة لأي فنان ليرسمه. كانت هناك مجموعات كبيرة من الناس يجلسون القرفصاء على الطريقة المصرية — بمعنى أنهم كانوا يضعون ركبهم عند أذقانهم. كانت هذه الطريقة في الجلوس هي طريقة المصريين منذ غابر الأزمان وكان من الجليّ أنهم لن يتخلوا عنها ليجلسوا على المقاعد أو أي ابتكار عصري آخر. بدا واضحًا أنّ هذه المجموعات من البشر لا تفعل شيئًا وإنما يُفترض أنهم يعتنون بالماشية التي كانت ترعى بالجوار. كان هناك بعض الخرفان صوفها لونه بني يمكن رؤيتها هنا وهناك، أما الإبل والجاموس فقد كانت أعدادها كبيرة. بالنسبة للطيور كانت تحلق عاليًا في الهواء أو تقترب من المياه وتلمسها، وكان هناك بعض طيور اللقلاق تقف متفرّجة على حافة المياه، كما كان هناك العديد من أسراب الحمام البيضاء على الجانب. كان الحمام يقف بأعداد هائلة على أحد الأشجار حتى إنها كانت تبدو وكأنها مُغطاة تمامًا بزهور بيضاء وعندما اقتربنا منها بسطت أجنحتها وطارت بعيدًا. كان النخيل مختلفًا عما رأيناه بالقرب من الإسكندرية، فقد كان أكثر طولًا ولكنّ أغصانه كانت أقصر وأقل بهاءً ولم يكن بها الأعذاق الذاخرة بالبلح كما كان الحال في النخيل الذي كان بالقرب من الإسكندرية.

كان الهواء يتحسن كلما اتجهنا ناحية القاهرة وقد أنعش النسيم العليل أجسادنا الظمآنة المتعطشة. كانت هناك إعلانات عن أفضل وجبات غداء تقدم في المحطة

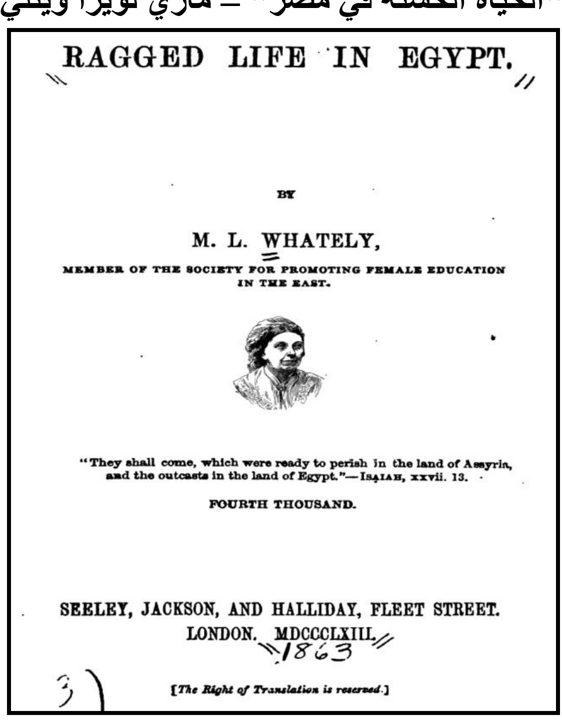
التي تقع في منتصف الطريق إلى القاهرة وتُدعى "كفر العياش [131]" وهو "أفضل غذاء في مصر بأسرها." ولكن على الرغم من كل ما قيل عنه، إلا أننا أخذنا حذرنا وحرصنا على أخذ غدائنا عندما كنا في "فندق أبات" حتى لا ندفع خمسة شلنات مقابل طبق واحد هنا ونغامر بأن نأكل ما نجده دون وجود خيارات. يتوقف القطار لمدة ساعة تقريبًا في هذه المحطة وهو أمر يدعو للضجر. توقفنا مرة أخرى عندما اقتربنا من القاهرة، كانت الأهرامات هي ما نتطلع لرؤيته وفي حوالي الساعة الثالثة والنصف مساءً وقعت أنظارنا عليها بالفعل. تعالت صيحة من عربتنا: "ها هي!" بدأت مجموعتنا كلها في تحريك أقدامهم سريعًا وكأنهم حاملون لشحنة كهربائية؛ سلك "فيل" طريقه من الجانب المقابل لعربة القطار بحماس وعاطفة جياشة تُشبه تلك التي يتمتع بها المسافرون الشباب. كانت أهرامات الجيزة تقبع أمامنا على مسافة يعلوها الضباب مما زاد من مهابة مظهرها.

---

[131] كفر الزيات.

(1860)

"الحياة الخشنة في مصر" – ماري لويزا ويتلي



RAGGED LIFE IN EGYPT.

BY

M. L. WHATELY,

MEMBER OF THE SOCIETY FOR PROMOTING FEMALE EDUCATION IN THE EAST.

"They shall come, which were ready to perish in the land of Assyria, and the outcasts in the land of Egypt."—ISAIAH, xxvii. 13.

FOURTH THOUSAND.

SEELEY, JACKSON, AND HALLIDAY, FLEET STREET.
LONDON. MDCCCLXIII.
1863

[The Right of Translation is reserved.]

الفصل الثاني

أول لمحة لمدينة شرقية

هذا الجو الرائق الدافئ وأشجار النخيل بسعفها وهذه المآذن البهية التي تقف شامخة في زُرقة السماء الصافية لتبدد الملل الذي يتركه في النفس هذا الشريط الرملي المنبسط. أشعة الشمس الذهبية التي تجعل الظلال حادة ومتباينة في مقابل الضوء المبهر، ثم هذه الجموع المتحركة التي تتفاوت على نحو كبير مع الأشكال التي استمرأت عيوننا مشاهدتها منذ نعومة أظفارنا! لا بدّ وأنْ نرفق بعقولنا تلك التي تفشل في استساغة حداثة هذا المشهد، ولو قُدّر لهذه الألباب أنْ تعيد الكرّة بعد فاصل زمني طويل فربما زاد استحسانها لروعة المنظر وحلاوته فوقتها يصير مزيجًا من المألوف والمستحدث فتقرّ العين وهي تلتقط صور الحياة الشرقية التي تستدعي الذاكرة نصفها ويستطيع الشخص تذوقها بشكل تام مقارنة بالمرة التي وقعت عيناه عليها لأول وهلة.

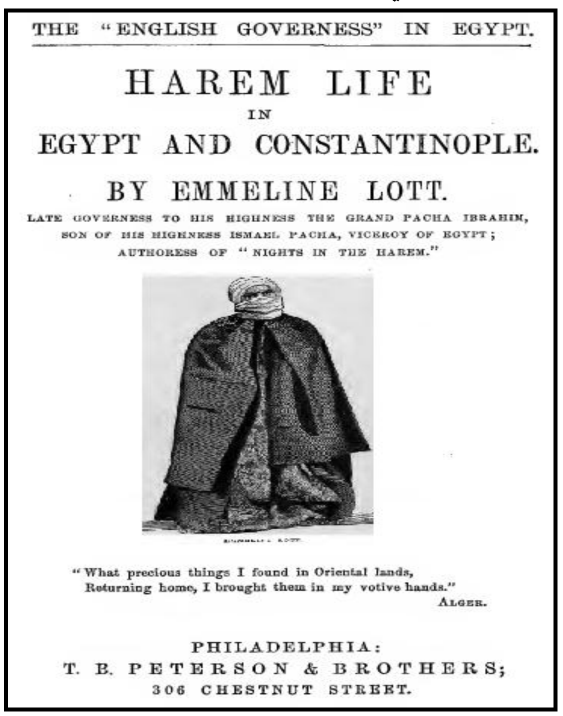
البدو الفارعون في أجواخهم الفضفاضة يمشون الهوينى بين لفيف متنافر من البشر، وجيش جرار يأخذ بزمام الحمير من الصبية الزاعقة بأسنانهم البيضاء التي تظهر للعيان مع ابتساماتهم العريضة التي لا تغادر مُحياهم. النساء في جلابيبهن القطنية الزرقاء الرثة ونُقُبهن السوداء المعقودة أسفل أعينهن، والرضع ذوو البشرة القمحية بأغطية حمراء أو مناديل قذرة فوق رؤوسهم يتشبثون بأكتاف أمهاتهم. الأوروبيون الشرقيون في أزيائهم التي تجمع بين الذوق الأوروبي والشرقي مناصفة يتسكعون هنا وهناك والسيجار في ثغورهم، والسيدات الراقيات في ثيابهن الحريرية الملتزمة السوداء يسرعن الخُطى إلى الحمامات. الزنوج والنوبيون بعمائمهم ذات الألوان المبهجة وأوشحتهم بكل ألوان الطيف، واليهود والجزائريون واليونانيون والأتراك والمالطيون، وكل هؤلاء بعض ممن تكتظ بهم طرقات الميناء الوحيد في شمال مصر. وصحيح أنّ سكان الإسكندرية – مقارنة بمدن الداخل – نصفهم فقط من الشرقيين، وصحيح أنّ عددًا من منازلها أُقيم على الطراز الأوروبي، وأنّ شوارعها تغصّ بالفرنجة، لكنها ما زالت تحتفظ بروعة الاختلاف عن أي مدينة سبق وأنْ رآها أي مِن مواطني شمال قارة أوروبا بأسرها بما فيها الجزر البحرية. هاهو ذا الزائر يحدق في أول قافلة للجِمال يشاهدها في حياته! مَن ذا الذي درس الكتاب المقدس ولا يشعر بالغبطة والتشويق حين يرى هذه القافلة تمر بحذائه. هذا فضلًا عن العديد مِن القصص والإشارات القيّمة التي لها صلة – شأنها شأن البعير – مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب؟ تبدو هذه المخلوقات المتفردة متناقضة فهي كالحة ومهيبة وخرقاء ورشيقة. لديها رونق خاص بها. تميل رقابها الطويلة مع كل نقلة لأقدامها الضخمة اللينة ناظرة أسفلها في حرص ورصانة كما لو كانت تمشي على بيض، بينما تتحرك عيونها الجميلة الواسعة السوداء بين الفنية والأخرى ومن جانب لآخر حاملة تعبيرًا إنسانيًّا في التماعته من الهوان الوقور. تتدلى القِرب الثقيلة بماء النيل من حبالها المجدولة على جانبيها المرتفعين وتترجرج محدثة صوتًا يشبه سحق الأشياء. إنّ رؤية هذا الرتل الطويل يسير على درب تحدده قطرات المياه المنسكبة من الأوعية الأكثر بليًا وتسريبًا في يوم مغبّر وحار لهو أمر منعش. يقود قافلة الجِمال برمتها رجلٌ، وغالبًا ما يكون صبيًّا، وتنصاع هذه الحيوانات الحَمُولة لسيدها الذي لا تصل قامته إلى رُكبها.

يرتاح المسافر أخيرًا تحت ناموسيته وقد حلّ عليه التعب وتملكته الدهشة والارتباك من جرّاء المشاهد الغريبة والأصوات الجديدة عليه حتى فجر اليوم التالي ليبدأ حياة جديدة في هذه البقاع العتيقة حيث يقف كل شيء ساكنًا لعصور مديدة! أرض المومياوات والأهرامات، أرض الفراعنة ومدنهم المتخمة بالكنوز. إنّ ما يثير اهتمام عقل مَن يكدح في "كروم الرب" [132] أكثر مِن كل ما سبق هو الآلاف المؤلفة مِن البشر الذين يعيشون على هذه الأرض الآن ولا يعرفون شيئا عن "مدينة الملجأ"،[133] ويهيمون في دروب شتى وكلها تقودهم إلى المتاهة.[134]

---

[132] أشعياء: 5.
[133] يوشع: 20.
[134] تُلمح الكاتبة إلى التنصير الذي من أجله قدمت مصر.

(1864)
"حياة الحرملك في مصر والقسطنطينية" – أمالين لوت


THE "ENGLISH GOVERNESS" IN EGYPT.

HAREM LIFE
IN
EGYPT AND CONSTANTINOPLE.

BY EMMELINE LOTT.

LATE GOVERNESS TO HIS HIGHNESS THE GRAND PACHA IBRAHIM,
SON OF HIS HIGHNESS ISMAEL PACHA, VICEROY OF EGYPT;
AUTHORESS OF "NIGHTS IN THE HAREM."

"What precious things I found in Oriental lands,
Returning home, I brought them in my votive hands."
ALGER.

PHILADELPHIA:
T. B. PETERSON & BROTHERS;
306 CHESTNUT STREET.

من "الفصل الأول"

بعد رحلة قصيرة، لكنها عاصفة من ميناء "مرسيليا" المفعم بالحركة على متن "بيلوس"، واحدة من أسرع البواخر في خدمة البريد الامبراطوري، وصلت ميناء الإسكندرية وأرض الفراعنة في شهر إبريل عام (186?)[135]. واصلت صوب فندق "شبه الجزيرة والشرق" حيث أقمت لبضعة أيام. أسهبت مجموعة من الرحالة في وصف الإسكندرية، "ليفربول" مصر، [136] لكن ليس بدقّة كبيرة من وجهة نظري. هناك بَوْنٌ شاسع بين مصر قديمًا ومصر الآن. لم أسعَ أثناء إقامتي مع الأسرة المالكة وتجوالي في طول البلاد وعرضها إلى إعطاء أي أوصاف طبوغرافية لهذه الدولة التي تتبدل على نحو رائع وكذا عاصمتها العتيقة.

---

[135] لسبب غير معروف لم تذكر "أمالين" السنة التي وصلت فيها.

[136] استُخدم هذا الوصف بعد ذلك مرارًا وتكرارًا بالرغم من أنّ الإسكندرية أقدم من "ليفربول". راجع صفحة 10 من كتاب William Young Martin, The east: A Tour in Egypt, Palestine and Syria, Tinsley Brothers, London, 1876.

أحال وكيل الوالي في لندن أمري بقضّه وقضيضه إلى عناية شركة صِرافة بارزة في الإسكندرية تواتر أنها ترتبط أيضًا بإسماعيل باشا بصفته الخاصة كرجل أعمال شرقي وملياردير.

عقب تقديم خطاب التعريف وبوليصة الشحن الخاصة بي تلقيتُ تعليمات بمتابعة الرحلة صوب القاهرة بالقطار "الأكسبريس" وتقديم نفسي هناك إلى السيد (ب) الذي – فضلًا عن ارتباط اسمه بالوالي في الأعمال التجارية – يشغل أيضًا مناصب مُجزية لا تحتاج بتاتًا إلى جهد جهيد فهو أمين المخصصات الملكية والمسئول العام عن النفقات العائلية لحضرة الوالي، وهنا لزم التنبيه بأنه لدى جنابه إقامات في العديد من القصور ودور الحريم.

بعد زيارة كل شبر في الإسكندرية توجهتُ صوْب محطة القطارات. صعدت أحد دواوين الدرجة الأولى، ثم انطلقَت العربة الحديدية المهيبة بسرعة للأمام في طريقها إلى العاصمة. لطالما تصدّتْ أقلام أبلغ من قلمي لوصف هذه الرحلة، لذا سأكتفي فقط بوصف رفقاء السفر وأحاديثهم التي أعطتني لمحة عن شخصيات العديد من الأفراد الذين قُدّر لي أنْ أخالطهم لاحقًا.

ما إنْ بدأتُ أنعم بالراحة في العربة حتى دلف سيدان في منتصف العمر. كان سلوكهما وديًّا جدًّا وحديثهما عذبًا إلى حد ما. أصغرهما تاجر يوناني يقطن الإسكندرية ويُدعى "زينوس". كان في طريقه إلى القاهرة ثم الصعيد ليبتاع القطن الذي حقق في تلك الفترة أسعارًا خيالية في كل من انجلترا وفرنسا. أما الرجل الآخر الذي يكبره كثيرًا فكان يهوديًّا من مواطني مدينة "فرانكفورت" الجميلة.

حين وصلنا طنطا كان المولد السنوي منتصبًا.[137] أكد لي رفيقا السفر أنّ عام (186?)[138] قد شهد نخاسة في هذا الاحتفال بالرغم من وجود اتفاقية تُبطل تجارة الرقيق. جرى تحويل مسار الوابور[139] ليسمح بمرور قطار المراسلات الخاصة بالوالي. توقفنا لعشرين دقيقة. راقبت القطار وهو يقترب من المحطة علّني أحظى بنظرة خاطفة إلى بعض الوزراء الذين استنتجت بطبيعة الحال أنهم بداخله حسب

[137] يُقام للسيد أحمد البدوي احتفالان بمولده: الأول في منتصف أكتوبر والثاني في النصف الأول من شهر إبريل، وهو الذي تشير إليه الكاتبة.

[138] مرة أخرى تفضل الكاتبة عدم ذكر العام.

[139] أو "خزن" بلغة عمال السكة الحديد.

ظني، لكنّ الدهشة تملكتني حين رأيت رؤوس العديد من الشابات تبرز من عربة الدرجة الأولى المشدودة إلى عربة التموين.

اشتعل فضولي بشكل كبير حين شاهدت أنّ محياهنّ يشي بأصول شرق أوروبية وألمانية. ارتدين سرابيل سود دون قلنسوات، فقط أحجبة سوداء طويلة منسدلة فوق رؤوسهن في شيء من التهاون.

التفتُّ عائدة إلى رفقة السفر: السيد "زينوس"، الذي جلس في ركن من العربة أقرب ما يكون إلى الخط الرئيسي، يطيل التأمل والتفكير، ربما في حال سوق القطن. سألته مستفسرة عن علة تخصيص قطار لمراسلات الوالي الخاصة. ابتسم قائلًا: "حسنًا لا أستطيع إخبارك بالضبط، لكنّ أغلب الظنّ أنه مُجنَّب دومًا لغرض نقل الآنسات الجميلات اللاتي ربما يتصادف مجيئهن في زيارات خاطفة لإسماعيل باشا. ولأنّ الأجنبيات بشكل عام في القلب من المؤامرات فمن المستحيل أنْ يكنّ حاملات رسائل خاصة للوالي. ولأني لست منوطًا بإماطة اللثام عن أسرار هذه المراسلات، لذا فكل ما يمكن قوله عن هذا الموضوع هو أملي أنْ يأنس بهنّ الأمير الدمث."

مر قطار المراسلات الخاصة بأقصى سرعته وتبعناه على نفس القضبان بسرعة السلحفاة بعد انقضاء عشر دقائق.

ذاب الجليد بيني وبين رفيقي السفر فعرج الحديث بطبيعة الحال على مغزى زيارتي إلى "أرض النخيل" وحاكمها رجل الأعمال. طرحت بعض الأسئلة البسيطة على التاجر اليوناني الذي تكرم بالتوضيح في إجاباته أنّ خبرته الحياتية التي تمتد لعقدين في مصر تحدثه بأنّ موقفي مترعٌ بالقلاقل. اكتشفتُ لاحقًا أنّ ملاحظات السيد "زينوس" كانت في محلها تمامًا. سوف أتعرض تفصيلًا لهذه المنغّصات التي تنصبّ مباشرة على الحياة في الحرملك وما يُحاك في الخفاء بين ثنايا حجراته من دسائس.

أضاف هذا السيد الودود: "لكنّ الكثير يتوقف على سلوك الوالي وخلصائه من المستشارين تجاهك. ربما أخطأت في استعمال هذا التعبير. أميل إلى الاعتقاد بأنّ سعادة إسماعيل باشا رشيد الذي يحتفظ بقرابة وثيقة مع الوالي هو أقرب مستشاريه. هذا التركي الصالح منشغل دومًا بمناوأة المكائد والدسائس التي تحيكها المحظيات ومَن أُشيع أنهم شركاء الأمير الملياردير في التجارة. إنّ درجة قبولك لدى الوالي تحدد كيفية معاملة سعادة إسماعيل رشيد لك فهو قريبه المحنّك وصديقه الصدوق.

إنْ تمكنتِ من الاحتفاظ بعلاقة طيبة مع هذا الوزير فسوف يطيب لك العيش فلا أحد في مصر بمقدوره تفهُّم الصعاب التي تحيط بوظيفتك أكثر من سعادته. لقد كان على الرجل أنْ يجابه بصفة يومية كافة الحيل والألاعيب والتدخلات التي تُثقل عقل الوالي بشكل عام في حفلات العربدة التي تُقام في القصر ليلًا حين يهجع جنابه إلى مأمنه في دور نعيمه أو حين يبكر في الاستيقاظ في الثالثة أو الرابعة فجرًا فيقصد أحد يخوته البخارية التي تُشبه الحوريات في النيل فيجلس على الأريكة في مؤخرة اليخت يدخن السجائر ويرتشف عوضًا عن بُنّ المخا [140] الأصلي نبيذ 'بورجاندي' [141] السابغ المنعش، هذا رغم كونه مؤمنًا حقيقيًّا.

أريدك أنْ تلاحظي بعناية فائقة سلوك الزمرة المحيطة بسموه وشركائه المعروفين تجاهك. لم يصف أحد الكُتاب آنفًا الحياة في دور حريم الحكام المصريين بشكل أمين، ويُعزى ذلك إلى سبب وحيد وهو عدم السماح لأي من الكفار بالإقامة فيها. لذا بقيتْ هذه الدور مكانًا مجهولًا كما في الأساطير. أما الرسومات التي خلفتها أقلامهم فجاءت على النقيض مشجعة. عرض المأسوف عليه الدكتور 'أبوت' مجموعات ذات قيمة عالية وغاية في المهارة والإتقان والتفرد اقتناها الأمريكيون. وصف الرجل هذه الرسوم المثيرة للفضول بأنها كانت في عصره : "بُؤرة التآمر الرخيص حيث تنمّ في طبيعتها عن مشاهد مقيتة من المجون والتهتك إلى أبعد الحدود! كما صورت مشاهد أخرى أفظع أنواع الجرائم. " أما الآن وبفضل التنوير الجاري فقد شهدنا – كما أؤكد دومًا – إجراء أروع وأفيد الإصلاحات في هذه الأماكن ذات الحرمة الخاصة.

إنّ مدلول كلمة "حرملك" يشوبه اللغط التام في مدى تقبلنا نحن الأوربيين لهذا التعبير إلا إذا قمنا فعلًا بتفسيره طبقًا لمعناه الآخر والأكثر ملائمة الذي يشير إلى أمر محظور. أما بالنسبة للمسلمين فإنه ينطوي على دار النعيم على غرار الحور العين في الفردوس الأعلى، وقد أدخل الرسول محمد في روع أتباعه بأنهن سيصرن من نصيبهم حين ينتقلون إلى السماء السابعة في العالم الآخر. وهذا يعلل تواجد الخصيان البارزين وقيام هؤلاء الوحوش، ظلال الرجال، على حراسة هذه الدور وما تحوي من فتيات.

[140] مكان في اليمن.
[141] مكان في فرنسا.

أزيد على ذلك أنّ العديد من ولاة مصر قد أنهوا تعليمهم في فرنسا، لذا أميل إلى الاعتقاد بأنّ السنوات الأخيرة شهدت إجراء إصلاحات كبيرة فيما يتعلق بتدبير وإدارة الدور من الداخل. سبق وأن استحدث سليمان باشا العظيم[142] أمورًا كثيرة في العادات والتقاليد المرتبطة بنزلاء الحرملك الخاص به، وامتدت لتشمل الأمراء أنفسهم. وإذا وصلتني المعلومة بشكل صحيح فإنّ العديد من الب اشوات لم يكتفوا مؤخرًا بفرش بيوتهم على النمط الأوروبي، بل أحاطوا أنفسهم بحاشية أوروبية وجلبوا مربيات إنجليزيات لأطفالهم. هذا عين ما فعله مصطفى باشا، ولي العهد المفترض الذي لم يعامل المربية باحترام وحسب، بل كان كريمًا جدًّا في تلبية طلباتها وسد احتياجاتها من الصنوف الأوروبية. بيد أنّ تصرفات ولغات وعادات هؤلاء المربيات لم تُوجّه لصالح الأطفال المناط بهنّ رعايتهم، ولم تكن تتمتع أي منهنّ بالفطنة الكافية لتنور بصيرتنا عن الحياة في الحرملك. لذا لديّ شعور مريح وثقة بأنك ستألفين وضعًا محتملًا بشكل كبير على عكس ما تفترضين.
على أي حال، يجب أنْ تنأي بنفسك عن الأحابيل الحقيرة التي تحيكها عصابات البلاط. راقبي بعناية الطريقة التي تتعامل معك بها الأميرات الثلاث، زوجات جنابه. اسعي إلى كسب ليس فقط احترامهن ورأيهن الطيب، بل من المهم أيضًا أنْ تحظي بثقتهن في المقام الأول، خاصة والدة الأمير الصغير، هذا بالرغم من أنها الزوجة الثانية، وبالتالي ليست السيدة البارزة، فهذا امتياز تختص به الزوجة الأولى.
عن غيرة الأميرات الثلاث في دور الحريم المصرية راجت قصص مؤسفة وصحيحة لأنّ مَن أخبرني بها شخص يتحرى الصدق. أقول من الجائز أنْ لا تجدي بدًّا من الدخول في معركة مع مرافقي سموه المعروفين من أجل الحصول على وسائل الراحة الأوروبية ومن ثم تحافظين على كيانك كسيدة إنجليزية. إنّ منحك هذه الضروريات الحتمية لراحتك الشخصية قد توقظ وحش الحسد والغيرة في صدور الحشم. إنّ جهلهم المطبق بعاداتك قد يجعلهم ينظرون إلى هذا الاهتمام البسيط مِن قِبل مولاهم نحوك كعلامة تشي بأنّ لدى سيدهم رغبة في التقرب منك."
"أحسنت صنعًا!"، هكذا قاطع السيد ---[143] ثم أردف: "لقد أعطيت السيدة فكرة حقيقية عن موقعها، لكن يا عزيزي زينوس لقد فاتك أنه يتعين على رفيقة السفر أنْ

[142] سليمان القانوني.
[143] لا ندري ما هو سبب إحجام السيدة "لوت" عن ذكر اسم الشخص اليهودي.

تمرن عقلها فلا يغالي في إحسان الظنّ بالناس ولا يتعامل مع ما حوله من أحداث بأقصى درجات الارتياب."
أدار الرجل دفة الحديث نحوي مواصلًا: "سيدتي عليك أنْ تعي تلك الحقيقة الراسخة بأنّ العصابة التي أنتِ بصدد معرفتها هي منبع التحايل والفساد والغيرة، ولا أريد أنْ أقول الإباحية. من المفترض بصفة عامة أنْ يحوز كبير الأغوات سلطاتٍ مطلقة داخل الحرملك حتى على الأميرات، لكنْ لأنّ البقشيش هو الأمير المصري المهيمن، وهو الحاكم الفعلي لمصر فثقي بكلامي حين أقول لك إنّ صاحب الشخصية الأبرز هو عبد ذليل لبطانته السيئة. وطالما أنه بإمكانهم التحكم في الصنائع التي تُسدى لهذا الأمير المتسلط، وطالما أنهم ينعمون بالابتسامات الملكية المشرقة، فإنّ كل ما يصدر عن الطيور الحبيسة بين جدران دور النعيم من قول أو فعل يصل إلى آذانهم.
"أقر بأنّ مكانكِ كسيدة إنجليزية يخوّل لك الحصول على العناية القصوى، لكن في الوقت ذاته سيُطلب منك التجاوب مع أهواء وميول وعادات قد تبدو الأشد عجبًا وغرابة على أفكارك الأوروبية، ليس هذا فحسب بل وقد يبدو الكثير منها كريهًا جدًّا لفطرتك ومشاعرك الحساسة، لكن يحدوني الأمل أنك ستصيرين نموذجًا مؤثّرًا، وأنه سيُطعّم الأخلاق العربية والتركية ببعض العادات المتمدنة.
إنّ سلوكك الودود الواضح للعيان سيُكسبك على الأرجح احترام الوالي وحبّ إبراهيم باشا وتقدير صاحبات السمو الزوجات الثلاث والأميرات بناتهنّ، لكنّ موقعك سوف يثير خوف الرقيق دون شك. أجد لزامًا عليّ أنْ أخبرك أنّ بينهم مَن سيشرع في حياكة الحيل الصغيرة، تلك التي ما فتئ تبطش بالأثيرات وتجمع بين الحظيات صاحبات النفوذ وأقدارهنّ وتتسبب في الاختفاء المفاجئ أو في حالات أخرى الموت المباغت غير المبرر للعديد من أفراد الطبقة الحاكمة الذين أُشيع عنهم بهتانًا أنهم قضوا بالسكتة الدماغية أو تكون وراء فك وصلات القطارات الملَكية[144] وتسميم التمور التي يُهديها أولاد الأخ الصغار إلى أعمامهم من أفراد العائلة الملكية.
يُعزى كل هذا وأكثر من الفظائع المماثلة إلى الدائرة السحرية لجماعة رقيق الحرملك."

[144] الإشارة هنا للأمير "أحمد رفعت"، الابن الأكبر لإبراهيم باشا ابن محمد علي الكبير، وكان من المفترض أنْ يخلف عمه "سعيد باشا" على عرش مصر، لكنّ القطار انقلب به في "كفر الزيات" ولقى حتفه مما مهد لتنصيب إسماعيل باشا.

أخذ السيد "زينوس" بطرف الحديث متابعًا: "أشعر بالأسى العميق على أي سيدة إنجليزية تفكر في قبول هذه الوظيفة لعلمي بالنفور الشديد الذي يحمله الألمان والعرب تجاه الإنجليز، ولو استدبرت من أمرك ما كنت لأتوانى – حتى في اللحظات الأخيرة – عن تصويبك وحثك بقوة على التخلي عن فكرة الالتحاق بخدمة جلالته.

ولتأييد هذا الطرح يكفي التوضيح بأني أقمت لسنوات ممتدة في كل مِن مصر والقسطنطينية. ومن واقع خبرتي عن الحياة المصرية والتركية التي اكتسبتها بثمن باهظ أشعر بالرثاء تجاه أي سيدة أوروبية تفكر في وضع نفسها تحت طائلة الحرملك الملكي. من المؤكد أنك ستفتقرين إلى كافة وسائل الراحة الأوروبية، وأزيد عليها الإقامة الأوروبية المستساغة. صحيح أنّ إسماعيل باشا هو الوالي إلا أنه في صميمه تاجر حقيقي، ولن يبعثر "باراته" [145] على الأثاث الفاخر لزوجاته، بالرغم من ذلك ستجدين قصوره ويخوته مزينة بفخامة عالية على الطراز الأوروبي.

ليست هذه هي النقيصة الوحيدة التي تنتظرك. إنّ النظام الغذائي الخاص بالطيور الحبيسة في جنة الوالي ينتمي تمامًا للمطبخ العربي، ولن يكون مستساغًا لذوقك بالمرة، وحتى لو كان عكس ذلك (مع ما لديّ من هواجس كبيرة حيال هذا الأمر) فإنه الأشد ضررًا على صحتك. إنّ طبيعة الطقس تستوجب من الأور وبيين تناول كميات أكبر من المحفزات مثل الجعة والخمر مقارنة بما تعودوا عليه في أجوائهم الأكثر برودة. ولا أتخيل أنك ستُمنحين هذه المشروبات الكحولية الممنوعة هذا بالرغم من احتساء الوالي لكميات كبيرة منها. من الحقائق المستقرة أنّ الأميرات الزوجات صاحبات السمو تتجرعن كميات من "السخيدام". [146]

وعلاوة على ذلك فإنّ الحرملك بأرضياته هو بالضرورة مُترع ومُشبع بأدخنة التبغ الذي يُقدم مُطعّمًا بمخدرات قوية، وعليه فإنّ الهواء الذي تتنفسينه مؤذٍ للجسم. ناهيك عن أنّ العادات الفالتة والقذرة للخدم، خاصة الحاضنات من أصول عربية، من شأنها أنْ تثير امتعاضك وقرفك. ولندع جانبًا كمد رتابة الأيام التي أنتِ مقبلة عليها، فهي كئيبة وتُشبه حياة الراهبات، وأحسب أنه أفضل لك أنْ تحبسي نفسك في صومعة دير[147] من أنْ تدخلي فِناء الحرملك."

---

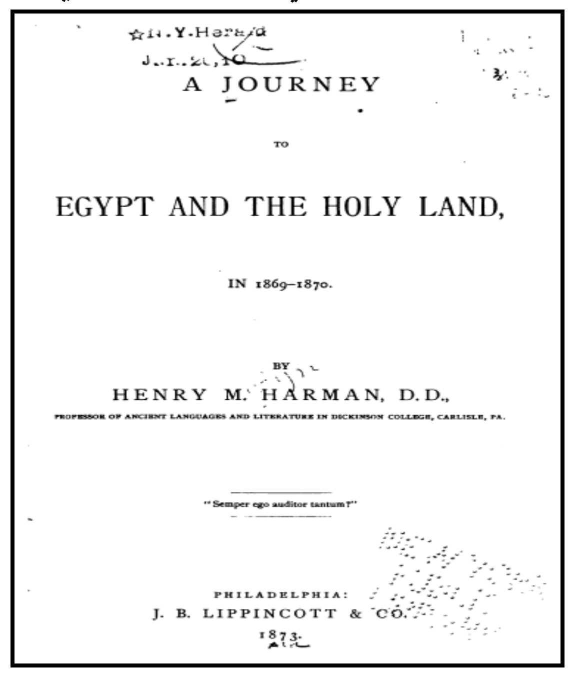
[145] مفردها بارة وهي عملة تركية كانت متداولة في مصر.

[146] Schiedam، خمر الحبوب، نسبة إلى مدينة في غرب هولندا.

[147] تُعرف في مصر بالقلاية والجمع "قلالي".

أصغيتُ باهتمام بالغ إلى السيد "زينوس" وهو يسرد المصاعب التي تكتنف وظيفتي، وتقريبًا شعرت بالندم لقبولي لها، لكنْ كان الأمل مازال يحدوني بأنه بالغ في تسويد الصورة.

(1869)
"رحلة إلى مصر والأراضي المقدسة" – هنري هارمن


A JOURNEY

TO

EGYPT AND THE HOLY LAND,

IN 1869–1870.

BY

HENRY M. HARMAN, D.D.,

PROFESSOR OF ANCIENT LANGUAGES AND LITERATURE IN DICKINSON COLLEGE, CARLISLE, PA.

"Semper ego auditor tantum?"

PHILADELPHIA:
J. B. LIPPINCOTT & CO.
1873.

من "الفصل الثالث"

في باكورة صباح يوم الرابع من ديسمبر بدأنا في مشاهدة الشواطئ الواطئة لمصر. رأينا قصر الباشا[148] والعديد من طواحين الهواء إلى اليمين من موقعنا[149]. صعد مرشد عربي يرتدي ثيابًا فضفاضة وقبعة تركية[150] إلى متن الباخرة التي ولجت في ميناء الإسكندرية وألقت مراسيها في الثامنة صباحًا على وجه التقريب. لاحظنا وجود العديد من البواخر الجيدة رابضة في الميناء وشاهدنا لأول مرة شعار الإسلام مرفرفًا عليها الذي يمثله الهلال مع وجود نجمة أو أكثر في تجويفه. بادر ملاحو القوارب من العرب إلى التوجه نحو السفينة التي تقلنا وتزاحموا على متنها وتدافعوا في عزم وتصميم ليستأثروا بالركاب دون إرادتهم لنقلهم إلى اليابسة. ساومت أحدهم فإذا بآخر يوعز لي بأني ورطت نفسي. بعد بضع دقائق من التجديف وجدت نفسي

---

[148] قصر رأس التين.

[149] لم تعد هذه الطواحين موجودة الآن.

[150] طربوش.

في مكتب الجمارك حيث تم فحص أمتعتي. تقضي الامبراطورية التركية بوجوب وجود جوازات سفر مع المسافرين. بعد انتهاء التفتيش لحق بي أحد موظفي الجمرك ليحصل على البقشيش.

أول ما يصدم عين المسافر عند نزوله ببر مصر هو القذارة الموجودة في كل مكان. شققت طريقي عبر الطرقات المتسخة خلف الشيّال الذي حمل حقائبي. قادني الحمّال أولًا إلى فندق "أوروبا" الذي تبلغ تكلفة الإقامة فيه خمسة عشر شلنًا في الليلة، لكنْ لم ترق لي الهيئة التي بدت عليها مقتنياته، فتوجهتُ إلى فندق "شبه الجزيرة والشرق" الذي تصل تكلفة الليلة فيه إلي ستة عشر شلنًا، والسعر مع ذلك ممتاز حيث إنه أفضل فندق في الإسكندرية. عرجت على محل حلاقة وهناك حلقت شعر وجهي مقابل فرنكين أو ما يعادل ثمانية وثلاثين سنتًا مما يعد غرمًا كبيرًا لجيبي فأخبرت الحلاق أنّ المبلغ المطلوب كبير فرد قائلًا "هذه هي مصر".

تقابلت مع السيد "إيركسون" من "روشيستر" بنيويورك ومعه خادمه الذي استأجره في فرنسا ومترجم من مواطني "مالطا"[151] وكانت طيبة [152] هي وجهته ومقصده. تكرم هذا السيد بدعوتي للتجول معه في المدينة. ذهبنا إلى عمود "بومباي".[153] ومسلة كليوباترا.[154] صُنع هذان الأثران من الجرانيت الصلب المائل إلى الحمرة والمسمّى بالسينايت وهي نفس الخامة التي نحتت منها بقية مسلات مصر. ينتصب عمود "بومباي" في جنوب المدينة على ربوة صغيرة لا تبتعد كثيرًا عن بحيرة مريوط بالقرب من مقابر المسلمين.[155] وطبقًا لما أورده "ويلكنسون"[156] فإنّ ارتفاع العمود يصل إلى ثمانية وتسعين قدمًا وتسع بوصات،[157] أما طول جسم العمود فيبلغ ثلاثة وسبعين قدمًا ومحيطه تسعة وعشرين قدمًا وثمانِ بوصات. ويفترض "ويلكنسون" أنّ هذا الأثر هو شاهد صامت على استيلاء "دايوكليشن" على

[151] برع المالطيون في اللغة العربية، ويجب ألا ننسى أنّ "مالطا" خضعت لفترة طويلة للحكم العربي وأنّ أكثر من نصف مفردات اللغة المالطية من أصول عربية.

[152] الأقصر الآن.

[153] يعرف الآن عمود السواري (الصواري).

[154] هذه إحدى المسلات الثلاث التي حملت ونصبت في باريس، لندن ونيويورك، وأغلب الظنّ أنها المسلة التي نقلت إلى لندن عام 1877 أي بعد أقل من عقد من قيام هارمن برحلته.

[155] مقابر كوم الشقافة.

[156] Sir John Gardner Wilkinson عالم مصريات بريطاني في القرن التاسع عشر.

[157] يقصد هنا ارتفاع العمود بالقاعدة والتاج.

الإسكندرية عام 296.[158] أما مسلة كليوباترا التي تعرضت للتلف بشكل كبير فتنتصب بالقرب من الميناء الكبير أو ما يعرف الآن بالميناء الجديد ليس بعيدًا عن ميدان القناصل.[159] ووفقًا لويلكنسون فإنّ ارتفاعها يصل إلى سبعين قدمًا ومحيطها عن القاعدة سبعة أقدام وسبع بوصات. يُروى أنّ أحد القياصرة جلب هذه المسلة من هيليوبوليس.

شاهدنا في ضواحي الإسكندرية بعض البدو في مضاربهم. شققنا طريقنا بين الكلاب المتوثبة في اتجاه إحدى الخيام. كانت خيمة صغيرة، ليس بها ما يلفت الانتباه عدا أسنانًا جميلة ناصعة البياض لامرأة ، وصبيًّا حليق الشعر عدا خصلة في مقدمة رأسه، كما شاهدنا امرأة تدير رحى، وبشرة كل مَن قابلنا تميل إلى اللون النحاسي.

في ظهيرة يوم السبت امتطيت حمارًا كشيء جديد بالنسبة لي متوجهًا إلى البازار. بدا الأمر هزليًا، رجل يبلغ طوله ستة أقدام يركب حمارًا صغيرًا! نظرت حولي لألتقط ضحكات الناس على المنظر فلم أجد وأدركتُ أنّ الأمر لا يثير الغرابة، والشخص الوحيد الذي وجده كذلك، كما أخبرني لاحقًا، هو سيدة أمريكية كانت ترقب المشهد من شرفة الفندق. في الإسكندرية لا شيء يبدو غريبًا أو خارجًا عن المألوف. ابتعت من البازار قبعة تركية دفعت فيها ثلاثة فرنكات وكان البائع مصممًا علي تقاضي ستة فرنكات.

في صباح يوم الأحد تدبرت مرشدًا قادني إلى الكنيسة القبطية. [160] أصابني الإحباط لأنه لم يكن هناك قداسٌ مقامًا في الكنيسة الكبيرة والسبب هو خضوعها لعملية ترميم. أنشدني أحد الأقباط بعض الترانيم القبطية لكن سرعان ما حلّ به الإرهاق لأني لم أعطِه إكرامية معتبرة. لاحظت أنّ لديهم أناجيل باللغة العربية كما شاهدت على مقربة العديد من القبطيات بلونهن النحاسي البراق يرتدين زيًّا جميلًا ويلبسن اليشمك. [161] هممتُ بالاقتراب من النسوة الخجلات فبدا عليهن الخوف ونصحني المرشد بالعزوف عنهن فرفضت ذلك بإباء وشمم قائلًا له: "أنا أمريكي." ومِن ثم قمت بتحية النسوة معبرًا عن احترامي لهنّ. عاينت بئر الغِطاس الذي يُعمّد فيه مواليد القبط فلم أجده كبيرًا ليستوعب البالغين.

---

[158] Diocletian ، إمبراطور روماني244-311.

[159] Frank Square ، ميدان المنشية حاليًا.

[160] الكرازة المرقصية.

[161] قطعة قماش لونها أبيض تغطي الأنف والفم.

غادرت المكان متوجهًا إلى الكنيسة الإنجليزية حيث وجدت حشدًا يتراوح بين خمسة وسبعين ومائة فرد. خلق التباين في الهيئة التي بدا عليها الإنجليز بلباسهم الأنيق والصورة المُزرية للسكان المحليين مفارقة ملفتة للنظر. علي أي حال استمعنا جميعا إلى موعظة حسنة مؤثرة.

لم أفلح في التمييز بين أقباط ومسلمي مصر فأحجامهم معتدلة وبشرتهم نحاسية أو قُل بنية تميل إلى الحمرة.[162] مما لا شك فيه أنّ نسب الأقباط يرتقي إل ى المصريين القدماء، لكنّ عِرقهم ليس صافيًا تمامًا أو منزهًا عن التهجين لأنّ أسلافهم في العهود المبكرة للمسيحية صاهروا اليونانيين والنوبيين والأحباش وآخرين. حين تتفقد الرسومات والمنحوتات في القبور والمعابد تلمس بعض نقاط شبه مذهلة بين القبط والمصريين القدماء وتدرك أنه- إجمالًا- يوجد تفاوت كبير مرده ببساطة إلى تزاوج القبط كما ذكرنا آنفًا. عيون القبط بشكل عام سوداء ومسحوبة وكبيرة أما أنوفهم فطويلة والمنخاران يميلان إلى الاتساع. وعلى العموم فإنّ الأقباط متوسط و الحجم أو يكادون، وهكذا كان المصريون القدماء كما تنبؤك مومياواتهم. [163] ينتمي الأقباط إلى طائفة مسيحية تعتقد في الطبيعة الإلهية الواحدة للسيد المسيح، وهو أمر أدانه مجمع "خلقودنية" في القرن الخامس. بقي لي أنْ أشير إلى أنه هناك جزءٌ يسير من القبط ينتمي إل ى الكنيسة الرومانية الأرثوذوكسية اليونانية. هذا ويوجد في هذه المدينة عدد من الكنائس قد يصل إلى عشر.

في ظهيرة يوم الأحد ذهبت برفقة السيد "إيركسون" لزيارة قصر الباشا الذي يقع في الجانب الشمالي للميناء القديم ويحظى بمطلات جميلة على حركة السفن وشطر من المدينة. لا يمكنني نعت القصر بالمهيب فنظام بنا ئ أوروبي. شاهدنا الثريا في إحدى الغرف وكذا أرائك تدعوك هيئتها للجلوس عليها. رأينا في إحدى الحجرات مائدة صغيرة مستديرة ذات ذوق رفيع صنعت من الرخام وسطحها من الموزايك المستعمل في أبنية روما القديمة ولا غرو فالطاولة كانت هدية البابا الحالي للخديوي.

يا لغرابة مدينة الإسكندرية! يشعر الأوروبي أو الأمريكي الذي ينزل بها لأول مرة وكأنه في عالم آخر. إنّ النقلة من "نابولي" إلى الإسكندرية جد مفاج ئ ومغايرة. ما هذا المزيج من السكان!؟ النوبيون ببشرتهم الفاحمة، الأحباش، الأقباط، الأرمن،

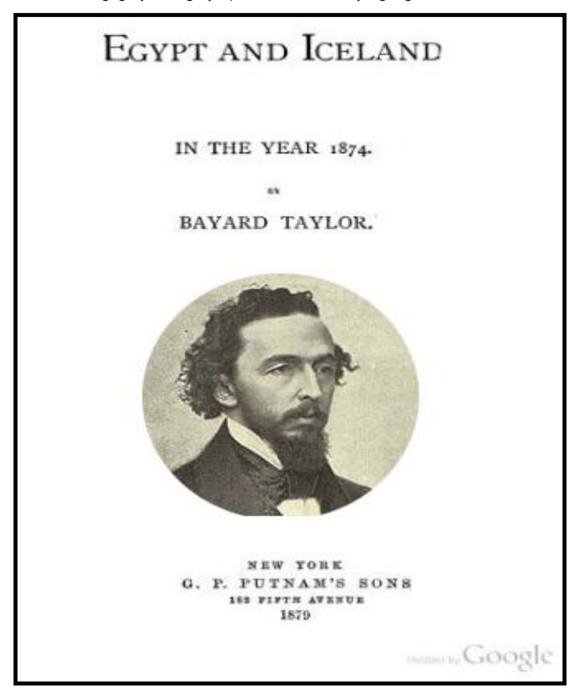
---

[162] المقصود قمحية.

[163] لين "المصريون المحدثون" ج2، ص 212-213. (المؤلف)

اليونانيون، العرب، الإنجليز، الفرنسيون، الإيطاليون والأمريكيون ثم هناك الجِمال والخيول والحمير والكلاب وخليط من اللغات.
هنا في الإسكندرية تطغى الحياة الشرقية وهنا احتكّ الغرب مع الشرق وأظهر بشكل حاسم تفوقه. فقط تفرس في ابن البلد بأميته وهيئته المزرية ثم أدر عينيك إلى الأوروبي بهندامه الحسن وذكائه وحسّه التقدمي مما يجعله يحسّ بالفوقية وبها ينظر إلى السكان الأصليين لهذه البقعة.
النساء بشكل عام غير سافرات الوجوه. يتخذ بعضهن حجابًا لا يظهر سوى عيونهنّ، لكنّ الشكل الأكثر شيوعًا بينهن هو الحجاب المربوط بقطعة من الخشب والمنتهي بخطاف يتصل بمقدمة الجبهة ويسدل من الجزء العلوي للأنف حتى أسفل الوجه. أقسى ما تقع عليه عيناك من مشاهد هو صورة النساء البائسات بلباسهنّ المتسخ، ولذا فنساء مصر بل والشرق بصفة عامة غير جذابات.
وعدا عن بؤس وشقاء الناس فمناخ مصر في الشتاء مذهل وكذا تربتها.
تنتشر الكلاب في الإسكندرية وفي الشرق برمته ويبدو جليًا أنها تنتمي إلى فصيل واحد يغطي الأقاليم من النيل حتى مضيق البوسفور. لقد ظلت هذه الكلاب الضالة تنبح دون توقف طيلة مساء ليلة الأحد.

(1874)
"مصر وأيسلندة" - بايارد تيلور



الفصل الأول والثاني
مصر
الإسكندرية بعد اثنين وعشرين عامًا

الإسكندرية، مصر، الرابع عشر من شهر مارس لعام 1874م.

عندما عبرنا جزيرة كريت- منذ يومين- كانت الرياح الشمالية – نفس الرياح التي تُدعى "يوروكليدون" [164] التي واجهت رحلة القديس بولس- قد أنهكت من كثرة الهبوب وهبت نسائم العليل التي تُبشر بقدوم الصيف على أجنحتها وحركت المياه من ساحل ليبيا الذي لم يكن مرئيًّا. لقد خلفت الرياح العاصفة التي زلزلت البحر المتوسط هذا الشتاء وراءها موجات مضطربة فقط وشعرنا بالسعادة لأننا ابتعدنا عن اليابسة فقد صاحب تلك الرياح في "صقلية" و"قَلَوْرية" [165] و"كريت" هطول غزير للثلوج. فالشتاء يكون مُضجِرًا أشد ما يكون عندما يبتغي المرء الهروب منه.

---

[164] Euroclydon رياح شمالية غربية إعصارية عاصفة تهب على البحر المتوسط في الخريف والشتاء.
[165] Calabria بالإيطالية (كالابريا) إقليم في إيطاليا، يقع أقصى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية.

كنتُ قد رأيتُ مصر للمرة الأخيرة في عام 1852م عندما كانت السفن في بداية إبحارها على النيل وكان هناك صفٌّ من الحافلات يعبر الصحراء من القاهرة إلى السويس مرة واحدة كل شهر. أعتقد أنه في تلك الأثناء كانت هناك دراسة لإنشاء خط السكة الحديدية، ولكنْ لم يكن الحفر قد بدأ في ذلك الوقت (لم تُحرَّك أي مجرفة)، أما قناة السويس فقد كانت من الأمور غير المتوقعة بل من الأمور التي لم تُذكر على الإطلاق. كان عباس باشا يقوم بمحاولات مستميتة لتقديم النظام العسكري الأوروبي، وعندما نجح الأمر كانت هناك تجديدات كثيرة تلوح في الأفق، فقد خضعت السودان للحكم المصري وأصبحت " غندكرو"[166] - التي هي الآن نقطة البدء للاستكشاف على النيل الأبيض- آخر حدود مصر آنذاك. لقد كانت رحلتي إلى وسط أفريقيا شيئًا غير مألوف للغاية وتعتبر خطيرة لأنّ عددًا قليلًا جدًّا من الرحالة دخلوا إلى بلاد النوبة وراء الجندل الثاني.

تغيرت كل هذه الأمور للأفضل، والآن عندما عدت للمرة الثانية إلى البلد التي إذا شوهدت لمرة واحدة فلن تمثل مصدر جذب بالنسبة لي- يكمن هدفي الأساسي في أنْ أتحقق من التغيرات التي حدثت في أوضاع الناس، وعاداتهم، وأفكارهم. لم يكن من الواضح كيف ستستقبل أي من الأجناس الشرقية متطلبات الحضارة العصرية، لأنّ معظم تلك المتطلبات تتداخل مع الأمور الدينية والعادات الاجتماعية التي تحظى تقريبًا بنفس القدسية. لا يمكن أنْ تدوم أي حضارة مهما كانت مذهلة إذا كانت الطبقة الحاكمة فقط هي مَن يتبناها كما كان الحال هنا، ولكن الآن بعد أنْ أصبح هناك قناة بحرية وخط سكك حديدية، وتلغراف، وصحافة مطبوعة كلها مملوكة لمصر، لا بد وأن يُحدث أهل البلد الأصليون تغييرًا وإلا فسيُخفقون. هذه النقطة التي أشرتُ لها هي وجهة النظر التي كنت أحدث نفسي بها.

مررنا "بنابولي" على متن سفينة تابعة لشركة "روباتينو" (الإيطالية) للملاحة، وفقًا لنصيحة سديدة أُسديت لنا. على الرغم من ذلك، كانت سفينة "سيسيليا" الصغيرة التي تسير ببطء، وبها مضاجع صغيرة جدًّا حتى إنّ المرء لا يستطيع أنْ يتمدد بطوله كاملًا وهو مستلقٍ عليها، ولم يكن بالإمكان الوقوف في قمراتها وأنت معتدل، فضلًا عن تعاطفها المرهف مع اضطرابات الأمواج ورفضها أنْ تزيد عن سرعة

---

[166] بلدة في جنوب السودان على الضفة الشرقية من النيل الأبيض، وتبعد 750 كيلومتر عن الخرطوم.

تسعة أميال في الساعة في أفضل الظروف، مصدرًا لخيبة الأمل والخذلان للسبعة ركاب الأمريكيين والأربعة ركاب البريطانيين. كان صباح اليوم الخامس صحوًا ومُنعشًا، وقبل الظهيرة لاحت منارة الإسكندرية كشريط وانٍ فوق المياه التي تلمع على بُعد. ظهرت البيوت البيضاء، ورأس التين، ووهيج الساحل الرملي الليبي، وطواحين الهواء، ومجموعات النخيل القصيرة التي تعصف بها الرياح، وامتزجت بالأرض الواطئة تمامًا مثلما رأيتها من قبل. كانت هناك علامة جديدة ألا وهي إنشاء ميناء صناعي كبير به مرسى داخلي يعجّ بالسفن. كانت المياه مُفعمة بالحيوية؛ ففيها القوارب، والدلافين التي تقفز وسط الأمواج الراقصة، وأسراب النورس الأبيض مثل الثلج التي تحلق في شكل دائرة في السماء أو تنزل على الأمواج. لم يكن خليج نيويورك[167] في صباح يومٍ صحوٍ أكثرَ إشراقًا ولا أفضل عليلًا ولا أكثر بهجة من ذلك.

بدا لي أنني بدأتُ أسترجع معرفتي السطحية للغة العربية فجأة عندما ألفيتُ نفسي مضطرًا لاستخدامها. ما إنْ رست السفينة حتى تفاوضتُ مع صاحب أحد القوارب ليأخذنا إلى الشاطئ. غادرنا السفينة بسرعة كبيرة حتى إنّ أحد الضباط المصريين الذي كان دمث الخُلق اضطر إلى مرافقتنا لأنه ربما لا يكون هناك أي أحد ليستقبلنا في البقعة التي سنرسو فيها لأنها مهجورة تقريبًا. كانت جوازات السفر لا زالت تُطلب، وهو إجراء غير ضروري لأنه لم يكن هناك رسوم تُدفع. دفعنا لضابط الجمارك اثنين من الفرنكات وهو الأمر الذي أنقذنا من ضرورة فتح صناديق الأمتعة. بعد المرور من الجمارك، يدخل المسافر إلى دوامة من الحوذيين وسائسي الحمير والحمّالين الذين ينتظرون في الشارع بالخارج. لا تدل الصيحات والإيماءات على وجود شيء خطير أو جاد والمسافر الذي يُصاب بالذعر بسبب ما صورتْه بعض كتب دليل المسافرين يمكنه أنْ يتمالك نفسه بهدوء إذا استطاع أنْ يجعل أساريره هادئة. أمّا إذا أظهر المرء أية علامات تدلّ على الاستحياء أو الاندهاش فسيتحول الصخب إلى طبقة صوت مُرعبة. كل ما عليك فعله هو أن تُعلن عما تريده باختصار وبنبرة هادئة مُهيمنة إمّا بالإنجليزية، أو الفرنسية، أو الإيطالية، وسوف يفهمونك ويستجيبون لك طواعيةً.

[167] خليج نيويورك هو مصطلح جماعي للمناطق البحرية المحيطة بمدخل نهر هدسون إلى المحيط الأطلسي.

بعد مرور عشرين دقيقة منذ مغادرتنا لظهر السفينة كنا نجلس في العربة ونسير في الشوارع الضيقة للمدينة القديمة في طريقنا إلى فندق أوروبا. احتجت فقط أنْ أقول باللغة العربية: "إنني قدمت إلى الإسكندرية من قبل" حتى أتمكن من تغيير صراخ العتال ليصبح تجهمًا وعبوسًا فقط، وأضع حدًّا للجلبة التي أحدثوها ليحصلوا على مزيد من المال. أما الضوضاء التي تلت هذا فقد كانت رائعة – التجار الذين ينادون لبيع بضائعهم؛ وتحذيرات سائقي العربات وسائسي الحمير، وإلقاء التحية والثرثرة في الأكشاك المفتوحة. كانت هذه هي مدينة الإسكندرية القديمة التي لم يكن بها الكثير من التغيرات عندما دخلنا إلى الميدان الكبير الذي كان مُغبرًا ورديئًا. كان هناك تمثال في منتصف الميدان من البرونز على صورة خيال لمحمد علي، وهذا يخالف عقيدة الإسلام التي تُشجع بشكل طفيف جدًّا إيمان المرء بالفن. أضاف الفندق لوحة هائلة خُطّ عليها عبارة "تحت رعاية صاحب السمو الملكي، أمير ويلز" وبها الريشات الثلاث، ولكنهم حذفوا عبارة "سوف أخدم"[168] وهو الأمر الذي اعتقدت أنه نذير شؤم حتى اطمأننت عندما وجدت الخدمة والطاولات جيدة فعلًا.

كان الميدان يعجّ بالحياة؛ فقد كان به وابلٌ من الجنسيات المختلفة، وفيما عدا ذلك فقد لاحظتُ تغيرًا واحدًا مذهلًا. انتشرت اللغة الإنجليزية بصورة مدهشة خلال العشرين عامًا التي مضت وهذا نتيجة لزيادة أعداد المسافرين الأمريكيين والإنجليز الذين زاروا الشرق، فضلًا عن استخدام اللغة مِن قِبل المسافرين مِن الجنسيات الأخرى. فاللغة الفرنسية التي كانت لا غنى عنها خلال السنوات القليلة الماضية بدأتْ في الاضمحلال وأصبحتْ أقلّ استخدامًا مِن اللغة الإنجليزية في إيطاليا وكل بلاد الشرق. لم أشعر بالاندهاش عندما كنتُ في "روما" وبادرني أحد أهل البلد الأصليين وهو ماسح أحذية بقوله: "هل تريد أنْ تلمّع حذاءك؟" كان جُل الباعة الجائلين في "نابولي" الذين يبيعون القصب والمرجان والصور والمحار يعرفون قدرًا من اللغة يكفي ليستطيعوا إبرام صفقة أو بيعة جيدة، ولكن هذا لا يعتبر شيئًا عند مقارنته بالوضع في مصر. كان الأولاد متقدي الذكاء يتعلمون اللغة بسرعة مذهلة، كما كانوا يستطيعون تخمين معنى الكلمات التي لا يفهمونها بصورة سديدة حتى إنّ المسافر أصبح لا يحتاج إلى مترجم. عند قاعدة "عمود بومباي" جاءت لنا فتاة ذات ثياب رثة ومتسخة من أكواخ أحد الفلاحين وتبعتنا وهي تصيح قائلة:

[168] كانت الثلاث ريشات هي شعار "أمير ويلز" وكان يُكتب تحتها عبارة 'Ich dien' " بالألمانية وهي تعني "سوف أخدم".

"أعطوني نصف بنس!" كان كل الحوذيين ومعظم أصحاب الحوانيت يعرفون الكلمات التي يحتاجونها في مجال تجارتهم وكانوا يفضلون استخدامها حتى بعد أنْ يعرفوا أنّ المشتري يتحدث الإيطالية أو العربية. لا شك أنّ البنية السهلة والبسيطة للغة الإنجليزية قد ساهمت في انتشارها، فاللغة الإنجليزية هي اللغة الأساسية في العالم حيث يتحدث بها تسعون مليون نسمة (وهو ضعف عدد الأجناس التي تتحدث الفرنسية) وتزداد غلبتها عامًا بعد عام حتى إنّ أهميتها العملية تفوق أي لغة أخرى.

في الشوارع القديمة خاصة في حوانيت أهل البلد الأصليين كان كل شيء مبهجًا ومتنوعًا وشرقيًّا. الوجوه والملابس واللهجات السورية والطرابلسية والتونسية كلها كانت مختلطة باللهجة المصرية وكذلك مجموعات عرب الصحراء المتجولين كانوا جميعهم يُشاهَدون يوميًّا. هذا الصباح رأيتُ العديد منهم، بدا جليًّا أنهم كانوا متحيرين في شراء مجموعة كبيرة من الدُّمى للأطفال كانوا يشاهدونها من واجهة العرض، فقد كانت وجوههم تستحق التأمل. ولكن ما هذه المهابة التي يتمتعون بها وهم يرتدون البرانس (ثوب فضفاض ذو قلنسوة) الرثة؟! وما هذا الجلال المتألق الجميل الذي يتمتعون به في كل إيماءة أو حركة؟! هذه الصور التي تراها في كل زاوية تُضفي على هذا الجزء من مدينة الإسكندرية الذي يُشبه في طرازه المعماري مدينة "ليفورنو"[169] أو "مرسيليا" طابعًا نصفَ شرقي. كان عدد سكان مدينة الإسكندرية يبلغ 100000 نسمة منهم 22500 من أصول أوروبية. وقد زاد هذا العدد لأكثر من الضعف خلال العشرين عامًا الماضية. كانت بقايا المباني غير المكتملة أو المدمرة هو ما يقع عليه ناظرك حيثما وليت وجهك. كان رأس مال البنوك للمدينة يقدر ب 125000000 دولارًا أمريكيًّا وهو مبلغ لا يقل عن مدينة نيويورك التي – على الرغم من ذلك- لا يدل حجم التجارة فيها على الأسس التي يرتكز عليها. بينما كان الجميع يمتطون الحمير في عام 1852، أصبح هناك الآن تجهيزات فخمة وأصبح التجار الأثرياء يبنون ضواحي بها فيلات فاخرة وحدائق بحي الرمل الذي يبعد حوالي أربعة أو خمسة أميال شرق المدينة.

ذهبنا إلى حديقة الباشا تحت ضوء الشمس الصحوة، والهواء العليل الذي كان منعشًا. كانت الأمارات تدل على أنّ الشتاء سيكون قارص البرودة، فقد كانت أشجار الموز مدمرة ومقروضة وألوان النخيل باهتة ولم يكن هناك أي مِن علامات فصل

---

[169] مدينة إيطالية بإقليم توسكانا.

الربيع. كان شجر الجميز والتين والتوت لا يزال أجردَ ورماديّ اللون كما هو الحال في شمال إيطاليا، لم يكن هناك شيء مزهر عدا شجر اللوز والمشمش. بدت الحديقة وكأنما حلت عليها لعنة غامضة، فقد اختلط الصيف والشتاء والربيع في الأشجار والنباتات وكأنّ الطبيعة قد ضلت التقويم وتسعى جاهدة بقوى خائرة أنْ تكتشف في أي فصل نحن الآن. كانت هناك فرقة موسيقية عسكرية كبيرة يرتدي أفرادها زيًّا قرمزيّ اللون ويعزفون عدة مقطوعات موسيقية صاخبة ومجلجلة لجمهور يتألف من مائة من المستمعين وستة بستانيين يرتدون قفاطين زرقاء اللون ويتجولون في الجوار ليتأكدوا أنّ أحدًا لم يقطف زهور الغرنوقي و"جيلي فلاور" التي كانت قليلة العدد.

كانت رحلة العودة على ضفاف قناة المحمودية أكثر متعة، فقد كان مجرى المياه المتعرج يتمتع بكل خصائص النهر الطبيعي، كما كانت القرى التي يقطنها أهل البلد الأصليون متناثرة على الضفة البعيدة. كانت هناك قوارب يجرّها الرجال تتحرك ببطء ذهابًا وإيابًا، كما كان هناك جِمال وحمير تحمل أثقالًا من جمم النبات والعشب الأخضر من الحقول التي تقع بعيدًا، وحشود من النساء يغسلن ثيابهن أو الخضروات في المياه. بين الفنية والأخرى يمكنك أنْ ترى أحد المسلمين الورعين يولّي وجهه شطر المسجد الحرام بمكة ويصلي صلاة العصر. أذكر أنه كانت هناك مقهى مصرية يظللها النخيل ولكنني لم أتمكن من أنْ أجدها مرة أخرى. كان في مكانها مبنى يوناني صغير قُدّم لنا فيه نوعٌ رديء من "الموخا" في أكواب أفرنجية وحتى النرجيلة وجدتُ أنها فقدتْ مذاقها السابق. في الحقيقة كان ذهابنا لمثل هذا المكان أمرًا صادمًا للحوذيين العرب ولم يكن صاحب المقهى مُرحّبًا بنا. أتعجب ما الذي سيحدث للشرق إذا اختفت ملامحه المميزة؟ إذا بدأ الأمر بالقهوة فسيستمر ليصل إلى الغليون والفنجان الصغير للقهوة ذات الرغوة والرائحة الفوّاحة وفي النهاية سنجد المصري يجلس بالداخل على مِنضدة من الرخام يدخن السيجار في فمه وأمامه زجاجة من المياه الغازية.

بدا جليًّا أنّ المسلمين والأجانب يعيشون هنا جنبًا إلى جنب في انسجام. يبدو أنّ المسلمين قد تغلبوا على أي تحيّزٍ ديني أو تعلموا إخفاء أي أثر لهذا الأمر. حتى عندما كنا نمر عند الحوانيت التي يملكها التونسيون الذين يُعرفون بالتعصب الديني كان مجرد الحديث ببضع كلمات عربية يجعلهم يجيبون بدماثة خُلق وود. بغضّ

النطر عن العادات الأجنبية التي اكتسبها الأفراد هنا، إلا أنهم لا يزالون يتمتعون بالسماحة والبهجة، يُحدثون صخبًا وجلبة ولكنهم يَقنعون بالقليل. يقع في ظني أنّ تغيير ملابسهم (وهو أمر يعني الكثير هنا أكثر مما يعنيه في معظم الدول الأخرى) يجب أنْ يسبقه –أو على الأقل يكون علامة- تدلّ على أي تغيير آخر هام في أفكارهم.

إذا كانت قناة السويس قد أثّرت على التجارة بالإسكندرية- كما كان متوقّعًا- فقد عُوضت تلك الخسائر بطرق أخرى، وذلك لأنّ عددًا قليلًا من المدن التي في نفس حجمها تتمتع بنمو ورفاهية أكثر من الإسكندرية. أخبرني السيد "بابيت"[170] نائب القنصل الأمريكي أنّ التجارة مع الولايات المتحدة الأمريكية ازدهرت بشكل كبير خلال العام الماضي. فالإسكندرية ليست المكان الذي يقبع فيه السياح لفترة طويلة وذلك لأنّ العمود الذي يُطلق عليه الحوذيون العرب اسم "عمود بومباي" يمكن مشاهدته في ساعة واحدة، ولكنه بالفعل واجهة جذابة للحضارة المصرية الجديدة.

تحظى الفنادق بكل وسائل الراحة الأوروبية باستثناء الأجراس ولكن إذا كان جناب الخديوي على استعداد لأنْ يقف على باب حجرته ويصفّق بيديه ثلاث مرات حتى يأتيه النادل فلماذا نعترض نحن إذن؟ فضلًا عن ذلك، فيمكنك أنْ تتذكر أنهم كانوا يفعلون الأمر ذاته في "ألف ليلة وليلة".

يتصور العديد من المسافرين الأمريكيين أنّ شهر مارس (آذار) يُعدّ وقتًا متأخرًا للسفر إلى مصر، ولكن يتعين عليّ أنْ أخبرهم أننا ننعم بالراحة – لا أكثر- وليس هناك أية حرائق، فدرجة الحرارة تُشبه أوائل أيام شهر يونيو (حزيران)، ويمكنني القول إنها حوالي 70 درجة فهرنهايت في الظلّ.

---

[170] Babbitt.

الفصل الثاني

من الإسكندرية إلى القاهرة عبر السكة الحديدية

القاهرة، 16 مارس (آذار).

أصبح الطريق القديم من الإسكندرية إلى القاهرة عبر قناة المحمودية وحتى مدينة "العطف" ثم عبر فرع رشيد في الأعلى دربًا من دروب الماضي، فبدلًا من قضاء اثنتي عشرة ساعة على ظهر باخرة، أو من ثلاثة إلى ستة أيام على متن "ذهبية" أصبح القطار السريع يقطع مسافة المائة وثلاثين ميلًا الآن في أربع ساعات ونصف تمامًا، وينقل المسافر عبر اليابسة في الدلتا التي لم يحظ برؤيتها قط مِن ذي قبل.

تحذّر كل السلطات بما في ذلك الدليل السياحي رسميًّا من ركوب القطارات العادية لأنّ تلك القطارات لا تلتزم نهائيًّا بالمواعيد المحددة، وربما تتأخر لعدة ساعات في الطريق. بالنسبة لنا كان القطار منتظمًا في موعده كما كان سريعًا جدًّا، فلم أكن أعتبر أنّ التطويل لساعة ونصف إضافية في طريق جديد تمامًا يُعدّ كثيرًا، لذا لم أكترث كثيرًا عندما ثبت أنّ هذه التوقعات كانت خاطئة ووصل القطار في موعده بالضبط دون أي تأخير.

في محطة الإسكندرية، كان هناك مبنى كبير مغبر خلف القناة، بالطبع منذ الوهلة الأولى تستشعر جوًّا من الهدوء واللامبالاة. كان بائع التذاكر الجالس عند الشباك يَعُد قطعًا ذهبية لمدة خمس دقائق قبل أن يُنصت إلى طلبي، كما كان المسؤولون في غرفة الأمتعة والحقائب يناقشون العديد من الموضوعات وهم يزنون صُندوقيْ الأمتعة الصغيرين اللذين كانا معنا. كانت تكلفة تذكرة الدرجة الأولى أقل من ستة دولارات بقليل ويُضاف لها "فرنك" مقابل الحقيبة وهذا لا يُعدّ تكلفة باهظة. تجمّع العشرات في غرفة الانتظار الرديئة، أمّا ركاب الدرجة الثالثة والرابعة فقد ظهروا في حشود كبيرة بعد أنْ خرجوا من وكرهم المنفصل. كانت عربات الدرجة الأولى والثانية مصنوعة على الطراز الإنجليزي فقد كانت بها مقاعد جلدية وثيرة ولكن لم تكن هناك ستائر على النوافذ. كان المحصّل ومساعده يتحدثان الإنجليزية ولديهما معرفة سطحية بالفرنسية والإيطالية. بدا جليًّا أنّ كل مَن لهم صلة بالقطار كانوا يتسكعون على الرصيف، ويتحركون ببطء، ويتحدثون بلطف، يتحينون الفرصة ليحظوا بقيلولة هادئة. لم تكن هناك ضوضاء فلم يكن هناك صفير أو خُوار من القطار بل جرس فقط له مقرعة بطيئة جدًّا تُضرب مرة واحدة أو مرتين في مكان

ما، وفي الدقيقة المحددة ينزلق القطار من المحطة دون أنْ يُحدث ضجّة. في الحقيقة، منذ البداية وحتى النهاية كان الصوت والارتجاج أقل بقليل من أي سكة حديدية أخرى سافرتُ عليها من قبل. كان المسار مستويًا تمامًا وبه القليل من المنحنيات التي ترتكز على حواجز منخفضة من الطمي الغريني القابل للتمدد تُوضع فيها قضبان السكة الحديدية حتى لا تغور وذلك باستخدام صحف من الحديد عِوضًا عن الفلنكات.

في الخمسة وعشرين ميلًا الأولى في الطريق بين بحيرة مريوط على اليمين وقناة المحمودية على اليسار هناك القليل الذي يمكن مشاهدته. على أحد الجانبين كانت هناك المياه والبوص والشواطئ الرملية التي تُرى عن بُعد والبط البري والبجع ومجموعات طائر اللقلاق في المستنقعات القريبة. أمّا في الناحية الأخرى، فقد كان هناك حقول القمح والشعير الضئيلة، والمراعي التي يرعى فيها الجاموس والأحصنة، ومجموعات الأثل أو النخيل التي تحيط بكل هذا مثل الإطار الموحل لصورة بسيطة ولكنها مشرقة، وضِفتا القناة التي يمكنك أنْ ترى عليهما أطراف الأشرعة المثلثة الملتوية والمدببة. على مسافة نصف ميل أو ما يقرب من ذلك عندما كنا نرى هضبة مرتفعة قليلًا عن التُربة المغمورة بالمياه، كنا نرى قرى الفلاحين التي تُشبه عش زنابير الطين المُكبّر، ومعهم الدواجن الهزيلة والأطفال يحومون حولهم تحت أشعة الشمس، بينما كانت النساء يحملنَ المياه من البركة المجاورة.

كانت المحطتان الأولى والثانية هما أماكن توقف لرشّ المحركات، ولكن حتى في هذه المحطات وجدنا الساقين الذين يحملون الجرّات المسامية (القلل) وبائعي البرتقال وقصب السكر ينادون على الزبائن صارخين. لم يكن هناك أحد يُعلن عن أسماء المحطات التي نمر عليها، ولكن أحد مساعدي المحصل الذي استشعر رائحة بقشيش تلوح في الأفق عن بعد وكان يتحدث القليل من الإنجليزية أخبرنا بأسماء الأماكن التي كنا نمر عليها. أحد المستخدمين من أهل البلد الأصليين كان دومًا متاحًا بجرس تنبيه كبير. كان الرجل جادًّا ويتحلى بالمسؤولية فقد كان يعطينا إشارة المغادرة دائمًا. ومع ذلك، فعلى الرغم من أننا توقفنا كل اثني عشر ميلًا وكانت هناك نداءات متمهلة ولطيفة في كل مرة، إلا أنّ سرعتنا كانت تتراوح بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين ميلًا في الساعة.

ما إن انتهينا من الجزء الشرقي لبحيرة مريوط حتى اتجه الطريق ناحية الجنوب ودخل في الإقليم الكبير ذي الثلاث زوايا لمصر السفلى. غابت المستنقعات القريبة والشريط الرملي البعيد عن مرمى البصر تمامًا، ولاحت في الأفق حقول القطن، والفول، والقمح، والشعير، والبرسيم تقطعها قنوات الري التي يمكن تتبع مسارها من خلال حدودها من الأثل – الشجرة المقدسة عند أزوريس [171]. كان الرجال والأطفال جميعهم خارج المنزل يحرثون مع مجموعات الجواميس ويقطعون البرسيم ويشاهدون الماشية التي ترعى أو يجلسون القرفصاء في الشمس ولا يفعلون أي شيء. كانت رائحة الخضرة المنعشة تفوح من النوافذ المفتوحة ونحن نمر بسرعة. كانت درجة الحرارة تجعل النسيم أمرًا محبّذًا، إلا أنّ ملابسنا المصنوعة من الصوف كانت ثقيلة. كان الجوّ يُشبه جوّ الربيع الدافئ دون إنهاك أو يومًا صيفيًّا يداعبه هواء هضبة عالية.

بعد أنْ قطعنا حوالي أربعين ميلًا من الإسكندرية وصلنا إلى مدينة دمنهور الكبيرة التي تُعدّ عاصمة كل الإقليم الزراعي تقريبًا الذي يقع غرب النيل حيث يصلها بنهر النيل قناة صالحة للملاحة. يبدو أنه كان هناك المئات من المدن المبنية من الطين التي تحولت إلى حطام ثم بُني على حطامها مدن أخرى، ولذا تكونت رابية مرتفعة بُنيت عليها المدينة الحالية. كانت هذه المدينة مبنية من الطين أيضًا، أما صفوف المنازل فقد كانت "مدقوقة" (دعني أستخدم هنا المصطلح الذي ذكره البناء) مثل بوّابات المعابد القديمة وهو الأمر الذي أضفى على تلك المنازل مهابة وفخامة. أظنّ أنّ هذا اليوم كان اليوم المخصص للسوق أو أنّ معرضًا كان مُقامًا آنذاك، فقد كان هناك الآلاف من الرجال والنساء والأطفال والجِمال والثيران والحمير تملأ الساحة المفتوحة على المنحدر الغربي للرابية وكان هناك حشود من المتطفلين الفضوليين يتجمهرون في المحطة. كان الركاب المصريون يحضرون معهم رؤوس الخس الذي يأكلونه بشهية والروائب وأقراص الخبز الجافة الداكنة. كان هناك إقبال كبير على زجاجات المياه التي تُستخدم لغسل الأيدي، لذا بدا جليًّا أنّ السكك الحديدية قد تكيفتْ مع عادات أهل البلد الأصليين بدلًا من أنْ تُغيّر تلك العادات. كان الناس الذين يأتون لمشاهدة القطار من العاطلين الذين لم يَعُد القطار ولا الأجانب بالنسبة لهم شيئًا مُدهِشًا، لذا كان أي شيء مبتدَع يُقبَل وكأنه أمر حتمي لا مفر منه. أعتبر نفسي

---

[171] "أزوريس" رب العالم السفلي عند القدماء المصريين.

شخصًا ليبراليًا وكان من المفترض أنْ أُصاب بخيبة أمل، إلا أنني -على الرغم من ذلك- شعرت بالرضا في قرارة نفسي عندما أيقنت أنّ الهدوء والسكينة التي يتمتع بها الشرق لم تتأثر قيد أنمُلة.
كانت رؤيتنا لذلك السوق في دمنهور تُشبه مشاهدتك للوحة أُسدل الستار عليها قبل أنْ تراها جيدًا. كان الطريق الرئيسي للمدينة يسير بمحاذاة السكة الحديدية لمسافة عشرة أميال أو خمسة عشر ميلًا وشاهدنا من خلاله مواكب متصلة من جموع الناس الذين كانوا في طريقهم إلى السوق. كان المشهد متنوّعًا تنوّعًا كبيرًا وينبض بالحيوية. كان هناك قبطي يرتدي عباءته السوداء التي تنفخها الرياح وهو جالس على حماره، كما كان هناك جمل يحمل أشولة الحبوب وفوقها قُنٌّ به الكثير من الدجاج، وأسرة كاملة من الفلاحين بعضهم يمشون والرجال يركبون، كانت النساء يحملن فوق رؤوسهن حزمًا من الحبوب ويحافظن على توازنها وكان هناك طفل عارٍ يستحم في بركة متبقية في القناة التي جفّت، وأحد الباعة المتجولين يستريح وهو يجلس القرفصاء في الشمس. كان المشهد يزخر بالأمور المهيبة فقد كان هناك أحد "البابـاوات" يمنح مباركته للعالم، وكذلك ضابط مصري يتبختر على ظهر حصانه ومعه حامل النربيج يرتدي زيّا لونه أبيض وقرمزي ويركض أمامه. كانت هذه هي الشخصيات الأساسية في أحد المواكب الذي كانت ألوانه مُتنوّعة أمام الخلفية الخضراء الغضّة لحقول القمح أو اللون الأزرق اللؤلؤي الباهت للهواء. لولا هذه الأشياء، لكانت الدلتا أشبه ما تكون بسهوب إيلينوي.
في الظهيرة وصلنا إلى النيل وعبرنا فوقه عن طريق جسر حديدي بديع يؤدي إلى مدينة كفر الزيات التي يقف فيها القطار لمدة عشرين دقيقة. يُقال إنّ هناك مطعمًا هنا ولكنه ليس داخل المحطة وأعتقد أنّ القليل من الركاب يرتادونه وأنه لن يكون هناك مُرشد ليدلني على الطريق. كان هناك الكثير من الخس وعيدان قصب السكر ومربى التين وكذلك البرتقال الذي كان متسخًا من كثرة التناول بالأيدي. كنا نحن مجموعة المسافرين الأجانب الوحيدة على متن القطار، لذا حظينا باهتمام أقل مما كنا سنحظى به إذا سافرنا بالقطار السريع. كان مساعد محصل التذاكر هو الشخص الوحيد الذي بدا أنّ لديه مطامعَ في ثرواتنا وكانت نيته واضحة منذ البداية. اتخذنا قرارًا سديدًا وأحضرنا غداءنا معنا، لذا استمتعنا بفترة الانتظار في كفر الزيات ولولا هذا لكنا أصبنا بخيبة أمل كبيرة.

لمسافة أحد عشر ميلًا في اتجاه طنطا كانت البلاد تبدو وكأنها لوحة زراعية بديعة. كان كل قدم من الأرض يثمر حصادًا وفيرًا ويبدو أنّ التربة لا تحتاج أكثر من أسبوع واحد من الراحة بين المحصول والمحصول الآخر الذي يليه. بلغ ارتفاع محصول القمح آنذاك قدمًا، أمّا الشعير فقد كان ارتفاعه يصل إلى الرأس، وكان محصول الفول مزدهرًا، كما كان شجر اللوز وأوراقه النضرة بديعًا. عند النظر في اتجاه الشمس كانت الأرض الرحبة تبزغ وكأنها زمردة رائعة، أما التربة فقد كان لونها بنيًّا داكنًا وهي تُقلّب بالمحراث وتزخر بالخصوبة التي يمكن أن يسيل لها لعاب أي مزارع أمريكي. مع وجود مثل هذه التربة وتحت مثل هذه السماء الصافية بدا المزارعون في الحقل وكأنهم يمرحون، ولكنْ على الرغم من قدرة الفلاح المصري على التراخي، إلا أنه لا يمكن أن يُعتبر كسولًا بأي حال من الأحوال، بل إنه على النقيض من ذلك يعمل بثبات ومرح عندما تضطره الظروف أو تأمره إحدى الجهات التي يُكنّ لها احترامًا. كان هناك القليل من الناس الذين تُثقل الضرائب كاهلهم مقارنة بما لديهم من إمكانيات وموارد ولا أحد يتحمل أعباءهم بصبر مماثل.

كانت طنطا بلدة كبيرة وتدبّ فيها الحياة، كما كان بها أحد قصور الخديوي الأربعين أو الخمسين. كان بها فروع أخرى للسكة الحديدية تصل إلى أسفل الدلتا، كما كانت محطة القطار بها رحبة ونظيفة على غير العادة. للمرة الأولى منذ مغادرتنا مدينة الإسكندرية كان هناك عدد كبير من الركاب. كان العديد من المنازل المشيدة حديثًا على الطراز الإيطالي مجصّصًا ومَطليًّا ومُحاطًا بحدائق غناء. هذا هو كل ما استطعت رؤيته من هذا المكان الذي آمل أن أزوره مرة ثانية قبل مغادرتي لمصر حتى أتمكن من وصفه بدقّة.

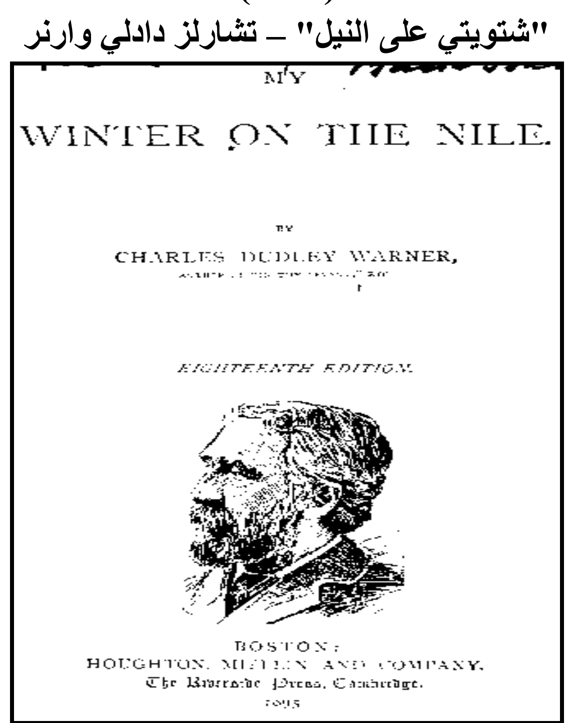
كانت مسافة العشرين ميلًا صوب فرع دمياط من النيل تُشبه تمامًا ما رأيناه من ذي قبل. في أحد الحقول كانت التربة الغرينية الخصبة تقطعها جزيرة رملية -عبارة عن أخدود منخفض يمتد لمسافة أربعة أميال أوخمسة- ويبدو أنه تكوّن في موقعه الحالي نتيجة هبوب الرياح من الصحراء الشرقية عبر عدّة قرون مضت. كانت هذه الجُزر ذات طابع غريب مثل تلك الجُزر التي كانت في شمال ألمانيا ويمكن جعلها ثابتة بنفس الطريقة أي من خلال تغطيتها بأعشاب وشجيرات ملتحمة. كان ارتفاعها عن

اليابسة بسيطًا جدًّا، لذا فمن الممكن ريّها بالماء حتى لا تكون جدباء. في الحقيقة رأيت بداية هذه العملية تدخل حيّز التنفيذ في العديد من المواقع أثناء الطريق.
بالنسبة للنخيل والقرى المبنية بالطين اللبِن، كان هذا الجزء من الدلتا أشبه ما يكون بالسهول في انجلترا في أوائل شهر يوليو (حزيران)، فالألوان الداكنة للنباتات وتدُّرج ألوان السماء المتغيرة لم يجعل المنظر يبدو رتيبًا للعين. عندما عبرنا الفرع الثاني للنيل مررنا ببلدة "بنها" المزدهرة التي ينطلق منها فرع للسكة الحديدية إلى الإسماعيلية والسويس. لقد أصبحت "بنها" أكثر كثافة سكانية من ذي قبل. هذا الإقليم هو أرض "جوشن" التي أقام بها بنو إسرائيل، لا عجب إذن أنّ الكثير منهم كانوا يعضّون أصابع الندم والحسرة على التّرف والرّغد الذي كانوا يتمتعون به في هذا الإقليم عندما خرجوا مع موسى (عليه السلام) عن طريق أودية سيناء القاحلة.
عند هذه النقطة يمكنك أنْ ترى قمتين زرقاوين بعيدتين يعتلي كل منهما النخيل والأثل الذي يظهر في الجنوب الغربي للأفق وتعرف أنّ هذه هي الأهرامات من خلال اتساق هيئتها.
عندما قطعنا عشرين ميلًا في اتجاه القاهرة، أصبح المشهد يعجّ بالحياة شيئًا فشيئًا أكثر من ذي قبل. على كلا الجانبين في تلك المسافة، كانت الهضاب الصحراوية الجرداء ذات اللون الأصفر تبزغ وتمثل تباينًا كبيرًا عند مقارنتها بنضارة الحقول. بدأت القرى الريفية تختفي ويظهر بدلًا منها منازل المدن جيدة البناء التي يحيط بها حدائق البرتقال والموز. كان الطريق الرئيسي يزخر بصفوفٍ من الخيل والجِمال والحمير، كما كانت قطعان الغنم المكسوّة بالصوف البُنيّ الكثيف تأكل الكلأ على الضّفة، فضلًا عن مجموعات "أبو منجل" التي كانت تقف منتصبة وتنظر إلى القطار وهو يمر دون أي خوف. كان هناك محرك بخاري صغير يضخّ المياه للريّ وكان هناك رجل يقلقل قِطعًا كبيرة من التّربة الخصبة الثريّة من القاع المتصدع للقناة الجافة ويجمعها ليخصّب بها التربة في حديقته. كانت الجِمال تحمل السماد للحقول في سلات كبيرة وترجع وهي محمّلة بحزم البرسيم. عندما لاحت قلعة محمد علي ومناراتها العالية في الأفق رأينا أيضًا مداخن المصانع التي ينبعث منها الدخان، والثكنات على كلا الجانبين، يمكنني أنْ أوجز الأمر بقولي إنها كانت مدينة كبيرة ومزدحمة وتنبض بالحياة، ولكنْ كل ما علق في ذاكرتي هي الحقول الخضراء الشاسعة.

في محطة قليوب كان هناك فروع أخرى لخط السكة الحديدية تتجه نحو الشرق في اتجاه مسار قناة المياه الجديدة التي تجري بها مياه النيل إلى بورسعيد والسويس.
يلتقي هذا الخط مع الطريق الآتي من بنها في مدينة الزقازيق وبهذا تكون نقطة وصل عبر السكة الحديدية بين القاهرة والبحر الأحمر. لقد أُلغي خط السكة الحديدية الذي كان يقطع الصحراء مباشرة وكان أقصر من هذا الخط.
سرعان ما دخل قطارنا إلى المحطة في شبرا في الوقت المقرر. كان في انتظارنا حافلة تتبع "فندق النيل" ورافقنا محصّل تلك الحافلة بهدوء وعبر بنا من خلال الأمواج المتلاطمة للعتالين العرب. كان ركاب أهل البلد الأصليين أقل حظًا، فقد استولى عليهم العتالون وأخذوا يطرحونهم هنا وهناك. كان هناك مئات الصرخات تتوسل إليهم أو تعترض كما كان هناك مائتا يد تمتد إلى الأمام لتعطي تحذيرًا أو تتجه إلى السماء في مناشدة جنونية. لا يمكنني أنْ أتوقع المدة التي استمر فيها هذا الهرج والمرج، ولكنّ هذا الصوت كان يخفت كلما ابتعدنا عنه ولكنه لم يكن يقلّ.
مررنا بشوارع رحبة ومزدحمة وشاهدنا العمارة الأوروبية واللافتات المكتوبة بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والعربات المكشوفة والسيدات غير المحجبات –
هل هذه هي القاهرة؟ وجدتُ من الصعب تصديق الأمر. نظرت يمينًا ويسارًا يحدوني الأمل أنْ أرى أيّ معْلم قديم، ولكن دون جدوى. كان هناك ميدان مغبر كبير: هل يمكن أن يكون هذا هو ميدان الأزبكية الوارف- الذي يُعدُّ وكرًا لثرثرة أهل البلد الأصليين وأولئك الذين يسردون القصص؟ أخيرًا ظهر شارع الموسكي القديم، ولكنه كان موحِلًا ومزدحمًا كما لم أره من قبل قط. توقفت الحافلة وسرنا عبر زقاق ضيق وملتوٍ بين منازل شرقية مرتفعة وولجنا منها فجأة في حديقة مشمسة للنخيل وشجر السنط يحيط بها الزوايا الأربع للفندق. هنا في الأمسية المنعشة رفع المؤذن أذان العصر من مئذنة قريبة وبعد ذلك لم يُسمع أي صوت أو صياح قط من أي من الشوارع المتنافرة وعندئذٍ شعرت أنني وصلت إلى القاهرة.

(1874)

"شتويتي على النيل" – تشارلز دادلي وارنر


MY

WINTER ON THE NILE.

BY

CHARLES DUDLEY WARNER,

EIGHTEENTH EDITION.

BOSTON:
HOUGHTON, MIFFLIN AND COMPANY.
The Riverside Press, Cambridge.

الفصل الثاني

عبر البوابات

دفعنا حماسنا لرؤية أفريقيا إلى أنْ نصعد على ظهر السفينة فجرًا. لم يكن الساحل المنخفض مرئيًّا حتى الآن. كانت أفريقيا -وفقًا لما درسناه- تقبع في الظلام الحالك. كانت سياسة الحكومة المصرية هي جعل دخول الميناء أمرًا عسيرًا للمحاربين، لذا كان علينا نحن –الراغبين في الدخول في سلام- أنْ ننتظر حتى يطلع النهار وألا ندخل حينها إلا بمرافقة مرشد.

كان طلوع النهار خلابًا وكانت "فاروس" تبزغ مثل النجم في الشريط اللامع للشرق. قبل أنْ نتمكن من رؤية اليابسة، رأينا ما يُسمّى بـعمود "بومباي"، والمنارة، والنخيل، والمآذن، والقِباب المطلية باللون التبني الفاتح للسماء، بدت الصورة وكأنها حُلم. عندما رُفع الستار أظهر لنا السكينة التي يتمتع بها الشرق –يبدو أنّ الشمس تشرق في الشرق أكثر مما تُشرقه في أي مكان آخر، وكذلك السماء تبدو أكثر بريقًا وهناك خطوط طويلة من السّحاب الذهبي والقرمزي كما لو كنا ننظر على مسافة

أميال وأميال من بلد مسحورة. بعد ذلك، أصبح عددٌ كبير من السفن والقوارب مرئيًّا في الميناء، وكلما زاد ضوء الشمس فقدت المدينة والأرض جزءًا من جَمالها، أما السّماء فقد أصبحت أكثر توهجًا واحمرارًا حتى طلعت الشمس. تقع المدينة بمحاذاة الساحل المنخفض وتبدو في الوهلة الأولى وكأنها شريط أبيض يميل إلى اللون البني به خطوط رفيعة من صواري السفن، والنخيل تعلوها المآذن.

كان الحماس الذي شعرنا به عند وصولنا إلى الإسكندرية وحداثة كل شيء يتعلق بالرسو على اليابسة يُعد تجربة فريدة لا يمكن أنْ تتكرر. ففي لحظة واحدة يُومض الشرق على المُسافر الذي أصابه الذهول –على الرغم من أنه ربما يُسافر إلى ما هو أبعد من ذلك ويرى مشاهد غريبة ويتغلغل في كشف أسرار غموض الشرق- إلا أنه لن يرى أبدًا مثل هذا التناقض التام لكل خبراته السابقة دفعة واحدة. فما يلبث أنْ يرى شيئًا غريبًا حتى يظهر شيء آخر أكثر غرابة بسرعة دون أنْ يكون هناك وقت كافٍ ليغيّر انطباعه، فكل شيء غريب جدًّا حتى إنّ القادمين الجُدد لا يتمتعون حتى برفاهية المقارنة. فالمسافر يجد نفسه في عالم جديد ولا يكون لديه وقت ليضبط محور تركيزه. بالنسبة لي، كنت أتمنى أنْ يتوقف الشرق قليلًا لأتمكن من فهمه، ولكن أنّى لي ذلك، فحتى "الكليدوسكوب" [172] لم يكن يقدم مثل هذه الأشكال الغريبة والألوان للطفل مثلما رأينا في ميناء الإسكندرية.

كان أول ما وقع ناظرنا عليه فيما يتعلق بالأردية الغريبة هي الملابس التي كان يرتديها المرشد والطاقم الذين أحضروهم كانوا نوبيين وكان المرشد مصريًّا داكن البشرة. "يا لهم من أشخاص داكني البشرة" علقت البارونة، "لا يعجبني هذا الأمر". عندما وطِئت قدم المرشد ظهر السفينة بعمامته البيضاء وثوبه القطني الفضفاض وخفّه الأحمر، جلب معه الشرق وشعرنا بأثر الروح الإسلامية. عندما دخلنا إلى الميناء، أرانا المدفعيات، وقصر الباشا، والحرملك الخاص به (هناك فضول كثير تجاه الحرملك أكثر من أي مبنى آخر ربما فيما عدا مستشفى الأمراض العقلية)، والفيلات الجديدة على ساحل الشاطئ. كان من العسير رؤية المدخل بسبب السفن الكثيرة المحتشدة.

لم يتم إنزال المرساة إلا بعد أنْ أحاط بنا ستة قوارب تجديف أو ثمانية على كلا الجانبين وبهم حشد من رجال القوارب والمرشدين الذين كانوا واقفين يصيحون فينا

---

[172] منظار النماذج المتغيرة.

بكل اللغات المكسّرة المستخدمة في الثلاث قارات. سرعان ما صعدوا على جوانب السفينة وأصبحوا على ظهرها، بينهم مَن هو أسود البشرة أو بني أو أصفر وجميعهم يرتدون عماماتٍ أو طرابيش أو ثيابًا بيضاء أو زرقاء أو بنية اللون وحول خصرهم شالٌ لامع. كان بعضهم يرتدي خفًّا والبعض الآخر حافي القدمين، أو نصف عارٍ حيث يرتدي سروالًا قطنيًّا فقط وطربوشًا أحمر. كانت أعينهم كبيرة وكانوا يتدافعون ويصيحون ويلوّحون ويُمسكون بالركاب والأمتعة ويتقاتلون ليستحوذوا على أمتعة المسافرين التي بدت وكأنها ستقسّم على العديد من القراصنة. رأيت أحد المسافرين الذي كان مذهولًا وهو يحاول النزول إلى المِرفأ بينما كانت بعض أمتعته في قارب وحقيبته في قارب آخر وكان هو يركب في قارب ثالث وكان هناك سمساران عند كل ذراع من ذراعيه يحاولان أنْ يشُداه إلى قاربين آخرين. بدا جليًّا أنه لم يستطِع أن يقرر أيّ قارب يركب.

حسمنا أمرنا بالنسبة للفندق الذي سننزل فيه وسألنا عن الوكيل الخاص به. ظهر أمامنا الوكيل ولكنْ كان هناك ثلاثون شخصًا يدّعون أنهم هو. كان الشخص الأول طويلًا ومُقنعًا وهو أثيوبي شبه عار، وأكّد أنه هو الوكيل الحقيقي الوحيد وأمسك بحقائبنا الصغيرة. على الفور ظهر رجل سكندري يبدو وكأنه رجل أعمال ويتمتع بفصاحة اللسان ودفع الأول جانبًا ثم قال: "أنا الوكيل" وكاد أنْ يستحوذ علينا حتى ظهر العشرات الآخرون الذين كانوا جميعًا يشبهونه وبدأ الصخب واللغط. تمكنّا من إنقاذ أمتعتنا واستمر الشّجار والجدال الأشِر حول هويّة الوكيل الحقيقي للفندق لمدة عشر دقائق. بدا جميعهم وكأنهم قراصنة من الساحل البربري وليسوا وكلاء للمسافرين المسالمين. بينما كنت أقطع برتقالة إلى أربعة أجزاء وقفت وسط مجموعة شيّقة من أولئك الذين كانوا منهمكين في الجدال، كانوا يتدافعون ويصيحون ويلوِّحون بشراسة. انحصر النزاع أخيرًا بين شخصين:

"أنا فندق أوروبا!"

"أنا فندق أوربا، ليس هو."

"هو أخي، هو مثلي أنا."

"هو! لم أره من قبل قط،" بنبرة يشوبها الاستهجان والسّخط.

ما إنْ وقع اختيارنا على أحدهما، حتى انحسر الصّخب وتحوّل الأعداء إلى أصدقاء وتعاونوا معًا في تحميل أمتعتنا. خلال الخمس دقائق الأولى التي يقضيها المسافر في مصر يتعلم أنّ الأشخاص الذين يجب عليه أنْ يثق بهم وأولئك الذين يخدمونه ليس لديهم أيّ فكرة أنّ الكذب ليس هو الطريقة الشرعية للوصول إلى أية نتائج مرجوّة. يفقد المسافر تدريجيًّا أي انحياز لديه تجاه أصحاب البشرة البيضاء، أو أي انحياز يتعلق بالملابس. ففي مثل هذا الطقس الجيد يرى أنّ القليل منها هو ما يحتاجه المرء حتى ينعم بالراحة، ويدرك أنّ الشعوب المتكلفة اعتادت ارتداء الملابس لتُظهر نوعًا من التواضع الزائف.

بدأنا نشقّ طريقنا عبر متاهة من السفن ومئات القوارب الصغيرة والعبّارات، كان المشهد مُبهجًا ومُثيرًا بطريقة تعجز عن وصفها الكلمات. كان المشهد الأول للشرق الزاخر بالألون والصور والتسكع والانتظار كفيلًا بأنْ يحوّل أي شخص مرهَف العواطف لشخص جامح، فقد كان المسافر يرى الكثير مما هو جديد وبديع المنظر في دقائق معدودة. كانت هناك العديد من الألوان والثياب التي يطيّرها الهواء لتكشف عن الأرجل العارية والبشرة الداكنة. رأينا قوارب تدخل إلى الميناء وهي محمّلة بعمال ذوي بشرة داكنة في مجموعات ثابتة يرتدون عماماتٍ وجلابيبَ ويجلسون القرفصاء على ظهر المركب وهو المشهد الذي يُعدّ من أهم سمات الشرق- لم يكن أي منهم قائمًا أو قاعدًا– بل كان جُلهم يجلسون القرفصاء أو يرقدون وهم متربعون. كان الجنود كلهم في حراك، فالجنود الأتراك البارعون كانوا يثِبون في قوارب صغيرة بها ستة من المجاديف، وطاقم من الجنود الإنجليز يسحبونهم من الخلف. كانت القوارب السريعة تتحرك في جميع الاتجاهات ومع شحنتهم متعددة الألوان بدا المشهد وكأنه إيلاج لمكاكيك سريعة لنسج بساط بهيّ أمام أعيننا.

وطئت أقدامنا الشاطئ عند مكتب الجمارك. سمعت أنّ المسافرين يتذمرون من التأخير في المرور من مكتب الجمارك، ولكنني شعرت أنني أرغب في أنْ أمرّ من مكتب الجمارك ببطء حتى إنني كنت آمل في أنْ أقضي اليوم كله هناك لأنني كنت أشعر وكأنني أمشي بسرعة تمامًا مثل الشخص الذي يُجرّ سريعًا أثناء مطالعته لجاليري (صالة عرض) حتى إنه لا يستطيع أنْ يرى سوى ومضات من الصور الأولى التي أدهشته بشدة. كانت هناك مجموعات عديدة على الشاطئ، المرشدون المزعجون، والعتالون، والعمال الذين استحوذوا علينا. كنا نرغب في أنْ نطيل

البقاء لننظر إليهم. هل يمكن لأي رجال متحضرين أنْ يرتدوا مثل هذه الثياب بكل سرور؟ إنهم يرتدون الكثير من الملابس أو القليل منها في المكان الخاطئ! إذا فك ذلك الرجل طيات عمامته الضخمة فسيكون لديه قماش كاف لكساء سائر جسده بطريقة كافية. انظر! هذا هندي وهذا يوناني وهذا تركي وهذا يهودي- سوري! لا، بل هو مصري، الأنف المحدّبة ليست شيئًا غير معتاد في مصر، هذه القبعة المستديرة الطويلة فارسية، وهذا الشخص من الحبشة وهكذا، كل هذا ونحن لم نر نصفهم حتى الآن! تركنا جوازات السفر الخاصة بنا عند المدخل وولجنا في غرفة الأمتعة حيث دفع مرشدنا إلى الضباط النبلاء ثلاثة فرنكات حتى يتعرف عليهم ويتودد إليهم. حمل أمتعتنا بعض العتالين الذين كانوا شبه عراة وبحوزتهم حبالٌ طويلة وقبل أنْ ندرك الأمر وجدنا أنفسنا فجأة في العربة ومعنا مرشد حقير ومترجم – يعلم الله كيف فرض نفسه علينا في الخمس دقائق الأخيرة- ووجدناه على الصندوق وبدا وكأنه تملكنا. (كلفنا الأمر يومًا كاملًا وكثيرًا من البقشيش حتى نتخلص من هذا الرجل الحسود). ما إنْ خطونا بضع خطوات حتى هرول خلفنا مجموعة من العمال العراة، كانوا يجرون بجوار العربة ويُمسكون بها ليطلبوا بقشيشًا. يبدو أنّ الرجل الذي كان في القارب خدعهم، أو أنهم يظنون أنه سيفعل ذلك، أو أنهم لم يحصلوا على قدر كافٍ من المال. لا يثق أي أحد في غيره، ولا يرضى أبدًا أي شخص في مصر بما يحصل عليه. تبعنا أولئك العتالين ذوي البشرة السوداء الذين كانوا يرتدون جلاليبَ بيضاء متسخة ويلوّحون بحبالهم ويصيحون مثل المجانين لمسافة طويلة وكأنهم كانوا سيقطعوننا إربًا إربًا، ولكن لم يحدث أي شيء من هذا القبيل. وصلنا إلى تمثال "محمد علي" -الميدان الأوروبي [173]- الذي سُمّي كذلك لأنه لم يكن به أيُّ شيء شرقي، فهو ميدان به تمثال للفارس "محمد علي" وهو على جواده، وبعض الأشجار ونافورة تحيط بها الفنادق ومكاتب الصرافة وحوانيت أجنبية.

لم يكن هناك الكثير الذي يمكن رؤيته في الإسكندرية باستثناء الناس والحوانيت القذرة. لم نر أبدًا من ذي قبل هذا الكم من العُري والوحل والدّنس، كان هناك فقر كثير وكان هناك استمتاع به أو قل لامبالاة تجاهه. وجدنا أنفسنا مضطرين إلى أنْ نضع مقياسًا جديدًا لتقييم الفقر والتعاسة. كان الناس فقراء بدرجات متفاوتة لأنهم

[173] ميدان المنشية حاليًا.

كانوا غير قادرين على إشباع احتياجاتهم. كما كان هناك الآلاف ممن لديهم أقل من احتياجاتنا نحن وربما كانوا أقل فقرًا. كان من الصعب تقدير فقر أولئك الأطفال المحظوظين الذين تمنحهم الشمس بجودها لونًا دافئًا يرتدونه، وأولئك الذين لا يعملون ولكنهم يجلسون طوال اليوم في الشوارع والطرق الرئيسية الصاخبة والبديعة ويبسطون أيديهم ليحصلوا على بضع بارات تكفي لشراء احتياجاتهم من الطعام، وأولئك الذين يشربون من النافورة العامة أو يغتسلون من خزّان المسجد وينامون في الطرقات والشوارع ويشعرون بكل ثقة أنهم سينجون إذا عرفوا الطريق إلى مكة. تبدو ديانة محمد وكأنها نوع من البوصلة التي توجّه الروح حتى إنّ أكثر المؤمنين جهلًا يستطيع من خلالها أنْ يُرشد نفسه. يمكن لأي مسيحي يرتدي أفخم الثياب أنْ يكون واثقًا من شيء واحد وهو أنه محل ازدراء معظم المسلمين الذين يقابلهم من العراة، والبائسين، والمصابين بالرمد، ويكتنفهم البعوض. فالخُيلاء الشرقي يفوق ما نحن عليه لأنه اختيال بلا استحياء.

بعد خمس عشرة دقيقة من السير في الشوارع، يرى المسافر كل الصور التي كان يتذكرها من كتابه المصوّر عن الحياة الشرقية. فهناك "علي بابا" الذي يرتدي عمامته ويجلس على مؤخرة حماره البائس ويؤرجح قدمه الكبيرة باستمرار ليحث حماره على السير قدمًا، وهناك القلندر[174] الأعور الذي من المحتمل أنْ يكون قد وصل في الليلة السابقة، قادمًا من بغداد، وساقي المياه الذي يلفّ قطعة من القماش حول خاصرته وهو يترنح ومعه القِربة المصنوعة من جلد الماعز وهي مملوءة عن آخرها – فالجلد والأرجل والرأس وكل أعضاء البهيمة الأعجمية منتفخة وكأنّ الساقي يحمل بهيمة منقوعة ومُغرقة في الماء. كانت هناك أخت محجبة مثل "زبيدة" تمتطي حمارًا رمادي اللون وهي منفرجة الساقين وتُبرز ركبتيها من وراء حجاب (مثلما يركب كل النساء في الشرق). كانت ملتحفة بثوب أبيض يغطي رأسها وينتفخ حولها مثل البالون – كان كل ما يمكن رؤيته من المرأة هو أصابع قدمها التي تظهر من خُفها الأصفر وعيناها السوداوان. كان بائع الشربات، وهو مشروب يُشبه الماء بلا طعم أو نكهة، يجلجل بالأقداح، بينما كانت المرأة المحجبة التي ترتدي ثوبًا أسود اللون وتلتمع عينها لأنها تتوق إلى البيع للزبائن تجري هنا وهناك. كان الحجاب يتألف من جزأين، الجزء الأول عبارة عن زِنّار حول الجبهة وشريط أسود

[174] كلمة فارسية تعني "الصوفي" أو "الدرويش الرحال" ممن يُسمّون "أهل الطريق".

يمسك بالجزء الذي يكون أسفل العين وينتهي عند نقطة عند الخصر. يتصل كلا الجزأين بزينة اسطوانية من النحاس أو الفضة -طولها بوصتان ونصف وعرضها نصف بوصة- إذا كانت صاحبة الثوب قادرة على دفع تلك التكلفة. كان هذا الجزء الاسطواني بين العينين المضطربتين يجعل المرأة تبدو وكأنها أسيرة مرتعدة. على الجانب الآخر من الشارع عند الفندق على حجارة الإفريز للميدان العام كان هناك صفٌّ من أولئك المخلوقات البائسة يجلسون القرفصاء في الشمس ساعة بعد ساعة يرتدون ثيابًا سوداء وينتظرون دون حراك. قيل لنا إنّ أولئك هنّ غاسلات الثياب يجلسن هناك ليحصلن على عمل. لم أستطع أبدًا أن أغيّر شعوري أنّ أولئك النساء يشعرن بالاختناق من وراء هذا الحجاب والشالات التي يضعنها على رؤوسهن، عندما يحركن رؤوسهن يبدو الأمر وكأنه حركة بلهاء مثيرة للشفقة يقوم بها حيوان أعجمي لا يقوى على الشكوى.

ولكنّ القارئ الذي يسأم سريعًا ينتظر أن أتحدث عن عمود "بومباي". بدأنا نقود العربة خارج الأسوار عبر بوابة مزدحمة بالحشود في الشوارع ومررنا بأناس يبدو عليهم البؤس إلى أقصى درجة ويجدر التقاط صور لهم. كان هذا هو الطريق الذي يؤدي إلى مقابر المسلمين، وقد وافق ذالك اليوم يوم الخميس وهو اليوم المخصص لزيارة المقابر. كان الطريق مصفوفًا بالمقاهي التي يجلس فيها الرجال للتدخين ولعب الداما وبها طاولات وأكشاك لبيع الكعك المقلي والحلويات، كما كان هناك تحت أقدامنا طوال الطريق أسواق خاصة لبيع البلح، والمكسرات، والزبيب، والقمح، والذرة، لذا كان من الصعب جدًّا أن نتجنب أن نخطو عليهم بأقدامنا. كان صاحب البضائع يجلس على الأرض حافي القدمين ويضع بضاعته غير المُغرية التي يكسوها الغبار على حصيرة أمامه. كان المشهد يبدو أكثر بؤسًا ووحشة خارج البوبات مما هو داخلها. ألفينا أنفسنا وسط أكوام من القمامة والهِضاب الصغيرة منها، ربما كان هذا هو خرائب مدينة الإسكندرية القديمة، أو أنه مجرد أكوام القمامة الخاصة بالمدينة على مر العصور، فقد كان هناك أكوام من التراب والفخّار المكسور. كانت جُل المدن المصرية أيًّا كان حجمها محاطة بمثل هذه الأشياء – بقايا القمامة على مر العصور وأطلال الحضارة المنصرمة.

كان هناك الكثير من كبار السن، وغير المبصرين، والرجال الذين يرتدون ثيابًا بالية- على الرغم من أنّ الثياب البالية ليست عيبًا! كانت هناك العديد من النساء

العجائز الهزيلات ممن كان جسدهنّ نحيلًا وضامرًا، كان بعضهنّ لا يغطين وجوههن – حتى أولئك اللواتي كن يغطين وجوههن كان يبدو عليهنّ الهزال والنحافة. كان هناك "درويش" وهو -رجل مقدس- عاريًا يجلس وسط الدنس بجوار السور وهو يقرأ القرآن. لم يكن معه أي كتاب، ولكنه كان يتلو آيات القرآن بصوت عالٍ ويحرك جسده إلى الأمام والخلف. عندئذ رأينا أيضًا صبيًّا وسيمًا ذا صوت مجلجل يقرأ القرآن بكل ما أوتي من قوة وينظر بعينه إلى المارة مِن حوله. وبعد ذلك رأينا شيئًا جديدًا. كانت هناك عربة كبيرة يجرّها حصان واحد وبها مجموعة من النساء يجلسن القرفصاء على الجانبين ويجلسن أمام بعضهنّ البعض وهنّ محجبات يرتدين ثيابًا سوداء ولا ينبسن ببنت شفة ويهتززن مثل حقائب الوجبات، بينما كان هناك صبي صغير يقف في الأمام ويقود العربة. كنّ يحملن سلاتٍ من الطعام والزهور ويذهبن إلى المقابر لقضاء اليوم.

عبرنا المقابر لأنّ عمود "بومباي" كان يقع على ربوة صغيرة تطل عليها. لا يمكن أنْ يكون هناك شيء أكثر كآبة من تلك المدافن –إلا إذا كان هذا الشيء هو مقابر أخرى للمسلمين. كانت الأرض عبارة عن أرض غير مستوية من الرمال ليس بها أي عشب أو أي شيء أخضر. كانت الأرض مغطاة بكثافة بالجص القبيح ومقابر تُشبه الأفران، وكان كل شيء مغطى بالتراب. كانت مقابر الرجال بها حجارة عند الرأس لتميزها عن مقابر النساء. على الرغم من المشهد الرث لحطام هذه المقابر، إلا أنه لم يكن هناك شيء أكثر مرحًا واحتفالًا من هذا المشهد الذي نراه أمامنا. على الرغم من أنّ أغلبية الحاضرين كنّ نساءً، إلا أنّ عددَ الرجال والأطفال الموجودين لم يكن قليلًا، كانوا يرتدون عماماتٍ وطرابيشَ وأردية وشالات مصبوغة بصبغة فارسية وهو الأمر الذي جعل المقابر تبدو وكأنها حديقة من الزهور. كان هناك حوالي مئات من المقابر يجلس حولها النساء في مجموعات دائرية ويضعن طعامهن أمامهن ثم يضعن الزهور على القبر وهن يولولن وينتحبن بمبالغة شديدة دون أنْ يذرفن دمعة واحدة. كانت كل مجموعة تستأجر "وليًّا" أو "رجلًا مقدسًا" أو صبيًّا ليقرأ القرآن على القبر ويبدو أنّ هؤلاء القراء للقرآن قد تحولوا لأشخاص شبه صالحين بحكم مهنتهم. تقضي النساء كل اليوم تقريبًا في أداء تلك الزيارة ليُظهرن تعاطفهن مع مَن فقدنهم من أحبابهن. هذه هي عادة قديمة جدًّا قِدم التاريخ وقد اعتاد المصريون أنْ يبنوا في المقابر غرفة أمامية للزيارة ليجلس فيها الزّوار. وقع في

ظنّي أنّ علمي بأنّ هذه المجموعة من النساء سيتناولن غداءهن وهنّ ينتحبن ويولولن حول قبر المرء كل أسبوع يُعدّ أمرًا يضيف رهبة جديدة للموت.

كان عمود "بومباي" الذي أنشئ تخليدًا لذكرى الامبراطور "دقلديانوس" على الطراز الروماني البسيط وكذلك المصري. لم يكن هناك شيء في محيط العمود يثير الحماس على الرغم من أنّ ارتفاعه كان حوالي مائة قدم، وكانت مسلة العمود -قبل أنْ تؤثر عليها عوامل التعرية عبر العصور- عبارة عن قطعة رائعة من الصخور المصقولة. لا ريب أنّ هذه الصخور كانت قبل الامبراطور "دقلديانوس" ببضع آلاف السنوات وكانت من بقايا أقدم الحضارات، أما القاعدة والأساس اللذين وضعهما الامبراطور فلم يكونا جديرين بتلك المسلة. أصبح الاستخدام الأساسي لقاعدة العمود هو الرسم بالفرشاة والنحت الذي يقوم به الزوار المسافرون المتميزون ليكتبوا أسماءهم الغالية عليه. لا يمكنني أنْ أبدي أيّ إعجاب بهذه السذاجة والاستخفاف الذي يفعله الزوار ليكتبوا أسماءهم على مثل هذه الآثار. لا بدّ لهم أنْ يدركوا أنّ أول شخص عاقل يقرأ ما كتب سيقول: "هذا شخص أبله."

واصلنا المسير خارج أسوار المدينة تجاه ترعة المحمودية ومررنا عبر أكوام القمامة وشاهدنا منظر المدينة بالخلف التي كانت أشبه بالصحراء. عندئذٍ لاح في الأفق رمز الشرق الذي لا يتغير- رأينا الجَمل الأول- كان أحدهم يستخدم الجَمل، لذا رأيناه في بيئته الطبيعية وليس في حديقة الحيوانات. كان هناك صفٌّ من الجِمال التي تحمل حجارة البناء وكانت تسير ببطء وسأم. كانت الرقبة الطويلة المحنية تحاكي الخنوع والذل بينما كانت الأنف الأبية المرفوعة في الهواء تعبر عن الامتعاض التام والسخط على الحياة العصرية. كان التباين بين هذا التعجرف والغرور الجبار (كان من الضروري أن أستخدم مثل هذا المصطلح لأعبر عن خُيلاء الجمل منذ القِدم) وبين قبح وبشاعة هذا الحيوان الذي يتم تبجيله أمرًا مهيبًا وشيقًا. ليس هناك قط أي سلالة يتم تبجيلها أكثر قبحًا من الجمل، فهو عبارة عن مجموعة من العظام، والوبر الهزيل، والأسنمة، وكتل الوبر، والمفاصل المفلطحة والصلبة. كان ذيله عبارة عن حزمة سخيفة ويبدو مثل الزينة أو مثل الفرشاة الطويلة، أما قدماه فقد كانتا عبارة عن خُفين اسفنجيين. بالنسبة للجلد الذي يغطي جسده، كان به بعض الرقع التي تُشبه الثوب المصنوع من جلد الجاموس القديم فقد كان هزيلًا وبه أجزاء سقط منها الوبر. كان صوته أكثر بشاعة من مظهره، وعلى

الرغم من ذيوع صيته في الصبر، إلا أنه فظ وسريع الغضب وانتقامي. هناك الكثير من المبالغات في الحديث عن قدرته على التحمّل – أي أنه يموت مثل الخروف في القافلة أيًّا كان طول الرحلة إذا لم يحصل على الطعام الكافي. تُحرّك مشيته كل عضلاته وكأنه مصاب بالحمى، ومع ذلك فإنّ هذا المخلوق الأخرق يحمل رأسه في الهواء وينظر إلى العالم من عينيه الكبيرتين البنيتين بازدراء. ليس أبو الهول أكثر سكونًا منه. لا أدري لماذا يذكرني بالهرم. إنه يُشبه النخلة لأنه لا يمكن أنْ تلتقط صورة في مصر بدونه. يا له من فك يشبه فك هابسبورغ! قديم، وملكي! إنّ اتزان رأسه ورباطة جأشه تُرسل رسالة موجزة نصها: "لقد جئت من الماضي السحيق من قبل بداية التاريخ، لم يمسسني الطوفان، ورأيت الملك "مينا"، [175] وساعدت الملك خوفو في بناء هرمه المهيب، إنني أعرف مصر منذ العصر الذي لم يكن به مسلة أو معبد، لقد شهدت البناء البطيء لهرم سقارة. ألست أنا الذي نقلت آباء سلالتكم عبر الصحراء؟ هناك ثلاثة منا: النخيل، والأهرامات وأنا. كل شيء ما خلا ذلك يُعتبر حديثًا. وهكذا!"

على القناة -حيث تقف "الذهبيات" التي تشق طريقها أعلى النيل- كانت هناك بعض الفيلات الفخمة والقصور والحدائق. كانت هذه هي الرحلة أو النزهة المفضلة. في الحدائق التي كانت مفتوحة للعامة كان هناك العديد من الأشجار الاستوائية، والشجيرات المزهرة. كانت الورود ذابلة، ولكنّ رائحة أزهار أقاقيا "أكاسيا" الصفراء كانت تعطر الهواء، كما كان هناك زهور الزنبق المصرية، أما النبات الذي له أوراق قرمزية اللون فليس من نباتات البلد الأصلية وينمو بارتفاع شجرة "أبو طيلون"، كما كانت زهرة الآلام نضرة ومُزهرة وكان ضوء النهار يغطي بكرْمه المتتابع أشجار السرو الطويلة الهفهافة. كانت شجرة الجميز هي أروع الأشجار فقد كان جذعها كثير التموج، وأغصانها متدلية إلى الأسفل. أما ثمارها، الجميز، فهو ينمو مباشرة على الغصن بدون جذر، وهو عبارة عن فاكهة لا طعم لها، تُشبه نشارة الخشب ولكنّ العرب يحبونها ولديهم مقولة تزعم أنّ مَن يأكل مِن الجميز سيعود حتمًا إلى مصر. بعد أنْ حاولنا أنْ نتناول واحدة وجدنا أنفسنا غير مهتمين بأنْ نعود مرة أخرى. كان الداخل مليئًا بالذّباب الحيّ الصغير وقد أكد لنا أحد القساوسة الذي كان يحضر في مدرسة للبنين وكان يحصل على قسط من

---

[175] أو "نارمر" أول ملوك الأسرة المصرية القديمة وموحد الوجهين.

الراحة في البستان أنّ كل ثمرة يجب أنْ تُثقب وهي خضراء حتى يخرج منها الذباب وبهذا تُصبح صالحة للأكل، إلا أنّ المصريين كانوا يأكلون الثمار والذباب وكل شيء.

إنّ مباهج وبهاء مدينة الإسكندرية يجب البحث عنها في الكتب، فالمسافر يكاد لا يرى أيّ آثار من التراث الرائع الذي أبهر العالم في بداية عصرنا الحالي. ربما يرغب المسافر في أنْ يرى المسجد الذي يقع في موقع كنيسة القديس مارك، أو ربما يكون مهتمًّا بأنْ يطالع الدير القبطي الذي سرق منه الفينيسيون جثة القديس من حوالي ألف سنة مضت. بالطبع ذهبنا لنرى تلك الأعجوبة التي سمعنا عنها في طفولتنا وهي "إبرة كليوباترا" – كما يُطلق على المسلة المصنوعة من الجرانيت التي أحضرت من الإسكندرية ووضعت أمام معبد القيصر في عصر" تيبريوس يوليوس قيصر ".[176] كانت إحدى المسلتين فقط هي التي منتصبة، أما الأخرى فقد كانت مشوّهة ومنبطحة في الأسفل على الأرض. تقع المسلة المنتصبة بالقرب من الشاطئ وهي وسط الأكواخ وكمية لا يمكن تخيلها من القاذورات. كان اسم أقدم ملك مكتوب على المسلة هو "تحتمس الثالث" – الحاكم العظيم لمصر- الذي كان عصره منذ حوالي 1500 عام قبل قدوم القديس مارك إلى الإسكندرية.

إنّ المدينة التي عصف بها العديد من التقلبات مثل غيرها من معظم المدن، التي كانت تفخر أثناء فترة حكم القيصر بأنّ عدد سكانها يبلغ نصف مليون نسمة، ثم انخفض هذا العدد ليصل إلى 6000 نسمة في عام 1800 وبدأ حاليًا في الزيادة مرة أخرى ليصل إلى أكثر من مائتي ألف، بدت وكأنها في مرحلة انتظار. كان التجار يتذمرون لأنّ قناة السويس قوّضت التجارة. بالرغم من أنه لا خلاف على أنّ المدينة ضالعة في الضوضاء والدنس والرداءة، إلا أنّ حوانيتها وشوارعها أكثر متعة وتشويقًا، ربما لأنها تُعد نقطة التقاء لكل الأجناس أكثر مما يقر به المسافرون في الأغلب.

ما إنْ وطئت أقدامنا الفندق حتى استقبلنا ورحبّ بنا المترجمون من كل حدَب وصوب. كانوا يطرقون أبوابنا، ويرافقوننا في الطرقات. كلما كنا نخرج من غرفنا كنا نجد ستة ينتفضون وينحنون وكأننا ملوك ولنا حاشية خانعون ينتظرون حركاتنا وسكناتنا. قدموا لنا كروتهم وتوسلوا إلينا أنْ نقف معهم للحظة ونلقي نظرة على

[176] هو الامبرطور الروماني الثاني (14 م – 37م).

مجموعة الترشيحات التي أعدوها. أخبرونا أنهم لن يفرضوا أنفسهم علينا ولكنْ إذا رغبنا في استئجار مترجم لرحلتنا في النيل فسيكونون في خدمتنا. كانوا من مجموعة كبيرة متباينة من كل الألوان فيما عدا اللون الأبيض وكل درجات التنوع الشرقي في فخامة الملبس. كان من بينهم المصريون والنوبيون والمالطيون واليونانيون والسوريون، وكانوا يجيدون تحدث كل لغات الشام وأوروبا فيما عدا اللغة الوحيدة التي تحاول التحدث معهم بها. لم أحظ قط بالتعرّف على مثل هذا العدد الكبير من الأناس الجيدين. كان كل منهم لديه خطابات توصية قوية من المسافرين الذين قدّم لهم خدماته من قبل، وهم أدباء ومسؤولون مشهورون. يكتب المسافرون هذه الإقرارات والتوصيات بِحُرية مثلما يوقعون الاستمارات الخاصة بالمواعيد الحكومية في المنزل.

كان اسم الترجمان الوسيم الذي رافقنا في جولتنا في الحوانيت -بطبيعة الحال- "أحمد عبد الله". كان يرتدي طربوشًا أحمرَ وحوله كوفية رمادية اللون وقميصًا مطرزًا ليس له ياقة أو رباط عنق، ووشاحًا طويلًا من الحرير البيروتي ذا مربعات وألوانه زاهية مربوطًا حول الخصر يحمل فيه ساعته وسلسلة ثقيلة، ومعطفًا من القماش وبنطالًا فضفاضًا من الحرير الذي كان من الممكن أن يكون ثوبًا لو لم يكن مفصولًا من المنتصف ليفصل كل كاحل عن الآخر. كانت ملابسه أشبه بملابس السوريين عن كونها تشبه ملابس المصريين وكانت تبدو أنيقة عندما تكون الخامة التي صُنعت منها جيدة، ولكنها كانت تعطي انطباعًا للأعين الغربية أنها تُشبه ملابس النساء.

كانت حوانيت أهل البلد الأصليين، التي كانت أفضل في القاهرة منها في الإسكندرية، تعطِي للمسافر لمحة عن خصائص الشرق من حيث زخارفها الرخيصة واتساخها وقلة ثرائها وبهائها. كانت الحوانيت التي تقع على كل جانب من جانبي الشارع الضيق مساحتها أوسع من خزانة الملابس ذات الحجم الجيّد بقليل، وبها مساحة للأرفف للبضائع في الخلف ومساحة أخرى في الأمام يجلس فيها التاجر وهو متربع. عادة ما يكون هناك مساحة للزبون ليجلس معه ويمكن لاثنين أو ثلاثة أنْ يستريحوا على حافة الرصيف، أما عيّنات السلع التي يبيعها فقد كانت تُعلق على حبال مشدودة أمام الحانوت. كانت تلك الحوانيت تُغلق بمصاريع خشبية أمامية بالليل. لم تكن هذه الحُجرات الصغيرة أماكن للبيع فحسب، بل كانت أيضًا أماكن

لتصنيع البضائع. كل شيء يحدث على مرأى ومسمع من العالم أجمع، فالخياط يحيك والحداد ينفخ في منفاخ مسبكه الصغير، والسروجيّ يصلح السِّرج القديم للحمار، والإسكافي يقطع الجلد الأحمر، والنَّحّاس يطرق، والنَّساج يجلس على نوله الصغير ومعه دواسته على الأرض- كل الأعمال التجارية مستمرة وتضيف ضجّتها إلى الجلبة.

إنّ أكثر ما أثار إعجابنا هو الطبيعة الجيّدة للحشود تحت تلك الظروف الصعبة، فالشارع ضيّق للغاية لدرجة أنّ وجود ثلاثة أشخاص أو أربعة جنبًا إلى جنب يمثل ازدحامًا، فضلًا عن ذلك فالشوارع مكتظة بأولئك الذين يسيرون في اتجاهين متعاكسين. خلال هذه الحشود تمرّ الحمير المحمّلة بسلال الطمي أو الأحجار أو حزم العصيّ الهزيلة، أو يهيج أحد الجِمال الذي يكون محمّلًا بدعامات المباني أو بالجبس، أو أحد الضباط الأتراك يمرّ على حصانه المزركش بألوان مبهجة ويضرب الأرض بلا صبر، أو أحد العتالين الذي يدفع الناس بصندوقه الثقيل الذي يحمله على ظهره، وساقي المياه الذي يحكُّ الناس بقربته المتّسخة، وبائع الحلوى الذي يحاول أنْ يجد موضعًا لطاولته، وبائع البرتقال الذي يدفع عربته وسط الحشود، واليهودي الذي يبيع بالمزاد القطع الأثرية المصنوعة من النّحاس والملابس الأثرية. كان الجميع يتدافعون ويدفعون ويتكدسون ولكنْ كانوا جميعًا يتمتعون برباطة الجأش وخفّة الظلّ، فلم يكن أي منهم على عجلة من أمره ومهما يكن فكل شيء كما هو وسيظل كما هو. يا له من مكان عالمي، قابلنا أتراكًا، ويونانيين، وأقباطًا، ومصريين، ونوبيين، وسوريين، وأرمن، وإيطاليين، ودراويش يرتدون ثيابًا رثّة، و"أولياء" أو "مسلمين مقدسين"، كانوا شبه عُراة ويشبهون مظهر الرجال الذين دُفنوا منذ زمن سحيق ثم أُخرجوا من تحت الأرض، وقساوسة يونانيين، ويهودًا، وفُرسًا بارسيين، [177] وجزائريين، وهنودًا، وزنوجًا من دارفور، ومجموعة من ذوي البشرة السوداء والأنف المستوية ممن وراء الخرطوم.

يلفي المسافر نفسه في بلد بها العطلات أمر سرمدي، فتحْت ضوء هذه الشمس وفي هذا الهواء الطلق لا يوجد شيء يمكن فعله سوى الاستمتاع بالحياة وتأدية الصلاة خمس مرات في اليوم. نظرنا داخل المسجد ورأينا نافورة للاغتسال، كان المسجد جميلًا وهادئًا، كما كان على فرشه النظيف صفٌّ من العرب الذين يسجدون في

[177] من أتباع الديانة الزرادشتية أو المجوسية

اتجاه القبلة التي تدل على اتجاه مكة. دلفنا إلى الشوارع المفتوحة وكنا نواجه شيئًا جديدًا في كل خُطوة نخطوها. كان هناك موسيقي نوبي يعزف على نوع من الدفوف له إطار وكان يُصدر صوتَ نقرٍ هزيلًا ولكنْ كان يرافقه شخصية من أغرب الشخصيات التي رأيناها على الإطلاق، رجل أشوس هائج ثائر ، ابن الصحراء، أسود اللون مثل الفحم ولديه كتلة كبيرة من الشعر غير المُصفّف على كلا كتفيه.
كان جُلّ ما يرتديه هو قماش يغطي مؤخرته ومرآة مستديرة مربوطة حول جبهته، ولكنه كان يربط حول خصره رباطًا ثقيلًا به حوافر ماعز ويدقّ مجموعة أخرى على الطبلة من خلال حركة اهتزاز أوراكه كلما تبختر هنا وهناك. كان يبدو عليه السعادة الغامرة بنفسه حتى إنني تمنيت أنْ أكون على علم بلغته لأخبره أنه يبدو أبلهَ.
بالقرب من حصن نابليون الذي يقع على هضبة تطل على الميناء طالعْنا مشهدًا آخر خاصًّا بالشرق. كان هناك مشعوذٌ بشرته صفراء وتلمع عينه بالمكر والدهاء اجتذب انتباه مجموعة من العاطلين حوله كانوا يجلسون القرفصاء في الغبار الذي يهب تحت لهيب الشمس المستعرة ويشاهدون تصرفاته الغريبة بصبر وتمهل. لم يكن هذا المشعوذ يقدم أي شيء عجيب، ولكنّ جمهور المتفرجين كانوا متنوعي الألوان والملامح، وكانت ملابسهم ألوانها من الأحمر اللامع والأصفر والأبيض، كما كانت ألوان بشرتهم تمثل كل ما هو ممكن من ألوان الجنس البشري. ظننت أنني رأيت أناسًا ذوي بشرة سوداء في جنوب كارولينا، إلا أنني رأيت صبيًّا الآن يقف عند المدخل يمكن أن يكون غير مرئي لولا أنه يرتدي قميصًا أبيض، ورأيت فتاة زنجية بدينة ترتدي ثوبًا لونه أصفر لامع ووشاحًا ولون بشرتها أسود ولامع بشكل لا يمكن تصديقه ولا يمكن إلا لأفضل أنواع البويجي أن تُنتج مثل هذا اللون اللامع على أي حذاء، إلا أنها كانت تتمتع بقدر وافر من الاستمتاع والسكينة. كان هناك طفلان صغيران يساعدان المشعوِذ -فتاة وصبي (كانا يرتديان القليل من الملابس) - وكان ثلاثتهم يثرثرون ويضربون بعصيّ القصب. لم يكن هناك أي شيء يُؤدى باستثناء أنهم كانوا يأخذون ثعبانًا طويلًا من حقيبة ويحاولون وضعه حول رقبة الفتاة الصغيرة. على الرغم من كل ذلك، كانوا يجمعون النقود من المتفرجين وهذا هو الغرض الأساسي لكل العروض.
على مسافة أبعد من ذلك، كانت هناك مجموعة أخرى تلتفّ حول راوٍ للقصص كان يسرد إحدى تلك القصص الأزلية التي يستمتع بها العرب كثيرًا، فحبّ المغامرات لم

يكن دائمًا هو أفضل الموضوعات إلا أنهم كانوا يستمتعون به، أو قصة غلام فقير نجح نجاحًا ملحوظًا في عمله وفي النهاية تزوّج بنت السلطان. كان هذا القصص يصاحبه ضرب على الدربوكا [178] بطريقة رتيبة تبعث على النوم إلا أنها كانت تتناسب مع السكينة السرمدية التي تخيّم على الجوّ. كان هناك أيضًا الباعة الجائلون الذين يبيعون الحلوى وغزل البنات، ويحملون حوامل ثلاثية يضعون عليها صوانيهم المصنوعة من النحاس ويصرخون صرخاتٍ يكاد الهواء أنْ يتصدع منها. إنها الألوان، الألوان هي التي تجعل هذه البانوراما المتغيرة أكثر روعة وتُخفي التعري والدنس والشقاء لكل هذا الفقر الظاهر، الألوان في الملابس الملونة وفي الحوانيت وفي السماء. لقد جئنا إلى أرض الشمس.

في المساء، عندما سرنا حول الميدان تعثرت أقدامنا بحزم من الأسمال البالية ينام بداخلها أشخاص في كل الأركان وعند المداخل ويرقدون على أحرف الرصيف. في الجهة المقابلة للفندق كان هناك كازينو يبدو أفرنجيًّا أكثر من كونه مصريًّا، كان العازفون جلهم من النساء والألمان والبوهيميين بينما كانت النادلات معظمهن إيطاليات وأخبرتني إحداهن أنها من "بوهيميا" [179] وسافرت إلى الهند وتُفكر في العودة إلى هناك مرة أخرى. كان مرتادو هذا الكازينو معظمهم من الشباب المصري الذين يرتدون ثيابًا أفرنجية فيما عدا الطربوش، وكذلك الإيطاليون وكانوا جميعًا يشبهون الإناث في مظهرهم. كانت اللغة الإيطالية هي اللغة الأكثر تحدثًا ولم يكن هنا سوى القليل من ملامح الشرق فيما عدا الكياسة واللطافة تجاه أي شيء يبعث على التراخي أو أي شيء بغيض من الممكن أنْ تقدمه أوروبا. قيل لنا إنّ هذه الحفلة الموسيقية المتدنية تمثل كل المتعة التي يمكن تقديمها للمسافرين أثناء الليل من المدينة التي كانت ذات يوم مدينة كليوباترا المحبة للمتعة وتلك التي كانت عاصمة اليونان التي كانت هيباتيا[180] نجمتها.

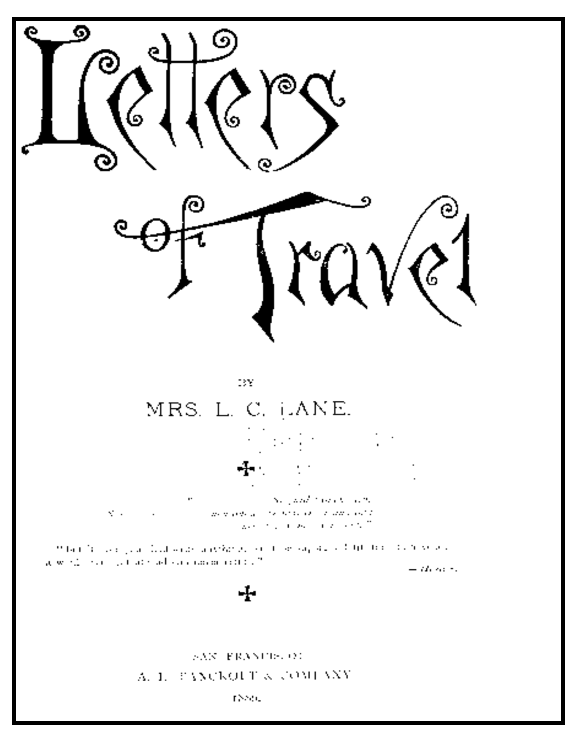
---

[178] آلة موسيقية إيقاعية عربية تتكون من جسم من الفخار مشدودًا عليه قطعة من الجلد المحضر بعناية لهذا الغرض. تتمتع بأصوات إيقاعية رائعة وبنغمات مختلفة وتعتبر من أهم الآلات الإيقاعية حيث يعتمد عليها الفن الأندلسي في توجيه باقي الآلات الموسيقية.

179 منطقة تاريخية في أوروبا الوسطى.تحتل الأجزاء الغربية ومعظم الأجزاء الوسطى من جمهورية التشيك.

[180] هيباتيا السكندرية هي فيلسوفة تخصصت في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وهي تعد أول امرأة في التاريخ يلمع اسمها كعالمة رياضيات، كما لمعت في تدريس الفلسفةو علم الفلك.

(1876)
"مراسلات السفر" – السيدة ل. س. لين


Letters of Travel

BY

MRS. L. C. LANE.

SAN FRANCISCO:

A. L. BANCROFT & COMPANY

الفصل الثامن والثلاثون

الإسكندرية – النساء المصريات- الملابس- مشاهد من الشارع

قضينا أربعة أيام وليالٍ على متن إحدى أفضل السفن التابعة لشركة "ميساجيري[181]" للملاحة في البحر الأبيض المتوسط من نابولي إلى الإسكندرية. لأنني كنت غير معتادة على السفر بحرًا منذ فترة طويلة شعرت أنّ نصف الوقت الأول يمر ببطء وكأنّ الدقيقة بها مائة وعشرون ثانية والساعة بها مائة وعشرون دقيقة وهكذا، أما اليومان التاليان فقد كانا مُشمسين مثل أيام الصيف منذ زمن بعيد التي كانت تمر ببطء شديد وفتور بطريقة خيالية كما نتذكر جميعًا. قيل لي إنني سأجد الكثيرين متمددين هنا وهناك في أوروبا القديمة الحصيفة ولكنني بحثت عن هذا في العامين الماضيين ولكن دون جدوى ووجدتهم أخيرًا عندما انسابت سفينتنا برفق على المياه الزرقاء للبحر المتوسط تجاه الشرق حيث كان هناك عما بعيد ما يعكس الحياة الشرقية.

[181] Messagerie.

أبحرنا عبر أقصر الرحلات التي تسلك الطريق مباشرة بين الميناءين، لذا كان طريقنا في منتصف البحر ولم تكن هناك أي يابسة باستثناء بعض الحدود المعتمة التي كانت تلوح في الأفق. كانت أعيننا تتوق إلى رؤية أول مشاهد مدينة المقدوني العظيم لأرض كليوباترا.

يقع ميناء الإسكندرية الرحب الذي يعجّ بالقوارب والسفن خلف حاجز أمواج أبيض براق يمتد عبر ذراع طويلة من الصخور، وتلوح في الأفق منارة الإسكندرية والمباني الحكومية ويغلب عليها اللون الأبيض كذلك، وخلفها تمتد مدينة الإسكندرية الكبيرة المستوية المُشمسة والمُشرقة التي يكسوها البياض. أراني أحد المسافرين الأفاضل الذي كان مقيمًا في الإسكندرية عمود "بومباي" فشكرته ثم اكتشفت بعدها أنّ عيني أخطأت الهدف وأنني استنفدت حماسي في النظر إلى مدخنة جديدة تُشبه البرج لأحد المصانع الحديثة.

رست السفينة على بعد ربع ميل من الشاطئ، كانت مجموعتنا تتألف من اثنى عشر شخصًا -تعتبر مجموعة صغيرة بسبب التوقيت المتأخر من الموسم- وفجأة في لحظة واحدة اكتظ ظهر السفينة بحشد يتكون من مائة مترجم أسرعوا من على متن قواربهم. كانوا يرتدون بناطيل فضفاضة بعضها من القطن الأبيض والبعض الآخر من الصوف الملون الذي يتماشى مع السترة، لذا كانت تبدو مثل التنورة التي ترتديها النساء وكانت أطرافها تجتمع في النهاية حول الكاحل. بينما كان العرض المتوسط للقماش يكفي ليتمكن الشخص من أنْ يمشي بخطى واسعة، إلا أنّ الزنّار الذي كان يُعقد مرتين حول الخصر ويتدلى الجزء العريض منه في الجنب، والقلنسوة التركية الحمراء التي كانت محكمة اللصوق على الرأس والقماش الأبيض الذي كان يُلف مثل العمامة حولها كان يحوّل الشكل الإجمالي في لحظة إلى الصورة الشرقية وكأنه يُشبه التحول المفاجئ على خشبة المسرح من المشهد الإنجليزي على ظهر السفينة إلى قلب المدينة الشرقية. كان أولئك الرجال يتدافعون ويتشاجرون وذلك لأنّ العشرات منهم كانوا ينهالون دفعة واحدة على راكب واحد ويحيطون به من كل جانب وكانت اللغة الإنجليزية أو الفرنسية المقبولة التي يخاطبون بها المسافر تختلط ببعض الأصوات الغريبة من لغتهم الأصلية لأنهم كانوا يتشاجرون ويهدد بعضهم بعضًا. كان كل واحد منهم يدّعي أحقيته بالمسافر وكنا نجد نحن المسافرين أنفسنا

عاجزين عن الكلام ولا حيلة لنا ويغلب علينا اليأس لأننا نشعر بالذهول والمتعة من تغير المشهد الذي يُعدّ تغيرًا مفاجئًا وجديدًا.
في النهاية، نزلنا دَرج السفينة إلى قارب، اضطررنا إلى أنْ نستبعد منه ثلاثة أو أربعة من العرب الذين كانوا يزعمون أننا استأجرناهم جميعًا ليحملوا أمتعتنا للشاطئ. عندما رسونا عند الشاطئ، طلب المترجم المخلص ضِعف الأجرة التي اتفقنا عليها وقد دفعنا له بالفعل ما طلبه بكل هدوء. أودّ أنْ أنصح أيًّا من أصدقائنا ممن سيحذو حذونا فيما بعد أنْ يفعل مثلما فعلنا تمامًا. عند فحص أمتعتنا تلقى الضابط الذي كان يفحصها صفارة بسبب وجود إحدى تماثيل التراكوتا[182] البنية التي كانت على شكل وجه سينكا [183] الذابل واتُهمنا بمحاولة تهريب مومياء من خلال مصلحة الجمارك. بدا الأمر وكأننا أثناء حياتنا كنا نحمل الفحم إلى نيوكاسل [184] حتى نبدأ الآن بجلب المومياوات إلى مصر. عندما فحص التمثال الصغير ضحك وشعر بالارتياح، ثم عبرنا من الجمارك المصرية إلى الحرية التامّة للحياة المصرية.
تجدر الإشارة إلى جَمال مشاهد الحياة في جنوب أوروبا وفي الشرق. كانت المشاهد خاصة في الشرق بديعة المنظر بصورة لا يمكن تخيلها حتى يراها المرء بنفسه ولا يمكن له أنْ يقدّر هذا الجَمال حتى يعود مرة أخرى إلى الرتابة المألوفة في الملبس والمباني والعادات في حضارتنا. ومع ذلك، فعلى الرغم من أنّ هذه المشاهد تنبض بالحياة إلا أنها تصبح مثيرة للاستياء أيضًا وعاجلًا أم آجلًا يتوق المرء إلى رؤية أولئك العاملين الذين يرتدون ملابسهم جيدًا، والأسواق النظيفة، والمساكن الاقتصادية والحوانيت، وأنْ يشكر الله الذي خلق الشرق لأولئك الناس، وخلق لنا الغرب.
لم نُرد أنْ نقضي الساعات الأولى في هذه الأراضي الجديدة في الذّهاب إلى مكان معتاد مثل البحث عن فندق، لذا منذ أنْ غادرنا مكتب الجمارك بدأنا مباشرة نتجول في الشوارع.
ربما أضفى الشاعر وأغنيته بعض الخداع الشعري عن النساء المحجبات في الشرق، لا يمكن أنْ يكون هناك شيء أكثر وضوحًا وبساطة منهن. كان ثوبهن

---

[182] التراكوتا أو الطين النضيج هي أقدم التماثيل الأفريقية الصغيرة الحجم وتشكل من الطين.
[183] لوكيوس أنّايوس سينيك يعرف أيضًا سينيكا، فيلسوف وخطيب وكاتب مسرحي روماني، كتب أعماله باللغة اللاتينية .ولد في قرطبة في إسبانيا وتوفي بالقرب من روما.
[184] مثل إنجليزي يشبه قولنا في اللغة العربية "يبيع الماء في حارة السقايين".

الخارجي غالبًا لونه أزرق قاتم أو أسود وهو فضفاض وليس له شكل محدد، أما الرأس فقد كانت تُغطى بقطعة من القماش سوداء أو لونها قاتم تتدلى على الرقبة من الخلف وتغطي جزءًا من الجبهة. كان أكثر ما يميز ملابسهن هي الزينة المستديرة الحلزونية المصنوعة من الذهب، أو الفضة، أو الخشب. كان طولها يصل إلى حوالي بوصتين وكان حجمها يتوقف على حجم دوران رأس المرأة التي ترتديها مثل الإصبع وتمتد من منتصف الجبهة إلى نصف الأنف وتصل النقاب بالحجاب الذي يغطي الرأس. كان النقاب يُصنع من مادة سميكة سوداء من القطن أو من الحرير ويمتد من تحت العينين على الوجه حيث يلتقي بأغطية أخرى بالقرب من الأذنين. بالنسبة لطوله فهو يتدلى حتى القدمين تقريبًا وكان محدد الرأس، وكان هناك أيضًا في بعض الأماكن أغطية للوجه مصنوعة من الموسلين الأبيض السميك. قيل لي إنّ النساء لا يرتدين هذا الحجاب في منازلهن، وإنما يرتدينه فقط عندما يكون هناك خطورة أنْ ينظر لهن المسيحيون [185] أو ربما عندما يكون رؤية المسيحيين لهنّ تمثل خطورة عليهن، لست واثقة في الوقت الحالي من أي جانب يكون الخطر. متأخرًا في ذلك اليوم أخبرنا أحد الرجال -الذي كان يتمتع بدماثة الخُلق وشعرنا بالسعادة عندما ذهبنا لتناول الطعام في مطعمه الذي كان على جانب الطريق لأننا تمكنا من إشباع أعيننا التي كانت تتوق لرؤية المزيد وكذلك أفواهنا التي كانت تشعر بالجوع- أنّ "هناك الكثير من النساء اللاتي يرتدين الحجاب ليُثبتن لأزواجهن أنهنّ طيبات، ولكنهن يربطن الأمر بالمسيحيين". كما أخبرنا أنّ المرأة التي تستطيع أن تضع خاتمًا في أنفها يحسدها كل صديقاتها من النساء. أعلمنا أيضًا أنّ الباشا جاء من القاهرة الأسبوع الماضي ومعه ست وثلاثون عربة مليئة بالزوجات اللاتي كان إجمالي عددهن حوالي مائتين وخمسين لقصوره الصيفية التي تقع بالقرب من البحر.

شاهدنا للمرة الأولى اللون الذي يميل للحُمرة للحنّة التي تُستخدم لطلاء الأظافر عندما كان أحد العرب يشعل سيجاره من سيجار أحد أصدقائه، وبعدها لفت نظرنا الطول الفارع والأشكال المتسقة للرجال الذين يرتدون أثوابًا طويلة وفضفاضة من القطن الأبيض وتكون مفتوحة من عند الخصر وتكشف تمامًا عن عرض الصدر.

---

[185] يبدو أن الكاتبة لم تكن على دراية كافية بتعاليم الإسلام والحجاب لدى النساء المسلمات، فليس للأمر علاقة بأي خطورة من جهة المسيحيين أو غيرهم بل ترتدي المرأة حجابها حال وجود غير المحارم سواء أكان هذا في المنزل أو خارجه.

كانت الأكمام عريضة ومفتوحة ومتهدلة، والرأس حولها العمامة، والحذاء لونه أحمر لامع. كان هناك تنوع كبير في الألوان في هذه البانوراما المُبهِجة من الملابس الغريبة التي كانت تمثل مشهدًا فريدًا يجدر تصويره عند مشاهدته، فقد كان هناك سراويل زرقاء واسعة وقمصان بها خطوط حمراء وبيضاء عريضة، وكذلك رجال تبدو عليهم المهابة يرتدون ثيابًا طويلة وفضفاضة لونها أزرق سماوي ولها أكمام واسعة ومتدلية، وعمامات بيضاء، وبعضهم له لحية بيضاء على بشرتهم البنية الداكنة. كانت جميع ألوان البشرة موجودة هنا فيما عدا اللون الأبيض، كما كانت الوجوه في الأغلب رفيعة وملامحها دقيقة ومنتظمة وتنم عن ذكاء حاد. كل هذا كان يعطي انطباعًا أنهم يتمتعون باللياقة والكياسة. كان هناك أيضًا بعض الوجوه ذات البشرة السوداء التي لم تكن بالقليلة. ظننت أنني رأيت أناسًا ذوي بشرة سوداء في أمريكا ولكنني كنت مخطئة فاللون الأسود للأبنوس يعتبر بنيًّا عند مقارنته بهؤلاء، ولكن لم تكن هناك أي من الملامح الوحشية التي نربطها بالجنس الأسود [186]، فقد كانت أعينهم بديعة الجمال، كما كانت الرموش والجفون تُخفي التباين بين الأبيض وبين لون بشرتهم اللامع. كان لمعانهم البرّاق- مثل لمعان الجوهرة النادرة- ومع ذلك كان لطيفًا لأنه كان يُومِض مثل النجم الساطع ويُشعّ بالذكاء، مع وجود ملامح رقيقة وناعمة تعطي تأثيرًا بديعًا. كانوا يرتدون أثوابًا بسيطة وفضفاضة وعمامة وكان كل من الثوب والعمامة أبيض اللون تمامًا مثلما كان من يرتدونها ذوي بشرة سوداء تمامًا. في الحقيقة، أرى أنهم وسيمون جدًّا وأتذكر أنّ تمثال الإله ممنون كان فائق الجمال وزاده لونه الأسود جمالًا، وأنّ قصة عطيل وديدمونة [187] لم تكن أمرًا عبثيًّا أو مستحيلًا.

في الشوارع، لم تكن هناك أية إشارات على وجود صناعة أو أنشطة، وكان من الأمور الغريبة -مثل العديد من الأشياء التي عاينّاها هنا- هي خطورة دهس أحد الأفراد النائمين الذين كانوا يتمددون في أي مكان يحلو لهم سواء أكان هذا على الرصيف، أو في الميادين العامة أو في الظلّ، وفي بعض الأحيان في الشمس الحارقة. كانوا يتمددون هنا وهناك في الشوارع المغطّاة بالرمال وينامون القيلولة في منتصف اليوم. بالنسبة للمركبات رأينا العربات الإنجليزية والأحصنة، ولكن بدا جليًّا أنّ هذه العربات كانت للأثرياء والمسافرين. كان هناك أيضًا بعض الجِمال

---

[186] استخدم الكاتب كلمة "الزنوج" وارتأينا أن نتجنب استخدامها لما لهذا اللفظ من مدلولات سلبية.

[187] إشارة إلى ديدمونة في مسرحية عطيل للكاتب "شكسبير" التي أحبت عطيل مع أنه كان أسود البشرة.

تحمل الأثقال، ولكنْ كان هناك الكثير من الحمير التي يمتطيها رجال كبار يرتدون سراويل فضفاضة ومنفرجو الساقين. كان السرج مصنوعًا على ارتفاع كبير وكما أنّ "كل فولة ولها كيال" فقد كان لكل حمار غلامٌ يجري خلفه يجلده أو يضربه باستمرار بهراوة متوسطة الحجم، كانت الضربات تنهال على الجسد الذي كان مسحوجًا من الضرب المستمر. اكتشفت الآن معنى الصوت الفظيع الغريب لنهيق الحمير، فعلى مستوى العالم ينهق الحمير ليعبّروا عن معاناة الحمير في الشرق ومحنتهم، فهم يُضربون من عصر لعصر آخر ويضربهم العرب، والبدو، والنوبيون، والمصريون، والأتراك، والأقباط، والمسلمون، والوثنيون- هل كل هذه الجروح التي تبثّ شكواها إلى السماء لا تُسمع؟

لقد رأينا وسمعنا الكثير في مدة تقل عن نصف يوم في الإسكندرية. كانت مصر كلها أمامنا وكنا نتوق بدافع حماس المسافرين إلى معرفة ما هو أكثر من ذلك، لذا ذهبنا إلى محطة السكة الحديدية لأننا قررنا أن نُنهي أول أيامنا في مصر برحلة تستغرق ست ساعات إلى القاهرة. عندما أخذنا أمتعتنا أقحم أحد العرب المحتالين نفسه معها، وعندما وصلنا إلى المحطة طالبنا بأجرة. لم يكن قد فعل لنا أي شيء ولم نكن نريد منه فعل أي شيء، ولكنّ إصراره كان شديدًا حتى إنّ كل مجهودتنا للتخلص منه باءت بالفشل، ولم يكن أمامنا خيارٌ سوى أنْ نعطيه فرنكًا أو نتركه معنا حتى يفرق بيننا الموت، لذا رضخنا أخيرًا لطلبه.

الإسكندرية، مصر، مارس، 1876

(1880)
"الحياة في البلاط الملكي المصري" – ألفريد جاشوا بتلر

COURT LIFE IN EGYPT.

BY

ALFRED J. BUTLER,

FELLOW OF BRASENOSE COLLEGE, OXFORD,

AUTHOR OF "THE ANCIENT COPTIC CHURCHES OF EGYPT."



WITH ILLUSTRATIONS.

LONDON: CHAPMAN AND HALL

LIMITED

1887

[*All Rights reserved*]

من "الفصل الأول"

استلمت في شهر يناير من عام 1880 برقية تستقدمني على وجه السرعة إلى مصر لأتولى التدريس لأبناء الخديوي من الذكور. وبالرغم من أنّ صديقًا على دراية بالشرق قد أوعز لي بأنّ السرعة تعني بالنسبة للشرقيين شهرًا أو اثنين إلا أنني ارتأيت وآثرت أنْ ألتزم حرفيًّا بالنص، أو قل إنني لم أكن قد تعلمت بعد المثل المصري الذي يقول "العجلة مِن الشيطان".

لذا سرعان ما وجدت نفسي على متن سفينة طرود فرنسية مبحرة من خليج نابولي غير آسف على توديع هذا المشهد الصحو الذي كان آخر ما علق من أوروبا في ناظري. وبينما راحت السفينة تنأى عن الشاطئ وقعت عيوننا على منظر القصر الأحمر بأبهته وفخامته حيث كان يعيش الخديوي السابق إسماعيل في كمدٍ واستياء. وكان مما زاد حنقه وأجج سخطه في ذاك الوقت أنّ إحدى جواريه قد واتتها الجرأة والجسارة فلاذت بالفرار مع ضابط وسيم من "نابولي". لو حدث هذا الأمر في مصر لتمّ القبض على الجارية وقتلها، لكنْ في إيطاليا حيث قُلّم ريش إسماعيل[188] فقد تزوجت الفتاة ولا بد أنها عاشت حياة هانئة مطمئنة؛ ولا بد أيضًا أنّ التحدي

[188] تم خلع الخديوي إسماعيل عام1879.

الذي مثله هذا الهروب إلى الحرية المدنية قد خلف مرارة في حلق إسماعيل فلا عجب إذن أنْ بادر بإرسال ابنه الأمير حسن إلى القسطنطينية ليستأذن السلطان متوسلًا وراجيًا أن ينتقل للإقامة في إسطنبول حيث ما زالت هناك وسائل شرقية ماضية وسريعة للانتقام. [189] لديّ الكثير لأقوله فيما بعد عن إسماعيل باشا، هذه الشخصية الغريبة التي جمعت بين الفرعون وهارون الرشيد على أعتاب القرن التاسع عشر.

أبحرنا عبر مياه فسفورية هادئة. قبيل الفجر استُدعيتُ لمشاهدة جزيرة "سترومبولي"[190] التي تأخذ شكل المخروط ويندفع منها على فترات فوران من اللهب كما لو كان كيرًا [191] ضخمًا تفاوت وهجه وسط دياجير الظلام فوهن وتقطّع أحيانًا وارتفعت أحيانًا أخرى ألسنة النيران المتناثرة من فوهة البركان. شاهدنا الجبل وقد أبرقت ربوعه القاتمة تارة بأشكال غريبة تشبه النجوم وتارة أخرى تدفقت منه شلالات هادرة من الحمم الحارقة؛ ثم عاد السكون مرة أخرى ولفّ الصمت والعتمة الدامسة ثنايا الجبل. حين مررنا بمدينة "ميسينا" [192] حالت عاصفة متصاعدة بيننا وبين رؤية المدينة البعيدة. اختفى الساحل برمته وظلت الأمواج تتقاذفنا وسط الأمطار والحلكة القاتمة حتى فتحنا عيوننا بغتة على عالم آخر مشرق. تهادت السفينة عبر أجواء من الخيوط الذهبية والمياه الهادئة إلى داخل ميناء الإسكندرية. بمجرد أنْ ألقت السفينة مراسيها حاصرنا أسطولٌ جرار من المراكب الصغيرة. انتظرت على السطح حتى صعد إليّ ضابط مصري في لباس البحرية، ثم حيّاني مستفسرًا بالإنجليزية عن اسمي؛ وحين أكدت له أني ضالته قدّم لي مرافقه، نائب حاكم الإسكندرية. عقب ذلك قاداني بكثير من الاحتفاء إلى زورق طواف رائع بعشرة مجاديف حيث اتكأت على وسائد مخملية ناعمة قرمزية اللون ومذهبة. عندما وصلنا إلى الترسانة حيّانا طاقم الفلك ومِن ثم غادر الضابط. حينئذ وجّهني نائب المحافظ نحو عربة تجرّها الخيول كانت في انتظارنا. انطلقت العربة في شوارع الإسكندرية ونحن نتلقى عددًا لا يُحصى من السلامات والتحيات، وظل مرافقي يلفت نظري إلى هذا المبنى أو ذاك وهو يسألني عن رأيي في المدينة، وكان بعد كل

---

[189] بالفعل انتقل إسماعيل للآستانة عام1888 وأقام بقصر "إميرجان" المطل على البوسفور حتى وفاته.

[190] Stromboli.

[191] كير الحداد Forge.

[192] Messina.

ملاحظة يبديها يشير إلى فؤاده مضيفًا بضحكة قصيرة : "أنا نائب حاكم الثغر."
هنأت مرافقي على انتشائه بمنصبه الرفيع واضُطررت بقدر ما سمح به ضميري إلى إظهار بعض الحماس لبنايات متواضعة حتى لا أقع في شبهة النفاق بينما رحت في قرارة نفسي أقارن بينها وبين قصور ومعابد مدينة الإسكندر. توقفت العربة عند خيّاط القصر الذي أخذ مقاساتي من أجل الز يّ المقرر، ثم انتهت رحلتنا أمام فندق "أوروبا" بميدان محمد علي [193] الذي شهدت نوافذه بعد قرابة العامين والنصف ارتكاب أبشع مذابح العرابيين. [194] عاد نائب حاكم الإسكندرية يؤكد على شرف منصبه مرة أخيرة قبل أنْ يودعني حتى اليوم التالي.
في السابعة صباحًا كان المُخلص صاحب المكانة السامية في الانتظار. اصطحبني مرةً أخرى إلى الخيّاط وانطلقنا من هناك إلى محطة السكك الحديدية وقد لمعت عيناه وقرقر صوته بضحكة طويلة إزاء ما ظنّ أنّ القدر حبانا به من حظ طيب.
أخيرًا ناولني الرجل مكتوبًا إلى زكي باشا، رئيس التشريفات الخديوية. شكرته على العطف الذي أبداه تجاهي فعقّب قائلًا بالفرنسية: "كلا يا سيدي... عليك فقط أنْ تشكر صاحب النعم فما أنا إلا خادمه المتواضع. آه يا إلهي... كم أغبطك يا سيدي فعمّا قريب تكون في السراي بجانب الأميرين الصغيرين وبالقرب من مولانا... أنا نائب حاكم الإسكندرية." جاهدت كي أحتفظ بالجد والوقار حيال نوازعه المفضوحة ووعدته أنني سأذكره عند الخديوي وبأنني سأخبره بالمعاملة الطيبة التي تلقيتها.
حينئذ أشرق وجهه ثانية وأخذ يصافحني من جديد ثم شرع القطار في التحرك وقد خالط صفيره تأكيد مرافقي أنه نائب حاكم الإسكندرية.
في القاهرة كان في انتظاري مسئولٌ من السراي أوصلني إلى "الفندق الجديد" [195] والذي شيّده إسماعيل بهذه البهرجة والفخامة لينزل به ضيوف حفل افتتاح قناة السويس. بعد فترة وجيزة من إقامتي بالفندق زارني "تورابي بيك"، [196] السكرتير الإنجليزي للخديوي للترحيب بي نيابة عن جلالته. أخبرني تورابي بيك أنه سيتم استقبالي في القصر في غضون يوم أو يومين، ولم يفته أنْ يمتدح عطف الخديوي وطيبته. كرر تورابي الزيارة في اليوم التالي حاملًا رسالة استفسار من جناب الوالي

[193] ميدان القناصل أو ميدان عرابي (المنشية) حاليًا.
[194] يقصد بتلر قصف الإسكندرية في11 يوليو 1882.
[195] New Hotel. فندق قصر الجزيرة أو "الماريوت" حاليًا.
[196] Turabi .

عن بعض الأمور، كما حمل إليّ أخبارًا جيّدة مفادها أنّ الخديوي سيقوم بجولة في الصعيد في ظرف أسبوع. وأثناء زيارته قدمني تورابي إلى فتاة جميلة من يهود الإسكندرية تتحدث الإنجليزية ببراعة وإتقان رغم عمرها الذي لا يتجاوز السادسة عشر، ناهيك عن الألمانية والفرنسية والإيطالية وبعض العربية. على أي حال من الشائع في مصر أنْ تجد أطفالًا يتحدثون العديد من اللغات.

عندما غادر تورابي زُرت "روجرز بيك"، [197] أعظم دارسي العربية في زمانه من الإنجليز بما فيهم الأستاذ "بالمر". [198] يعتقد أهل هذه اللغة أنّ "روجرز" هو الأجنبي الوحيد الذي يتحدث العربية كواحد منهم، بل أفضل من أفضلهم. أخبرني "روجرز" بما يتناقله بعض المصريين من أنه قد وصلت مسامع الخديوي أخبار كنز هائل من الذهب والجوهر؛ ومِن ثم فقد بيّت جلالته النيّة للتوجه إلى الصعيد لاستخراجه، لكنّ البعض الآخر رفض هذا الكلام؛ فهل يُعقل أن يُقدِم رجل في مثل مكانة الخديوي على هذه المغامرة الشاقة؟! مستحيل بالطبع.

وصلت في اليوم المحدد لاستقبالي إلى قصر عابدين حيث يُمضي الخديوي دومًا ساعات النهار. تم توجيهي نحو حجرة انتظار جلس بها ضباط تشريفات ومسئولون آخرون يدخّنون على راحتهم. عندما سُمح لي بالدخول على جناب الخديوي تخطيت غرف انتظار أخرى حسنة الفرش ثم صعدت سلمًا رائعًا من الرّخام وانتهى بي المطاف في رواق ضخم. حين ولجت في الردهة كان جلالته بمفرده فقام من جلسته وصافحني مشيرًا إليّ لأجلس بجواره. كنت بالطبع قد ارتديت الز يّ الجديد وكذا الطربوش الذي لُقنت آنفًا أنه لا يصح ولا يليق مطلقًا خلعه في الحضرة الخديوية وإلا عُدّت هذه الفعلة وقاحة كبيرة. من الصعب أنْ أجد كلمة طيبة لوصف غطاء الرأس هذا الذي نُزعت حوافه والمسمى بالطربوش فلا هو بالجذاب ولا هو فعّال في الحماية من الشمس، لكن فيما عدا ذلك فإنّ الز يّ أوروبي وهو عبارة عن معطف طويل وياقة منفصلة. في الحقيقة حين قرر البَاشَوات استبدال أثوابهم الفضفاضة بحثوا في أوروبا عن طراز من الملابس المحترمة وانتهوا إلى حُلل القساوسة البريطانيين. تُضفي هذه الملابس من الناحية الفنية مشهدًا حزينًا إذا ما قورنت بثياب الشرق الناصعة الخفيفة، كما أنها من الناحية العملية غير مريحة وغير مناسبة للأجواء الحارة، لكن تمّ غضّ الطرف عن هذه العيوب نظرًا لما تمثله

---

[197] توفي روجرز بيك Rogers عام 1884. (المؤلف)

[198] Palmer.

هذه الأزياء من مكانة أدبية. يُسمّى هذا المعطف أيضًا "ستامبولين" [199] وربما كان للأتراك بكياستهم الشرقية الفضل في تعديل المثل الشهير فجعلوا الذئب يرتدي ثوب الرعاة.[200]
حين يتأهب المرء لدخول الحضرة الخديوية يجب عليه التأكد من أنّ أزرار معطفه مغلقة، تمامًا كما يفعل أبناء البلد حين يسحبون أكمامهم الطويلة لتغطي كفوف أيديهم. لكن ما أعظم دماثة خُلق الخديوي وتبسطه وتلطفه! خلع وجهه البشوش الذي يُرى دائمًا على سجيته وكذا صوته الذي يأخذ بالألباب وتصرفاته المهيبة الرزينة على شخصيته سحرًا وفتنة ورثهما عن والده وأورثهما بدوره لأولاده.
تحدث الخديوي بودٍّ كبير وأنا أدخن لفافة من التبغ قُدمت لي. من الغرابة بمكان أنّ الخديوي لا يدخن، بل قل إنه الشرقي الوحيد الذي قابلته لا يدخن. وجدت الفرصة سانحة فأخبرت الخديوي بالقصة التي أشاعها أهل البلد عن الكنز المدفون. ضحك جلالته معلقًا بحسن نية واضحة أنّ الكنز الوحيد الذي يطمع فيه هو رضا ورخاء شعبه.
قبيل نهاية المقابلة أعطاني الخديوي إحساسًا بأنه راضٍ عني وأنّ الأميرين الصغيرين سوف يراودهما نفس الشعور. أخبرني كذلك أنه يأمل في تحسن لغته الإنجليزية عن طريق التحدث معي من وقت لآخر. بدوري أخبرت جلالته أنّ وجودي في خدمته شرفٌ كبير ثم سلمت عليه وتراجعت للخارج مبقيًا وجهي ناحيته كما هو مُتبع.

[199] Stambouline نسبة إلى إسطنبول التي ظهرت فيها هذه المعاطف أولًا في بدايات القرن التاسع عشر.
[200] أصل المثل "في ثوب الحملان" A wolf dressed in sheep's clothing .

(1891)

"كيف ذهبنا وماذا شاهدنا" – شارلز ماكورميك ريف

HOW WE WENT AND WHAT
WE SAW

A FLYING TRIP THROUGH EGYPT
SYRIA, AND THE ÆGEAN ISLANDS

BY

CHARLES McCORMICK REEVE



"From lands of snow to lands of sun,
In search of knowledge, rest, and fun."

G. P. PUTNAM'S SONS
NEW YORK LONDON
27 WEST TWENTY-THIRD ST. 27 KING WILLIAM ST., STRAND
The Knickerbocker Press
1891

[All Rights reserved]

من الفصل الثالث

الإسكندرية

تبدد الكثير من متعة الرسو في ميناء الإسكندرية بسبب رسو السفينة على رصيف المرفأ بدلًا من أنْ تُنزل ركابها إلى القوارب الصغيرة كما كان الحال في السابق، ولكنّ هذا التغيير سبب لنا رعبًا فظيعًا. ما لبثت أنْ أخرج من قمرتي حتى قابلت "ليو سي_____، كان يجري سريعًا في القمرة دون أنْ يعتمر قبعته، وبدا عليه الحماس الشديد. "يا للعجب" صاح قائلًا ذلك وهو يمرّ مُسرعًا، ثم أردف قائلًا: "لقد صعد القراصنة على متن السفينة!" استدرت بسرعة وأمسكت رغيفًا من خبز السفينة من على المنضدة التي كانت أمامي فلم أكن عازمًا على إهدار حياتي دون أدنى مقاومة، وعند دَرج السفينة وجدت الأتراك ينزلون. عندما روّعهم تهديدي لهم توقفوا وأمسكوا بطرابيشهم قائلين: "كوك، كوك، كوك [201]". فجأة لاحت لي فكرة وسقطتُ على رقبة الرجل الطويل المسلم الذي كان الأقرب إليّ وكان يرتدي ملابس

[201] إشارة إلى أنهم من شركة "توماس كوك"!

مزركشة وغلبتْ عليّ طبيعتي الانفعالية فانفجرتُ في البكاء. علمتُ أنّ صاحب "فكرة مرافقة الأفواج التي تتم بصورة شخصية" هو "كوك باشا".[202] عندما عرّفنا أنفسنا سرعان ما تولى أمرنا السيد "ميل"[203] - وهو شاب إنجليزي جذاب- وتم الاعتناء بحقائبنا ثم مررنا من مكتب الجمارك بأقل رسميات ثم وصلنا إلى فندق عباس وهو فندق نظيف ومتجدد الهواء ومريح يتمنى المرء أنْ يقيم في مثله.

كانت الخدمة في الفندق ممتازة وكذلك الطاولات فلم يكن هناك فرقٌ كبير بينها وبين فندق "بيندا"[204] الشهير بباريس. استخدمنا كوبونات شركة "كوك" في الشرق، وأؤكد لكم أننا بدلًا من الحصول على الأسوأ في كل مكان كما هو معروف عن هذه البطاقات، حصلنا على الأفضل في كل شيء.

لم يتبقَّ شيء من مدينة الإسكندرية القديمة، التي كانت مليئة بالنخيل في عام 232 ق.م. وكان سكانها 600000 نسمة، وكانت تحتل المركز الثاني في الثروة والأهمية بعد مدينة روما التي كانت تتبع الامبراطورية، سوى "عمود بومباي" كما سمعت أنهم يسمونه كذلك. هذا الأثر القديم شيّده في عام 302 بومبيوس،[205] وليس بومبي العظيم،[206] لتخليد ذكرى انتصار الامبراطور دقلديانوس على أخيل،[207] أحد المتمردين من الرومان الذي قاد ثورة ضدّه، ويقع على "ربوة مرتفعة" كما يطلق عليها هنا في هذه البلد المستوية، على ارتفاع حوالي ستين قدمًا فوق مستوى البحر. يتكون عمود بومباي من عمود وقاعدة وتاج ودعامة، إلا أنّ التاج والدعامة يبدو أنهما غير مكتملين وليسا على نفس مستوى الحرفية التي صُنعت بها بقية الأجزاء. صُنع العمود من الجرانيت الأحمر المصقول جيّدًا وبغضّ النظر عمّا إذا كان هناك في السابق تمثال من أي نوع أعلى من هذا العمود أم لا فهو بالفعل أثرٌ يستحق بجدارة أنْ يخلد إنجازات حياة أي شخص. بلغ الارتفاع الكلي للعمود حوالي مائة قدم، أما العمود الاسطواني فهو حجر ضخم على شكل مسلة ويبلغ طوله ثلاثة وسبعين قدمًا ومحيطه تسعة وعشرين قدمًا!

---

[202] توماس كوك كان رجل أعمال بريطانيًّوأسس مكتب السفريات المشهور عالميًّا "توماس كوك".

[203] Mill.

[204] Binda.

[205] Pompeius.

[206] Pompey the Great.

[207] يقال إنّ هذا العمود شُيّد بعد أن أخمد الامبراطور " دقلديانوس" الثورة التي قام بها القائد الروماني" لوكيوس دوميتيوس دوميتيانوس" المُلقب بـ" أخيل "في الإسكندرية.

كان هناك صورة قديمة في الإسكندرية لهذا العمود بها تمثال رجل في الأعلى ومن المحتمل أنْ يكون هذا التمثال لم يستطع تحمل الرائحة المُنبعثة من مقابر المسلمين المجاورة له، لذا نزل من موقعه العالي منذ قرون خلت.

بعد أنْ تناولنا فطورنا خرجنا للتنزه في الحوانيت. كانت معرفتي بالحوانيت تقتصر على ما رأيته من الخيام الجميلة والمقصورات التي خبرتها في المعارض التي تقام بالكنائس في أمريكا- حيث يشتري المرء شيئًا قيمته عشرة سنتات ولا يحصل على الباقي عندما يدفع ورقة قيمتها خمسة دولارات. أعتقد أنّ هذه عادة شرقية، بالرغم من أنهم يطلبون مائة بالمائة أكثر مما يتوقعون أنْ يأخذوه.

كان هناك العديد من الحوانيت العصرية الجيّدة في المدينة يملكها يونانيون وأوروبيون، ولكنْ كانت هناك بعض الأحياء التي تخضع فيها التجارة تمامًا للأرمن، والأتراك، والمصريين. كانت مساحة الحوانيت تتراوح من ثمانية إلى عشرة أقدام، وعلى الباب أو مدخل الحانوت (كانت مداخل معظم الحوانيت تُزال تمامًا أثناء ساعات العمل) يجلس صاحب الحانوت وبضاعته تكون مرصوصة في كومة خلفه. كانت تلك الحوانيت تبيع البطاطين، والسجاد، والملابس القطنية والكتانية، والتبغ، والطُرح الحريرية، والمفروشات من سوريا ومكة ومن المحتمل أنها كانت مصنوعة في نيوجيرسي، وبعض الأحذية والقباقيب معظمها من اللون الأحمر أو الخمري وجميعها من نفس الشكل الذي كان المصريون يرتدونه منذ قرون مضت، وكان كل حانوت يتخصص في بيع لون مختلف. كان هناك تباين جليّ في مظهر نسل "تحتمس الثالث" وهم يصنعون أحذية بماكينات الخياطة التي اخترعها "هاو"،[208] ولكن الرجل العجوز المرح أخبرنا بينما كان يدوس بقدمه على دواسة ماكينة الخياطة أنه "لا بأس في ذلك". كانت جميع الفواكه، والخضراوات، والأسماك، واللحوم، والذبائح التي كانت مختومة بالخاتم الوردي الخاص بالتفتيش على المذبح، والمكسرات من جميع الأنواع، والبذور، والأخشاب التي تُباع بالوزن، ومحلات المخبوزات، والخمور، والمقاهي، وحوانيت المعلبات، كلها مختلطة بطريقة فوضوية بائسة.

عاينّا هنا للمرة الأولى المياه وهي تُباع وكأنها مشروب، فقد كان الساقي يحمل قربة مصنوعة من جلد الماعز ولها رقبة طويلة بها سدادة من نوع ما، تتدلى من كتفه،

[208] Howe.

وفي يده اليمنى كان هناك قدح من النحاس -عادة ما يكونان اثنين- يجلجل بهما ليجذب الانتباه عندما يضنيه النصب من النداء بصوت عالٍ ليعلم الناس أنه يبيع شيئًا يمكن شربه. رأينا باعة متجولين يبيعون مستلزمات البقالة، كانوا عبارة عن عرب حفاة الأقدام يحملون سلة من الخضراوات أو الفواكه، وزوجًا من الميزان القباني والمكيال الذي كان كبيرًا لدرجة أنه يكفي ليزِن الشخص نفسه وكل بضاعته. كان أولئك الباعة يبيعون الخس، والكرنب، والطماطم، والبطاطس، والتفاح، والبلح، والبرتقال، والرمان، والبطيخ، والمكسرات بجميع أنواعها، والأسماك الطازجة بكل الأوزان. لم أرهم أبدًا يستخدمون سوى مكيال واحد، على الرغم من أنه بدا صغيرًا على الميزان النّحاسي وبدا أنه خفيف الوزن بالنسبة لكمية البضائع التي كانت تُوضع أمامه في المقابل على الكِفّة الثانية وعندما رأيت في الكثير من المرات البائع وهو يرفع كِفّة المكيال ليعادل الوزن استنتجتُ أنّ البائعين الشرقيين قد سئموا من مشكلة الأوزان الناقصة. رأينا كل أنواع البشر، النساء العرب اللاتي يرتدين الحجاب الأسود، والبنات العربيات اللاتي لا يرتدين الحجاب، والبدو الذين جاءوا من الصحراء ومعهم مسدساتهم الضخمة المرعبة التي كانت طويلة جدًّا وكانت تمثل خطرًا أكبر من أخمصها عما تمثله من خطر من فوهتها في حالة إطلاق الأعيرة النارية منها، كما رأينا نوبيين ذوي بشرة سوداء لامعة مثل الأبنوس، وصبية صغارًا يلعبون لعبة "السيجا" [209] المصرية، وحناطير عتيقة وطبالي طويلة ومنخفضة تحمل عددًا كافيًا من الفوارغ لتلك الحمير الوديعة التي ستسحبها.

[209] استخدم الكاتب اسم لعبة "jackstones" وأغلب الظنّ أنه يقصد لعبة "السيجا" التي كان يلعبها الصبية بالحجارة في الطرقات والشوارع.

(1894)
"قضاء الشتوية في مصر" – آرثر بنتلي / س. ج. كريفينهوف

WINTERING IN EGYPT.

BY

ARTHUR J. M. BENTLEY, M.D.,

AND

REV. C. G. GRIFFINHOOFE, M.A.

PART I.

UNDER THE SHADOW OF THE PYRAMIDS.

PART II.

HINTS TO INVALIDS.

—

LONDON:
SIMPKIN, MARSHALL, HAMILTON, KENT & Co. Ltd.
1894.

الفصل الثاني

أول ما عاينّا من مصر

كان هناك شيء يوحي لنا أننا نقترب من الإسكندرية، وعندما نظرنا تجاه الشاطئ وجدنا أنّ اليابسة أصبحتْ قريبة بالفعل. كان أول مشهد للساحل مُحبِطًا- فلم يكن هناك سوى خط طويل من الرمال وحطام القلاع الساكنة. على اليسار، كان قصر رأس التين يتألق بجلاله وفخامته. أبطأت السفينة لأننا كنا نعبر بين البواخر التي كانت من مختلف البلدان، وبعد ذلك بقليل ألفينا أنفسنا في الميناء.

يا له من مشهد رائع! كان لون البحر أزرق صافيًا وكان يتموج تحت أشعة الشمس البديعة. كان أمامنا مدينة شرقية منازلها بيضاء. بدا من العجيب بعد أنْ أمضينا بضعة أشهر تحت هذه السماء الرائعة أنّ بهاء وعظمة ما كان يُعرف بأنه من الأجزاء المُشمِسة في أوروبا – مثل مدينة صقلية على سبيل المثال- لم يعُد مبهرًا لنا على الإطلاق عندما ذهبنا إلى هناك. لقد كانت أشعة الشمس الساطعة في مصر مقارنة بنظيرتها في أوروبا تُشبه مقارنة الضوء الكهربي بضوء قنديل الجاز العادي.

كانت هناك حشودٌ متأرجحة في انتظارنا. كان جلهم يصيحون ويشيرون وكان الصخب مريعًا. كان المكان يزخر بالألوان، كما كانت هناك مجموعات من الرؤوس المعممة لرجال يرتدون أسمالًا لونها أزرق فاتح أو داكن، ورجال كبار في السنّ تبدو عليهم المهابة يرتدون عباءاتٍ سوداءَ تُشبه إلى حد كبير عباءاتِ التخرج من الكلية، وغلمان يرتدون ألوانًا متنوعة من الصدريات، وملابس متعددة الألوان حول رقابهم ورؤوسهم، وضباط يرتدون زيًّا أنيقًا وتبدو عليهم الوسامة. كان رجال شركة "كوك" يرتدون زيًّا من الحرير القرمزي ويُمسكون بخطابات كبيرة صفراء اللون- وقد كان هذا المشهد مُبهجًا للسياح لأنّ موظفي شركة "كوك" قدموا لنا في سابق أسفارنا خدماتٍ قيّمة.

كان لدى العتالين في الشرق مهارة غريبة لحمل الأمتعة، فقد كانت الحقيبة تُرفع إلى الظهر وتبقى كذلك وتدعمها اليدان اللتان توضعان أدناها. لذا رأينا بعض الحمالين العرب يحملون أثقالًا ينوء بحملها العتالون الإنجليز. عند وصولهم إلى وجهتهم، كانوا يجلسون بهدوء وظهورهم تجاه الأرض ليضعوا الحمولة، لا يبدو الأمر سيئًا فالحمولة تصل في النهاية دون أنْ تصاب بأي أذى.

في النهاية أصبحنا على الشاطئ وحُملت أمتعتنا إلى الجمارك ومررنا منها سريعًا. جالت بنا إحدى العربات في المدينة حتى وصلنا إلى فندق "أبات" [210] الذي يطل على حدائق غناء بها نباتات "البوينسيتيا" [211] الطويلة مثل شجيرات "الليليك"، كانت مزدهرة ووارفة وتبدو كزهرات قطرها قدم على الأقل أو أكبر. كانت حدائق فندق "أبات" مبهجة دائمًا فقد كانت مُحاطة بجدران صفراء ولكن كان يغطي معظمها اللون الأخضر الجذاب للمصاريع، كان هناك رواق على نفس النسق على أحد الجوانب، كما كان هناك كوبري صغير في الحديقة وللوصول إليه من الأسفل كان هناك سلم حلزوني له تصميم رائع وأعلاه يتخذ شكل المظلة. كان هناك أسدان منحوتان من الصخور يراقبان المشهد الذي ينعم بالهدوء، والنخيل البديع الذي يتأرجح برفق في النسيم العليل، والطيور التي تزقزق وتثب في أقفاص جميلة ويعلو هذا كله الشمس المصرية التي تنشر دفئها المبهج.

---

[210] Abbat.
[211] Pointzettias.

بعد قليل من الراحة ذهبنا لنرى عجائب المدينة. كان من الغريب أنْ نشعر أننا في المدينة التي كانت قديمًا إحدى أعظم مدن العالم. فتحت حكم "بطليموس" ارتقت مدينة الإسكندرية إلى المجد. هنا عاش "إقليدس" عالم الهندسة العظيم، وهنا أيضًا كانت منارة الإسكندرية الشهيرة، ومكتبة الإسكندرية التي استُخدم جزءٌ كبير من كتبها لإيقاد النيران التي تدفئ الحمامات [212] لأنها كانت كتبًا غير القرآن. هنا خُطت السبعينية وهي الترجمة اليونانية للعهد القديم، وهي التي أفسحت المجال لمعرفة الديانة اليهودية ومجيء المسيح. من الإسكندرية نُقل جسد القديس مار مرقس الإنجيلي إلى مدينة "البندقية". القديس "أبوللو"، و"جيروم"، و"أثناسيوس"، و"أنطونيو"، و"كيرلس الأول"، و"كليوباترا" كانوا جميعًا هنا عبر التاريخ. بعد ذلك اشتُهرت مدينة الإسكندرية بمذبحة الإسكندرية في عام 1882 وما أعقبها من قصف للمدينة.

كان أحد الأشياء التي قمنا بها هي مشاهدة الكنيسة اليونانية الكبيرة التي كانت بالقرب منا. أعلمتنا الأجراس التي كانت تدق وكأنها توقظ الموتى من سباتهم العميق أنّ الكنيسة على مقربة منا، لذا ذهبنا وطرقنا الأبواب. عرض علينا أحد العرب المساعدة ولكننا رفضنا وعلى الرغم من ذلك، ظل ملتصقًا بنا مثل الطفيل، وفي النهاية اضطررنا إلى الموافقة له بالحصول على الإذن الذي لم نتمكن نحن من الحصول عليه، فبدت ابتسامة عريضة على وجهه الأسمر تنم عن النصر المبين الذي حققه. لا بد أنْ أتوقف هنا وأخبركم أنّ أي عربي يكون عازمًا على أنْ يصبح مرشدًا لك سيظفر بذلك في النهاية، فهو على علم بالتفاصيل وبشعاب مكة أكثر منك، وبما أنك ستوافق حتمًا في النهاية، فمن الأفضل أنْ تُذعِن بكل سرور من البداية. لم يكن هناك أي شيء مزخرف داخل المبنى، فقد كانت الكنيسة مثل غيرها من الكنائس في الشرق بها شاشة مزخرفة وعندما مررنا خلفها وجدنا خليطًا غريبًا من التناسق والاختلاف في البيئة المحيطة. كان الهيكل مزخرفًا بترف وعليه وُضع الكتابُ المقدس وهو مُغطى بغطاء رائع، بجانب هذا المشهد كان هناك كتاب صلوات متسخ جدًّا وجرّة صغيرة بها بخور، أمّا الغِطاء فقد كان عليه كتابات بالإنجليزية لاسم شركة تصنع معجون الأسنان.

[212] نفى كثير من المؤرخين تهمة إحراق عمرو بن العاص للمكتبة واتفق البعض على أنّ يوليوس قيصر هو الذي أحرق مكتبة الإسكندرية بسبب الحريق الذي بدأه لتدمير الأسطول المصري المرابط في ميناء الإسكندرية

بعد ذلك توجهنا إلى المدينة ورأينا ونحن في طريقنا شجارًا مسليًا بين صبيين وكان هناك حشد من البويجيين (ماسحي الأحذية) يراقبون المشهد بكل اهتمام. لم يُبد المقاتلان قدرًا كبيرًا من العنف وكانا يتصارعان أكثر من كونهما يضربان بعضهما بعضًا. كانا أقل حرصًا من العرب الذين كانوا في شوارع لندن، وذلك لأنهما نسيا تمامًا أن يراقبا مجيء الضباط، وقد جاء بالفعل أحد رجال الشرطة متمهلًا وضرب كلًّا منهما ضربة ثم أخذ الاثنين معه إلى السجن. سرعان ما تلاشى جُل غضبهما وانقادا طواعية بكل هدوء وكأنّ الأمر جزءٌ عاديّ من عمل اليوم.

حان الوقت لنغادر إلى القاهرة، وفي المحطة عاينّا مشهدًا يدلّ على التخبط، فلم يكن أي شيء معروفًا، ولم يكن أي شيء مرتبًا، كان من المُجهد شراء التبغ والحصول على الباقي من النقود لأنّ الرصيف كان مكتظًّا بالمرابحين (البائعين) والمرشدين الذين يصدرون ضجيجًا شرقيًّا بالفعل. نزلنا بعد نصف ساعة. كان المنظر ونحن نمرّ عبر الطريق جديدًا وممتعًا. تغلب على المشهد العام الرمال التي يعلوها النخيل الأخضر المائل إلى الرمادي، وحقول القطن، والقرى المبنيّة من الطين اللبِن، والمساجد الضاربة إلى اللون الأبيض، ومقابر العرب الموحشة التي كانت فجّة وبدائيّة لأقصى درجة. بدا أنّ الأحصنة بدأت تأخذ مكان الجِمال والحمير وقد أوضحت آنفًا كيف أنّ المظهر القبيح للإبل لم يكن متسقًا مع البيئة المحيطة به.

كانت هناك مجموعات كبيرة غريبة المنظر في طريق عودتها من أعمالها على هذه الطرق، كما كان هناك أنواع عديدة من الطيور بعضها كان لطيفًا للغاية مثل الطيور التي تُسمى بآباء منجل البيضاء أو طيور الأرز، ولكنها في الحقيقة نوع من البلشون[213]- سأتطرق لهذا الأمر باستفاضة لاحقًا. كان المشهد في الطريق للمحطة فاتنًا. علمنا أنّ هدف العربي في الحياة هو الحصول على النقود دون أنْ يعمل أي شيء في المقابل. كانت هناك مطالبات مستمرة بالبقشيش وفي بعض الأحيان كان البقشيش يُطلب مقابل الإجابة على أحد الأسئلة أو لمجرد كون المرء مصدرًا للإزعاج. إنّ عادة الطمع في الحصول على المال لمجرد أنك تملك أكثر مما لديهم عادة سيئة وتُعدّ وصمة في جبين شخصية المصريين. يمكننا أنْ نشعر بالامتنان لأننا نحن الإنجليز لا نقع في مثل هذا الخطأ، على الرغم من أنني أذكر ذات مرة ونحن في الكلية أنّ أحد أصدقائنا أنقذ صبيًّا آخر من الغرق، واعترته الدهشة في صباح

---

[213] طائر ذو صوت عذب، ملاك الحزين.

اليوم التالي عندما زاره والد الصبي وطلب منه نقودًا ليشرب نخب الرجل الذي أنقذ حياة ابنه.

كان السفه والاكتفاء الذاتي الذي ينعم به الأثرياء والموسرون يتناقض بشكل فجّ مع النظرة البائسة لأولئك الفقراء. لم يكن من الممكن نسيان الظلم والقسوة التي تحمّلها أبناء الطبقة الفقيرة لعدة سنوات. لقد أصبحت الأمور أفضل الآن، ولكننا دائمًا ما كنا نرى العرب عندما يشعرون بالظلم يرسمون تلك النظرة المثيرة للشفقة على وجوههم وكأنّ لسان حالهم يقول إنهم لم يكونوا ليظلموا. لماذا يعاني البعض من الفقر في بلد فيها الحياة ميسرة ورخيصة لأنّ الغذاء يتكون من الطماطم والخبز والعدس، هذا ليس ما نقوله نحن، [214] ولكن كان العديد منهم فقراء جدًّا وكان هذا الفقر يجعلنا نشعر بالأسى من أجلهم. أذكر أننا رأينا ذات مرة أحد المقيمين في "مينا"[215] – كان من أطيب وأروع الرجال- رأيته يُعطِي مبلغًا كبيرًا من النقود لرجل ضرير كان يُشمّس نفسه بجوار كوخ من الطين يُطلِق هو عليه اسم "المنزل". كان ذلك الرجل العجوز يتكئ على ابنه الذي كان من أغرب وأسوأ الصبيان الذين رأيناهم على الإطلاق. كانت فرحته العارمة بالنقود مشهدًا تجدر مشاهدته: فقد أخذ النقود واحتضنها على الفور بكلتا يديه ثم بصق عليها ليجلب لنفسه الحظ، وأخذ يتحسر أنّ عينيه الكفيفتين لا يمكنهما النظر ورؤية هذه النقود. "جزاك الله خيرًا" كان هذا هو دعاء المسلمين البسيط منذ القِدم، وكنا واثقين من إمكانية تحقّق هذه الأمنية.

جرى القطار سريعًا ووصلنا إلى القاهرة. كان العتالون والمترجمون من العديد من الفنادق موجودين هناك بأعداد كبيرة واضطررنا لخوض نفس مشهد الصخب والضوضاء إلى حدّ ما مرة أخرى. على أي حال، إذا كنتَ قد اتخذتَ قرارًا حاسمًا قبل أنْ تصل بشأن الفندق الذي ستقيم فيه فيجب عليك أنْ تكون حازمًا في هذا الأمر. نادينا رجلًا كان يرتدي الزيّ الأنيق والجذاب لفندق "مينا هاوس" وبهذا انتهت كل مشاكلنا. أذكر ذات مرة في هذه المحطة أننا رأينا دماثة خُلق ولطفًا من أحد الضباط الإنجليز المفوضين الذي يعمل مع الشرطة المصرية، كان أدبه جمًّا ولذا فعلى

---

[214] ذات مرة أخبرني أحد العرب أنّ الطعام والتبغ يكلفه قرشًا في اليوم. إنّ أجر العامل في الحقل عادة ما يكون ثلاثة قروش في اليوم. (المؤلف)

[215] يقصد فندق "مينا هاوس" وهو فندق ومنتجع يطل على الأهرامات ولعب دورًا مهمًّا في تاريخ مصر حيث أقام به العديد من الشخصيات العالمية مثل تشرشل، ونيكسون، وأغاثا كريستي وغيرهم.

الرغم من أننا لم نعرف اسمه، إلا أننا لم ننسَ أبدًا أخلاقه وسلوكه الراقي. وُضعت أمتعتنا على عربة تجرّها الحمير وركبنا نحن الحنطور ليأخذنا إلى الأهرامات.
كان المكان يزخر بالألوان، فعندما عبرنا فوق كوبري النيل أعجبنا الامتداد الرحب للنيل الذي كانت تتدفق عليه يوميًّا القوارب بأشرعتها التي تُشبه الأجنحة. عندما وصلنا حدائق الجيزة الغناء شعرنا بالبهجة عندما استشعرنا رائحة ثمار البرتقال.
أصبحنا الآن في شارع به شجر اللبخ [216] على طول سبعة أميال ويمتد حتى فندق "مينا هاوس". وفقًا لأوامر الخديوي السابق "أقيم هذا الطريق السريع في الصحراء مستقيمًا" في فترة وجيزة. وبالتدريج بدا أنّ الأهرامات أصبحت تأخذ مساحة أكبر.
كانت الأهرامات تبدو قريبة عندما بدأنا الطريق، أما الآن فقد ظهرت وكأنها بين أيدينا. عندما شاهدناها من هذا الطريق وقت الغروب بدت وكأنها مختضبة باللون الأرجواني بينما كانت السماء في الخلف تبدو متوهجة وبها لون ذهبي وقرمزي.
بدت المياه على جانب الطريق وكأنها مشتعلة وتتلون بلون الدم.
لا يمكن أبدًا أن تُمحى هذه الزيارة من مخيلتنا. وصلنا إلى القاهرة متأخرين وتولى أمرنا أحد الشخصيات البارزة الذي كان يرتدي أروع الثياب. كنا معتادين على الحياة الرسمية في انجلترا، ولكنّ المظهر المهيب لهذا الرجل وثوبه الطويل الذي كان لونه أبيض وذهبيًّا ويعلوه بُرنس [217] مطرز بتطريز مماثل وغطاء الرأس المصنوع من الحرير الذي كانت ألوانه لامعة حول رأسه جعلنا نظنّ أنه مُطران على الأقل. بعد ذلك انزعجنا عندما تبين لنا أنه مجرد مترجم وأنه مستعد أنْ يقبل بقليل من البقشيش. كان القمر منيرًا بكل بهاء وكان المشهد جليلًا عندما كنا عائدين إلى الفندق. عندما وصلنا في وقت متأخر من الليل استقبلنا فقط رجلُ الحراسة الذي كان يعمل ليلًا، ولكن سرعان ما بدأت الأنوار تُومض من الاسطبلات والأكواخ وبدأ العرب يُلقون التحية بمهابة. كان شعورًا غريبًا أن نكون في سكون منتصف الليل على أرض العجائب تحت ظلّ تلك المقابر الضخمة العتيقة والمهيبة التي سمعنا عنها دومًا هذه الأبيات-
أمامنا تقف في نسق مهيب،
هذه الآثار التي نافس الإنسان بها الطبيعة بجدارة

---

[216] اللبخ نوع شجري ينتمي إلى جنس الألبيزيا من الفصيلة البقولية .موطنها الأصلي جنوب آسيا.
[217] عباءة متصل بها غطاء للرأس

تلك الأهرامات التي لا تخشى أي مهيب
إلا الأمواج التي تضرب الساحل الصخري بغزارة
أو الرياح التي تأتي على قمم الجود، وتفخر بمثل هذا الصمود.[218]

قادنا مرشدنا ذو البشرة الداكنة عبر الشرفة إلى الباب الأمامي للفندق وقرع الأجراس الإلكترونية كثيرًا. استحسنّا فعله لأنّ هذا كان يجعل العتال يأتي سريعًا وهو مرتدٍ نصف ملابسه ويتذمر من كوننا غير صبورين. دلفنا ووجدنا أنفسنا في بهو فخم اندمج فيه الأثاث مع العمارة المغربية بصورة متناسقة وبديعة. علمنا في اليوم التالي أنّ وصولنا في وقت متأخر من الليل لم يلقَ استحسانًا من النزلاء في الفندق لأنّ الأجراس التي قرعناها في الليل أيقظتهم من سُباتهم. ومع ذلك فلا يجب إلقاء اللوم علينا فقد كان وصولنا ليلًا أمرًا غير اعتيادي. انتهت رحلتنا وخلدنا للراحة وتركنا النوافذ مفتوحة ونحن نتذكر أننا تركنا انجلترا غارقة في الثلوج.

---

[218] Burden of Egypt- Lord Houghton.

(1908)

حاج معاصر في مكة ـ آرثر ويفيل

A MODERN PILGRIM IN MECCA



MAJOR ARTHUR JOHN BYNG WAVELL

LONDON
CONSTABLE & COMPANY, LTD.

من "الفصل الأول"

من لندن إلى بيروت

كما نعلم فإنّ بمكة بيتـًا حَظي بالتبجيل في الجاهلية. ولكي نفهم علة قضاء الرسول على عبادة الأصنام ونشر الإسلام دون المساس بقدسية الكعبة يتعين علينا أن نتتبع قصة بسيطة وردت في الكتاب المقدس مع إعادة صياغتها طبقًا لوجهة النظر الإسلامية.

تعود أصول بناء الكعبة إلى آدم الذي سعى لمحاكاة بيت كان قد شاهده في الفردوس قبل هبوطه إلى الأرض. أعاد إبراهيم وإسماعيل البناء بعد الطوفان وكرساه لعبادة الإله الواحد. مرت القرون وانحرف العرب عن الدين الصحيح فتعددت أوثانهم، لكن ـ بالرغم من هذا الميل والزيغ عن درب المعبود الحق الذي رُفعت قواعد البيت العتيق بُغية مرضاته ـ ظل العرب يُجِلون الكعبة. تلك كانت الأوضاع حين شرع محمد في نشر رسالته. مع بدء الدعوة ولى المسلمون في الصلاة نحو القدس. ولأنّ

مفهوم القبلة هو الاتجاه نحو أقدس بقعة على وجه البسيطة، جاء الوحي ليستبدل بالقدس مكة التي شرفت بأول وأطهر بيت. والحج إلى مكة وأداء المناسك مرة في العمر فرض على كل مسلم شرط توفر الاستطاعة.

يعتقد بعض النقاد من غير المسلمين أنّ تغيير القبلة يُعزى إلى أسباب سياسية وأنّ ما تناقله المكيون أنفسهم من أحاديث خلال فترة ليست هينة من حياة الرسول معهم قد شكلت هدفه الأساسي. اعتمد الرخاء المادي للمكيين في ذاك الوقت وحتى يومنا هذا على قدسية المدينة، لذا كان الاحتمال الأكبر أنهم - عاجلًا أم آجلًا - سوف يصغو ن إلى دعوة الدين الجديد وصوت العقل طالما أنه لن يمسّ قدسية البلدة. بهذه الوسيلة الماهرة حقق محمد النجاح بل قد أضاف الكثير إلى هذه القدسية. كما يعتقد هؤلاء النقاد أيضًا أنّ صراعه مع اليهود كان أيضًا سببًا من أسباب تحويل القبلة.

مهما كان التفسير فإنه قد استقر في ضمير المسلمين أنّ الكعبة ومكة بل والإقليم المحيط بهما يتمتعون بصفة التقديس الشديد حتى إنه لا يجرؤ غير الموحد على وطء هذه الأراضي المقدسة. هناك احتمال ضعيف أنّ الرسول حرّمها على اليهود والنصارى فقد تمتع بعقلية أكثر تفتحًا من خلفائه، لكنهم فسروا أحاديثه على هذا النحو. ومن الغريب أنه لم تُسجّل واقعة واحدة لشخص جاهر بانتهاك هذه التعليمات وعاد يحكي لنا قصته.

امتد تأثير هذا الحظر ليشمل المدينة التي تمتعت بقدسية خاصة ذلك لأنّ الرسول وكثيرًا من صحابته قد دُفنوا فيها. من أجل هذا تضع أغلب الفرق الإسلامية قيمة كبيرة على هذه الزيارة ويرى الشيعة أنها تعدِل حجة.

لذا ليس من المستغرب حقًا أنْ تُثير هاتان المدينتان بسماتهما الفذة الفضول الشديد لأوروبا الغربية. وقبل أنْ نستطرد ليكن واضحًا أنه بمقدور أي شخص أنْ يزورهما بعد أنْ يعلن إسلامه. ينبغي عليك لكي تعتنق هذا الدين أنْ تذهب إلى القاضي لتردد بعض الصيغ ثم تخضع، في أغلب الأحيان، إلى عملية جراحيّة بسيطة، [219] ويلي ذلك التورع لكي يشهد المسلمون الذين تخالطهم بأنك مخلص في اعتناقك لهذا الدين، ومِن ثم تستطيع أداء فريضة الحج. وإذا كنت من الصابرين ودأبت على مراسلة ديوان الخارجية والباب العالي فقد تظفر بعد استنفا دهما لكل الذرائع والحجج والأعذار بجواز سفر خاص. عند حصول شخص ما على هذا الجواز تصبح

---

[219] الختان.

الحكومة العثمانية مسئولة عن شئونه فتُمكنه من السفر إلى مكة والمدينة دون التعرض لمخاطر، وربما وفّرت له أيضًا العناية والإرشاد. وعلى وجه العموم فإنّ هذه الشرعية أو الحماية لا تدفع عن هذا الشخص فضول الناس أو شكوكهم.
البديل الوحيد لزيارة هذه الأماكن هو التنكر، وهو أمر قد لا يروق للبعض. سلكتُ هذا النهج بين عامي 1908-1909 مدفوعًا بحب الاستطلاع جزئيًّا وكليًّا برغبة في التوغل داخل هذه الأراضي متخفيًا. بعد أداء المناسك بمكة في أيام معدودات يُعرف الشخص بالحاج، وهو لقب عظيم النفع للمسافر في الأقطار الإسلامية لما يقترن به من سمعة طيبة.
وتروي الصفحات التالية التي قمتُ بتدوينها عقب عودتي قصة هذه الرحلة التي لم يخطر على بالي آنذاك فكرة نشرها في كتاب. تُظهر هذه الرحلة بكل الأشكال الممكنة حقيقة أنّ الحجاز - كما كان دومًا - أرضًا عصيّة على الاختراق. أجد لزامًا عليّ أنْ أوضح عند هذه النقطة أنّ "مسعودي" هو شخص من أصول سواحيلية عملت على اصطحابه من "مومباسا" إلى انجلترا ليساعدني في إنجاز مشروعي هذا؛ وأما "عبد الواحد" فهو عربي من حلب مقيم في "برلين" وعمل لحسابي لاحقًا.
تجمع ثلاثتنا في ميناء "مرسيليا" يوم 23 سبتمبر 1908. كان من المفترض أن يبدأ الحج ذاك العام في مطلع شهر يناير. ويرجع تبكيرنا إلى ما عقدتُ عليه النية من زيارة المدينة (المنورة) أولًا، وقبلها المكوث لبعض الوقت في دمشق حتى أتقن تقمص الشخصية الشرقية فيطمئن قلبي قبل ولوجي في الأراضي المحرمة.
أول ما واجهنا من صعاب هو استخراج جواز سفر لي ولمسعودي. كان لعبد الواحد جواز يحتاج فقط إلى التجديد. قمنا ببعض الإجراءات لكي نتغلب على هذه المشكلة فظفرت بجواز سفر تركي أُدعى فيه "علي محمد"، في الخامسة والعشرين من العمر، مواطن من "زنجبار" يقصد مكة. وقعتْ هذه الوثيقة لاحقًا في يد السلطات التركية فأثارت بعض المتاعب، ولم يكن أمامي مناص من الادعاء أنّ المسئول الذي أصدرها لم يدرك أني إنجليزي وأنه لم يستلم أي رشوة لإنهاء هذا الأمر. وصلنا إلى تسوية مُرضية فيما يتعلق بمسألة جوازات السفر وتطلعنا إلى مغادرة مرسيليا. كان الفندق الذي أقمنا به رخيص الثمن (ثلاثة فرنكات في اليوم)، كما كان نتن الرائحة. أمضينا الظهيرة في التردد على شركات الملاحة آملين أنْ نحصل على تذاكر نوم درجة ثانية إلى مصر أو سوريا لكن باء سعينا بالفشل. الحجز الوحيد الذي وجدناه

متاحًا كان على الدرجة الأولى أو الثالثة لباخرة مملوكة لشركة P & O[220]
وكلاهما لا يناسبنا.
عندها لاحت لي فكرة الذهاب إلى "جنوة" لمعرفتي أنّ بها شركات بحرية أقل شهرة تزاول نشاطًا في الشرق وفيها - كما هداني تفكيري - يصعب اكتشاف حقيقة أمرنا إذا اضطررنا للمكوث لفترة طويلة، زد على ذلك أني لم أطأ هذه المدينة من قبل.
بعد أنْ عقدنا العزم أمضينا بعض الوقت في عمل الترتيبات الجديدة وغادرنا "مرسيليا" عند انتصاف المساء لنصل "جنوة" في اليوم التالي في تمام الساعة الرابعة عصرًا. أوينا إلى فندق رخيص في الطريق المؤدي إلى محطة الركوب.
كانت حالة الفندق مزرية، لكن أسوأ ما فيه وأكثر ما أثار حنقي هو الضجيج الذي لا ينقطع في الشوارع الممهدة لدرجة أننا ألفينا صعوبة في سماع بعضنا البعض من فرط الصخب. مع حلول المساء مضينا إلى مكاتب الملاحة وحصلنا أخيرًا على قَمْرة درجة ثانية على متن باخرة تدعى "فاليرنو" وكانت أول السفن المُخطط إبحارها بعد ثمانية أيام. لم يكن أمامنا بد من الصبر والانتظار بسبب هذه الظروف.
لم نفعل في "جنوة" أي شيء جدير بالذكر عدا تناول الطعام والنوم والقراءة والتجول في المدينة حتى تملكنا السأم. كان جيراننا من نزلاء الفندق تجارًا إيطاليين لا يميلون إلى الخلطة ولا يتمتعون بحب الاستطلاع.
مساء يوم وافق الثلاثاء ركبنا الباخرة. كانت "فاليرنو" التي تناهز حمولتها الألفي طن سيئة المنظر. جُهّزت قَمْرتنا بستة مضاجع وردهة متعددة الأغراض. خلا سطح المركب تمامًا من نزلاء الدرجة الثانية، واقتصر على عدد محدود من ركاب الدرجة الأولى المميزة. مضت الأيام الأولى على السفينة بشكل هين يسير فلم يكن بها غيرنا، لكن بعد أنْ رست في "نابولي" شُغلت جميع المضاجع. في الأوقات التي ثار فيها البحر أصاب المقيمين في قمرتنا الدوارُ وحين هدأت ثائرته رفعوا عقائرهم بالصخب. استغرقت رحلتنا إلى الإسكندرية تسعة أيام كاملة. حملت السفينة جنسيات أوروبية عديدة عدا الإنجليز. لم نخالط أحدًا بطبيعة الحال وجلسنا منزوين في نهاية سطح المركب.

---

[220] "شبه الجزيرة والشرق" Peninsular and Orient .

لإلمامي ببعض الفرنسية رحت أتحدث بها من حين إلى آخر مع شخص حسن الطلعة والهندام أخبرني أنه كان ضابطًا في معيّة الخديوي، [221] لكن غلب عليّ ظنٌّ قوي أنه لا يعدو أنْ يكون خادمه الشخصي.
ربضت السفينة في الإسكندرية في غسق الدجى، لكننا لم نغادرها إلا صباح اليوم التالي. تم اصطحابنا إلى مكتب الجوازات فأخذنا تأشيرة الدخول حسب الأصول المرعية، ثم انتقلنا إلى صالة الجمارك حيث أقررنا بعدم وجود ثمة ما نعلن عنه.
يتعين عليّ أنْ أنوّه بأنه قبل الوصول إلى اليابسة أخذت كل التدابير لإخفاء المسدسات والذخائر في حوزتنا وكذا بعض المستندات التي قد تُعرضنا للخطر كجواز سفري الإنجليزي ودفتر الشيكات وهلمّ جرًّا. حوَت حقائبنا بعض ساعات اليد وأشياء أخرى جلتها عظيمة القيمة انتوينا تقديمها كهدايا لاحقًا. وضعنا ما خفّ حمله وغلا ثمنه في جيوب الملابس حتى نجنبها الكسر، كما كانت معنا حقيبة أدوية وأربطة وأشياء أخرى من هذا القبيل. طلبوا منا فتح كافة الأمتعة وإخراج محتوياتها وقاموا بفحصها بكل عناية، كما انكبوا على قراءة كل الوثائق وفتحوا كل الكتب ووضعوا أيديهم بشكل عنيف على كل ما ظنوا أنه ذو قيمة. بعد تفريغ الحقيبة الأولى أمرونا بإعادة تعبئتها. أدركنا بعد كل هذا العناء مع الحقائب أنهم سيعرجون على جيوبنا فدبرت أنا ومسعودي أمر إخفاء المسدسات والمستندات والأشياء الأخرى.
بهذه الطريقة أمكننا تفريغ جيوبنا من محتواها، بيد أنه لم يكن من اليسير التحدث إلى عبد الواحد فأدركت أنّ في الأفق غيومَ كارثة وشيكة. صدق ظننا فلقد اقتادونا بعد الانتهاء من حقائبنا إلى مبني داخلي وفتشونا. لم يُعثر على أي ممنوعات معي أو مع مسعودي ولم يخرج من ملابسنا ما يثير الدهشة اللهم إلا مائتي جنيه ذهب. [222] أما عبد الواحد فقد أُجبر على إخراج ما في حوزته من مسدسات وذخيرة وبطاقات بريدية ومجوهرات أخذت تنهال بشكل غير منقطع. عمّت الإثارة المكان، وانقضّ الموظفون على المضبوطات. بعد تشاورهم فيما بينهم أزمعوا القبض علينا كأفراد مشتبه فيهم وعينوا علينا حراسة حتى مجيء المدير الذي رأى - عقب وصوله بساعتين من الانتظار- أنّ القضية أكبر منه فأحالها إلى الباشا. ولأنه كان شهر الصوم فقد تأخر ظهور الباشا حتى الواحدة ظهرًا، وعندما وصل أدركت على الفور

---

[221] عباس حلمي الثاني، 1874-1944.

[222] خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين حتى اندلاع الحرب العالمية الأولي عام1914 كان التعامل يتم بالمقياس الذهبي.

أنه واحد من هؤلاء الناس الذين يعانون من الصوم. لقد كان مزاجه عكرًا، فأخضعنا للتفتيش والاستجواب. أثارت حقيبة الأدوية والأدوات على وجه الخصوص الاهتمام وقوبلت بعدم الارتياح. تعذّر عليهم تخيل مدى جدوى هذه الأشياء لنا. مِن حُسن الطالع أني أوعزت إلى عبد الواحد آنفًا أنه في حالة احتدام النقاش فعليه أنْ يدّعي ملكية هذه الأشياء ويمسك بتلابيب الحديث. لقد كنا مدينين بنجاتنا لهذه البصيرة وحسن الحظ الذي أرجع لنا الوثائق دون تدقيق. تحول جُل الريب إلى عبد الواحد بصفته المخالف الرئيسي وخرجت أنا ومسعودي من دائرة الملاحظة وبقي فيها عبد الواحد الذي لم يشك أحد في حسن نواياه بصفته عربي المنشأ. ظل عبد الواحد يزبد ويرغي حتى حلّ بهم التعب فصرفونا في نهاية المطاف بحذر واحتفظوا بالموجودات في الجمرك لحين إعادتها لنا عند رحيلنا إلى بيروت.

رأينا ضوء الشمس مرة أخرى في حدود الساعة الثانية والنصف بعد الظهر وقد استبد بنا الجوع وحل بنا التعب، ومع هذا غمرنا شعور جليّ بأننا - بعد كل ما جرى وقيل - قد خرجنا بأقل خسائر. رفعت رأسي زهوًا وأنا أستقبل تهاني عبد الواحد الحارّة فيما يتعلق بالتخلص من الوثائق. لم يكن يعلم بهذا الصنيع ورأى- حال الإمعان في تفتيشنا على الملأ على نحو لا يضاهيه شيء في السوء- أنّ النقاب سيُكشف حتمًا عمًّا في الجراب، لكنْ عندما مر الأمر بسلام تملكه مزيجٌ متساوٍ من مشاعر الدهشة والارتياح؛ وأحسست منذ ذلك اليوم أني زدتُ تقديرًا في عينيه.

طلبت من حارس البوابات أنْ يُشير علينا بفندق رخيص يناسب حالنا المتواضع ففعل دون تردد. كان الفندق أعلى محل حلاقة ويتكون من مجموعة من الغرف المتراصّة. عندما دخلنا لنُلقي نظرة أدركت أنّ الحارس قد بالغ في التقليل من شأننا. كان الفندق جد رخيص (فرنك يوميًّا)، لكنه كان نظيفًا إلى درجة معقولة. بعد نزاع شديد مع الحمالين لمتاعنا سوّينا معهم الأمر في النهاية. استبدلنا ملابسنا وتناولنا بعض الطعام. جددنا نشاطنا بقيلولة قصيرة واستعدنا قوّتنا بالذهاب في المساء إلى حمام تركي.

عملت من باب الاحتياط على حلق شعر رأسي حتى أنفي عني قدر المستطاع الشكل الأوروبي، كما ارتديت ملابس عربية وكذلك فعل الآخرون. كنا جميعًا قبل هذه اللحظة نرتدي ملابس عادية والإضافة الوحيدة هي الطربوش. أحسست بالسعادة عندما وجدت أنّ مظهرنا لم يثر أي اهتمام من نوع خاص. خلال الأيام القليلة التي

أمضيناها في الإسكندرية كنا نُواجَه من حين لآخر بالسؤال عن مسقط رأسنا حيث بدا واضحًا أننا غرباء. عادة كان عبد الواحد يجيب بالنيابة عنا "بغداد" وفي الحالات التي كان من الضروري فيها التوضيح فإنّ "زنجبار" كانت تُرضي غرور المتطفلين.

في اليوم التالي حصلنا على ترخيص بالسفر على ظهر سفينة البريد الخديوية إلى بيروت التي كان مقررًا لها الإبحار بعد ثلاثة أيام. أتاحت لي هذه الفترة فرصة التأقلم مع الظروف المعيشية الجديدة وكذا ممارسة المصرية الدارجة.

السيرة الذاتية للمترجمين

د / محمد السيد علي عزب

- أستاذ الأدب الإنجليزي "المنتدب" بكلية التربية، جامعة الإسكندرية وجامعة فاروس.
- الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود وجامعة شقراء.

نشر له:

- الأساس في الترجمة، حورس، الإسكندرية، 2008.
- Brush upon your English، البراء، الإسكندرية، 2008.
- Enhance your English Vocabulary، البراء، الإسكندرية، 2008.
- تأثير المفاهيم الثقافية على دراسة اللغة الثانية مع التركيز على اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية، البراء، الإسكندرية، 2009.
- من مسرح الحرب: أمهات الرجال، رادا "ترجمة"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة المسرح العالمي، يناير 2010.
- روايات محظورة، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2010.
- اللغة الإنجليزية كما يتكلمها أهلها، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2010.
- قاموس المجاز المصوّر للغة الإنجليزية، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2010.
- اضحك وتعلم الإنجليزية، دار الإبداع، الإسكندرية، 2010.
- ست مسرحيات تبحث عن ناشر، دار الإبداع، الإسكندرية، 2010.
- مختارات من الأدب الأنجلو- أمريكي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، 2010.
- اللغة العالمية الموحدة: مقومات النجاح وعوامل الفشل، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، 2010.
- صدفة بتجمعنا (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، 2011.
- خيوط القدر (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، 2011.
- شعراء الجيش الثامن البريطاني، من العلمين إلى أورتونا، 1942-1945، آراؤهم وموقفهم من الحرب (رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية)، لامبرت للنشر الأكاديمي Lambert Academic Publishing، ألمانيا، 2011.

- الحب عبر أعمدة البرق (رواية للكاتبة الأمريكية إيلا شيفر ثاير)، ترجمة، دار طوى للنشر، بيروت، 2012.
- قبر راحيل (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، 2012.
- أرحام سماوية (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، 2012.
- كيف تُزيد حصيلتك من مفردات اللغة الإنجليزية وتثريها (مع مي موافي)، دار الوفاء، الإسكندرية، 2013.
- أمس انتهينا (رواية)، دار مير، الإسكندرية، 2013.
- الحياة في البلاط الملكي المصري (للمؤرخ الإنجليزي: ألفريد جاشوا بتلر)، ترجمة (مع مي موافي)، دار ليليت، الإسكندرية، 2013.
- بين الحب والحرب (رواية)، دار ليليت، الإسكندرية، 2013.
- أقفال العشق (رواية)، دار ليليت، الإسكندرية، 2014.
- رحلة حاج إلى مكة (للكاتب الإنجليزي: آرثر ويفل)، ترجمة (مع مي موافي)، دار ليليت، 2015.
- عقدة سليمان (رواية)، دار إبداع للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2015.
- التوهم والهوس والرهاب والعقد النفسية والمتلازمات الثقافية في السرد الروائي العربي: دراسة تتبعية، دار غراب، القاهرة، 2017.
- ذكريات أميرة مصرية (للكاتبة الإنجليزية: إلين شانيل)، ترجمة (مع مي موافي)، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2018.
- أنا نصفك الغائب عنك (رواية)، دار غراب، القاهرة، 2018.

د/ م ي محمود سليمان موافي

- مدرس اللغويات والترجمة بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها والترجمة الفورية بكلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر.
- مدرس مساعد منتدب بكلية اللغة والإعلام بالأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا والنقل البحري.
- درست في معهد اللغات للقوات المسلحة بالإسكندرية.
- تعمل وتحتفظ بعضوية نشطة في العديد من مؤسسات وجمعيات ومراكز ومكاتب الترجمة الدولية والمحلية.
- اشتركت ولها العديد من الأعمال المترجمة ومنها:

* Winning Debate
* U. S. Politics
* Cities of Truth

- كيف تُزيد حصيلتك من مفردات اللغة الإنجليزية وتثريها (مع محمد عزب)، دار الوفاء، الإسكندرية، 2013.
- الحياة في البلاط الملكي المصري (كتاب للمؤرخ الإنجليزي ألفريد جاشوا بتلر)، ترجمة مع (محمد عزب)، دار ليليت، الإسكندرية، 2013.
- حاج في مكة، آرثر ويفل، ترجمة مع (محمد عزب)، دار ليليت، الإسكندرية، 2015.
- ذكريات أميرة مصرية (للكاتبة الإنجليزية: إلين شانيل)، ترجمة مع (محمد عزب)، المركز القومي للترجمة، القاهرة (2017).